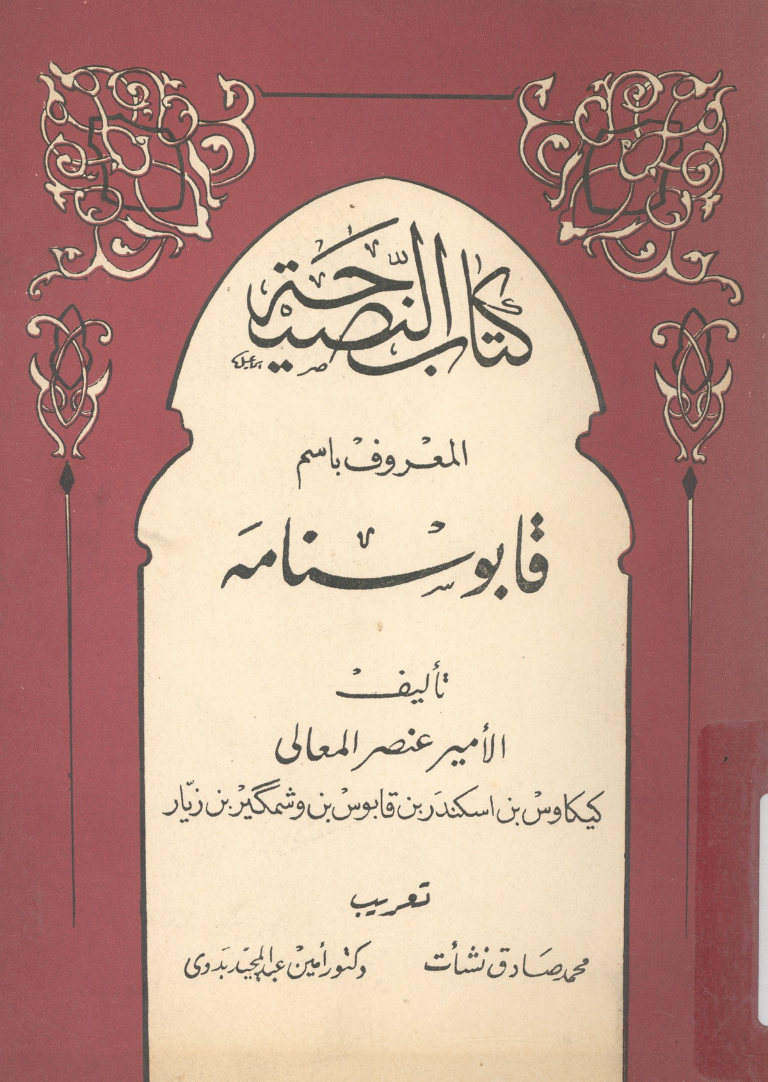


كتاب النصيحة

المعروف باسم

قابوسنامه

تأليف

الأمير عنصر المعالى

كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير بن زيار

تعريب

محمد صادق نشأت — دكتور أمين عبد المجيد بدوى

كتاب النصيحة

المعروف باسم



تأليف

الأمير عنصر المعالي كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير بن زيار

تعريب

محمد صادق نشأت

دكتور
أمين عبد المجيد بدوي

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد

فهرست موضوعات وحكايات قابوسنامه

الموضوع	الصفحة
مقدمة « محمد صادق نشأت »	١
تمهيـــد « دكتور أمين عبد المجيد بدوى »	٣
ا — بيئة قابوسنامه	٦
ب — مؤلف قابوسنامه	٢٠
حـ — تاريخ قابوسنامه	٢٤
ى — موضوع قابوسنامه	٣٠
هـ — حكايات قابوسنامه	٣٣
و — أسلوب قابوسنامه	٣٩
ز — تأثير قابوسنامه فى الأدب الفارسى	٤١
المقدمة « مقدمة المؤلف »	٤٦
البابـ الأول : فى معرفة الله تبارك وتعالى	٥٠
البابـ الثانى : فى خلق الأنبياء ورسالتهم	٥٢
البابـ الثالث : فى شكر المنعم	٥٤
البابـ الرابع : فى زيادة الطاعة عن طريق القدرة	٥٧
حكاية رئيس بخارى والدرويش فى الحج	٥٨
البابـ الخامس : فى معرفة حق الوالدين	٦٠
البابـ السادس : فى زيادة الجوهر من زيادة الفضل	٦٢
حكاية الخليفة المتوكل وغلامه الفتح	٦٤
حكاية أفلاطون والرجل الجاهل	٦٨

الموضوع	الصفحة
حكاية محمد بن زكريا والمجنون	٦٩
حكاية خسرو برويز ووزيره بزر جمهر « أول صفحة »	٧٠
الباب السابع : عن الحسن والقبيح فى الكلام	٧٢
حكاية كيكاوس وأبى الأسوار	٧٢
حكاية هرون الرشيد والمعبر	٧٤
حكاية الرجل وغلامه	٧٥
حكاية بزر جمهر والمرأة	٧٥
حكاية الصاحب والفقيه الشافعى والشاب العلوى	٧٧
حكاية الخليفة المأمون وتربة أنو شيروان	٧٨
الباب الثامن : فى نصائح أنو شيروان العادل لابنه	٨٠
الباب التاسع : فى الشيخوخة والشباب	٨٤
حكاية الرجل الشيخ « السطر الثامن »	٨٤
حكاية الخياط والجرة	٨٤
حكاية الشيخ والشاب	٨٥
حكاية كيكاوس ومجاهد الحاجب	٨٨
الباب العاشر : فى ترتيب تناول الطعام	٩٠
حكاية الصاحب بن عباد وضيفه	٩١
الباب الحادى عشر: فى ترتيب تناول الشراب	٩٢
الباب الثانى عشر : فى التضييف والضيافة	٩٥
حكاية ابن مقلة ونصر بن منصور التميمى	٩٦
حكاية الخليفة المعتصم والرجل المجرم	٩٧
الباب الثالث عشر: فى المزاح ولعب النرد والشطرنج	١٠٠
حكاية النبى والعجوز فى بيت عائشة « آخر صفحة »	١٠٠

الموضوع	الصفحة
الباب الرابع عشر : فى العشق	١٠٢
حكاية شمس المعالى والعلام الجمل	١٠٤
حكاية السلطان مسعود ونوشتكين	١٠٥
الباب الخامس عشر : فى الاستمتاع	١٠٧
الباب السادس عشر : فى أدب الذهاب إلى الحمام	١٠٨
الباب السابع عشر : فى النوم والراحة	١٠٩
الباب الثامن عشر : فى الصيد والطرد	١١٢
الباب التاسع عشر : فى لعب الصولجان	١١٤
حكاية عمرو بن الليث وأزهر الحمار	١١٤
الباب العشرون : فى قتال الأعداء	١١٦
حكاية شمس المعالى وعبد الله الجازى	١١٧
الباب الحادى والعشرون : فى جمع المال	١١٩
الباب الثانى والعشرون : فى إيداع الأمانة	١٢٣
حكاية الطرار وعابر السبيل	١٢٣
الباب الثالث والعشرون : فى شراء الرقيق	١٢٦
الباب الرابع العشرون : فى شراء البيت والضياع	١٣٤
الباب الخامس والعشرون : فى شراء الخيل	١٣٠
حكاية أحمد بن فريغون والراعى	١٣٩
الباب السادس والعشرون : فى الزواج	١٤٠
الباب السابع والعشرون : فى تربية الولد	١٤٢
حكاية كيكاوس وتعلم السباحة « السطر التاسع »	١٤٢
حكاية كشتاسف فى مدينة القسطنطينية	١٤٤
حكاية شهربانو ابنة ملك العجم	١٤٦

الموضوع	الصفحة
الباب الثامن والعشرون : فى الصداقة واتخاذ الأصدقاء	١٤٨
حكاية سقراط وتلاميذه	١٥٠
الباب التاسع والعشرون: فى الحذر من العدو	١٥٢
حكاية مهذب العيار وقشرة الشمام	١٥٢
حكاية أرملة فخر الدولة والسلطان محمود	١٥٣
حكاية ذى القرنين ووصيته	١٥٥
الباب الثلاثون : فى العفو والعقوبة	١٥٨
حكاية معاوية والرجل المجرم	١٥٩
الباب الحادى والثلاثون : فى طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك	١٦٢
حكاية قاضى القضاة أبى العباس الرويانى والشجرة	١٦٦
الباب الثانى والثلاثون : فى التجارة	١٦٩
حكاية التاجر والبياع	١٧١
حكاية صاحب القطيع والراعى	١٧٤
الباب الثالث والثلاثون : فى علم الطب	١٧٦
الباب الرابع والثلاثون : فى علم النجوم والهندسة	١٨٤
الباب الخامس والثلاثون: فى رسم الشعر	١٨٧
الباب السادس والثلاثون: فى الغناء	١٩٠
الباب السابع والثلاثون : فى خدمة الملوك	١٩٤
حكاية فضلون بن ماماِن ومستشاره	١٩٤
حكاية الأمير فضلون وأبى اليشير الحاجب	١٩٥
الباب الثامن والثلاثون : فى آداب المنادمة	١٩٨
حكاية القاضى عبد الملك العبكرى والمأمون	٢٠٠

الموضوع		الصفحة
الباب التاسع والثلاثون	: فى الكتابة والإنشاء	٢٠١
	حكاية الصاحب اسماعيل بن عباد والكتبة	٢٠١
	حكاية السلطان محمود والخليفة القادر بالله	٢٠٢
	حكاية الأمير أبى على سيمجور وكاتبه	٢٠٣
	حكاية ربيع بن المطهر القصرى والصاحب	٢٠٧
الباب الأربعون	: فى شرائط الوزارة	٢٠٨
	حكاية الملك والوزير المعزول	٢٠٨
	حكاية الصاحب اسماعيل بن عباد وفخر الدولة	٢١٠
	حكاية أبى الفضل البلعمى وسهل الخجندى	٢١١
الباب الحادى والأربعون	: فى نظام القيادة	٢١٤
الباب الثانى والأربعون	: فى آداب الملك	٢١٧
	حكاية السلطان طغرل بك والفارابى العالم	٢١٨
	حكاية السلطان محمود وأبى الفرج البستى	٢٢٠
	حكاية السلطان مسعود والعجوز المظلومة	٢٢١
	حكاية كيكاوس عن عادات السلطان مودود وملوك الروم	٢٢٢
	حكاية فخر الدولة وقابوس بن وشمكير	٢٢٣
	حكاية كيكاوس ومنادمة السلطان مودود	٢٢٥
	حكاية الإسكندر ومقاتلة العدو الغافل	٢٢٦
الباب الثالث والأربعون	: فى الزراعة والصناعة	٢٢٨
الباب الرابع والأربعون	: فى المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة	٢٣٠
	حكاية أبى الفضل الهمدانى العيار	٢٣٣
	حكاية الصوفيين	٢٣٦
	حكاية الشبلى والصبيان فى المسجد	٢٤٣
صفحة الخطأ والصواب		٢٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان من أعز أمانى منذ وطئت قدمى أرض هذه الديار تعريف أبناء العربية ببعض التراث الإسلامى الذى حفظته لنا المكتبة الفارسية قديمها وحديثها .

وكم كنت سعيدا عندما أتيحت لى زمالة صديقى الأستاذ الفاضل الدكتور يحي الخشاب أستاذ الأدب الفارسى بجامعة القاهرة فى ترجمة ونشر تاريخ البيهقى .

ولا أجد وأنا أقدم اليوم ترجمة قابوسنامه للقراء خيرا من كلمة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين التى قدم بها ترجمة كتاب تاريخ البيهقى فى عدد الجمهورية الصادر فى يوم الأربعاء ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٧ حيث قال : (وفى اللغات الإسلامية غير العربية كتب قديمة وحديثة لها قيمتها ومن الحق علينا لأنفسنا أن نعرفها ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، فللغرب الأوربى والأمريكى خطره الذى لا معنى للنزاع فيه ، والنقل عن لغاته المختلفة ضرورة ملجئة من ضرورات الحياة الحديثة ، ولكن للشرق الإسلامى وغير الإسلامى خطره العظيم أيضا ، والنقل عنه واجب لتتم الثقافة ويحسن العلم بأحوال الأمم الشرقية على اختلافها وما ينبغى لأحد العالمين أن يشغلنا عن الآخر) .

وقد عرف قابوسنامه فى الأدب الفارسى باسم « كتاب النصيحة » كذلك وهذه التسمية تطابق موضوعه فقد ألفه فى القرن الخامس الهجرى الأمير الزيارى عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير بن زيار

وقدمه لابنه وخليفته گيلا نشاه ليعلمه كيف يعيش ويحكم، فجاء مرآة صادقة للمجتمع الإسلامى والحضارة التى سادت حواضر العباسيين قبل غزو المغول. وسيشاركنى القارئ بعد الفراغ من قراءة هذه الترجمة الرأى فى أن هذا الكتاب من الآثار الفارسية الخالدة التى قدمت إلى المكتبة العربية ولا يستغنى عنه باحث مدقق أو دارس محقق للحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامى، فهو كتاب جمع بين ضفتيه جوانب متعددة وصورا حية من حياة القوم فى عصر تأليفه ويعد كذلك من أقوم كتب التربية الإسلامية، اتجه فيه المؤلف اتجاها واقعيا لا مثاليا فى تربية ولده وتبصيره بالحياة كما هى كائنة لا كما يجب أن تكون وحاول أن يعلمه كيف يسلك فيها آمن السبل وقد وكلت إلى زميلى فى الترجمة وتلميذى الدكتور أمين عبد المجيد بدوى تعريف القراء بالكتاب تعريفا وافيا لحمل عنى هذه الأمانة وأغنانى عن الإسهاب والإطالة فأحيل القارئ إلى كلمته التمهيدية وهى خلاصة دراسة مستفيضة للكتاب ٩.

صادق نشأت

الجمعة ٤ ذى القعدة ١٣٧٧ .
٢٣ مايو ١٩٥٨ .

تمهيد

ما أكثر من نلتقي بهم فى حياتنا من الناس ولكن قل أن يترك واحد منهم فى وجودنا أثراً واضحا أو تتوثق بيننا وبينه صلة وتتوطد صداقة وألفة، وكذلك الكتب نرى الكثير منها ونتصفح بعضها ولكن يندر أن نجد من بينها كتابا نطالعه الفينة بعد الفينة فنرى فيه كل مرة جديدا يسترعى اهتمامنا ويغرينا بمعاودة الدرس والقراءة، وكتاب الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس ابن وشمگير بن زيار واحد من تلك الكتب النادرة، لزمنى ولزمته منذ التقيت به أول مرة صيف عام ١٩٥٢ م فى زيارة لصديقى الأستاذ على حسين يعقوب بمكتبة جامعة القاهرة، قدم لى صديقى على نسخة من هذا الكتاب وقد فرغ وشيكا من قيدها بدفاتر المكتبة تحت رقم (١٧١٨ فا) وكانت نسخة أنيقة الطبع من سلسلة مطبوعات أوقاف جيب التذكارية[١] أشرف على طبعها روبن ليوى[٢] أستاذ اللغة الفارسية بجامعة كمبردج[٣] وتاريخ طبعها سنة ١٩٥١ م .

تصفحت الكتاب فأغرانى موضوعه وحجمه بدراسته وترجمته وكنت قد فرغت قبل ذلك من ترجمة « گلستان » السعدى الشيرازى شاعر الأخلاق والغزل والتصوف عند الفرس فى القرن السابع الهجرى .

واتفق — لحسن الطالع — أن قدم القاهرة وقتذاك أستاذى الفاضل محمد

---

(١) E. J. W. Gibb Memorial Series, New Series, XIII.

(٢) Reuben Levy.

(٣) Cambridge.

صادق نشأت موفدا من جامعة طهران لتدريس اللغة الفارسية وآدابها بجامعة القاهرة ، فسعيت إليه وعرضت عليه فكرتى فرحب بها وشرعنا سويا فى الترجمة وفرغنا منها يوم الأحد فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٥٢م الموافق الثانى من المحرم سنة ١٣٧٢ هـ . وقد لمسنا أثناء الترجمة أن العبارة الفارسية مع وضوحها وبساطتها وقلة الغريب فيها وبعدها عن التعقيد والغموض فى أكثر المواضع كانت تتأبى على الترجمة العربية القويمة المقيدة بأمانة النقل والتزام النص وتستعصى عليها فى كثير من الأحيان وذلك لقصر الجمل الفارسية وكثرة العطف والتكرار فيها وغرابة بعض العبارات والتشبيهات والأمثال ووجود اصطلاحات قديمة غير مأنوسة لنا اليوم ، فدعانا كل هذا إلى إعادة النظر فى الترجمة مرة بعد أخرى حتى تسنى لنا إخراجها على صورة وفقنا فيها قدر المستطاع بين استواء الأسلوب العربى ودقة النقل ومطابقة الأصل مؤثرين تحرى المعنى الدقيق على بهرج العبارة المنمقة .

ثم دارت الأيام دورتها وشغلنا عن الترجمة فطويناها فيما طوينا لنعود إليها بعد حين .

وفى العشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٤ م هبطت بى الطائرة عاصمة إيران فأقمت بها عامين ضيفا على جامعة طهران ، وكان سفرى إلى مهد الأدب الفارسى والحضارة الفارسية أمنية عزيزة تحققت بعد اجتياز عقبات وطول انتظار ، ولقيت من كرم ضيافة الإيرانيين وتشجيع أساتذتى بالجامعة ما مهد لى طريق البحث والدرس وحببنى فى البلاد وأهلها ، كما شغفت من قبل بأدبها ، فعشت بين أهل كرام وأصدقاء أوفياء أكن لهم بين جوانحى أطيب الذكريات .

وقد صحبنى الكتاب وصحبته فى رحلتى هذه كذلك وقدر له أن يكون موضوع رسالتى التى حصلت بها على درجة دكتوراه فى الأدب الفارسى من

كلية آداب جامعة طهران [1] فزادنى البحث والدرس اتصالاً بالكتاب وصاحبه وهيأت لى الدراسة الجامعية المنهجية الإشراف على آفاق جديدة فيه لم يمتد إليها بصرى من قبل وخرجت من دراستى بنتائج علمية جديدة مدعمة بأسانيد قوية كشفت عن أخطاء مشهورة ومعلومات غير صحيحة عن قابوسنامة ومؤلفه استقرت طويلا فى الأذهان .

وطبعت الرسالة فى طهران عام ١٩٥٦ م بعد مناقشتها وإجازتها ونشرتها تحت عنوان (بحث درباره قابوس نامه — تأليف — دكتر أمين عبد المجيد بدوى) . كما قمت بنشر (قابوسنامه) من جديد بعد تصحيحه والتقديم له والتعليق عليه عقب الفراغ من طبع الرسالة وأخرجته تحت عنوان (كتاب نصيحت نامه — معروف به — قابوس نامه — تأليف — أمير عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير بن زيار — باتصحيح ومقدمه وحواشى — دكتر أمين عبد المجيد بدوى) .

وقد أتاح لى نشر الكتاب والمقابلة بين نسخه المختلفة — من مخطوطة ومطبوعة — الوصول إلى نظرية جديدة عنه لم أكن وصلت إليها أثناء كتابة الرسالة فضمنتها مقدمتى الرسالة والكتاب عند طبعهما [2] .

وغادرت طهران الحبيبة إلى نفسى بعد ظهر يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ عائدا إلى القاهرة ، ولكن ما وصلت مساء ذلك اليوم إلى بيروت بالطائرة حتى كانت المواصلات مع مصر قد انقطعت برا وبحرا وجوا بسبب العدوان

---

(١) أشرف على هذه الرسالة الدكتور محمد معين الأستاذ بجامعة طهران ونوقشت وأجيزت فى ٢٣ مايو سنة ١٩٥٦ — ١٢ شوال سنة ١٣٧٦ . وكان للاستاذ المشرف الفضل الأول فى طبعها ونشرها وتكرم مشكورا فقدم لها .

(٢) قام الناشر (كتا بفروشى ابن سينا) بعد ذلك بإخراج الكتابين فى مجلد واحد تحت عنوان (بحث دربارة قابوس نامة — تأليف — دكتر أمين عبد المجيد بدوى — بضميمة متن — قابوس نامه)

الثلاثى عليها فأقمت طيلة وقتى قلقا مهموما ضيق الصدر أدفع عنى القلق والضيق بالتجوال فى أنحاء لبنان وسورية متتبعا الإذاعات وأخبار الصحف المتضاربة مترددا بين السفارة المصرية ببيروت وشركات الطيران والسياحة فلا يزيدنى كل هذا إلا ضيقا وضجرا. وأخيرا وبعد لأى أتيحت لى وسيلة السفر بحرا على ظهر الباخرة أسبريا فأقلعت بنا من بيروت بعد ظهر يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٥٦ وألقت مراسيها بثغر الأسكندرية بعد ظهر اليوم التالى فأخذت طريق الصحراء إلى القاهرة وبلغتها مساء اليوم نفسه مثقلا بشتى الذكريات.

وبعد أيام ذهبت للقاء أستاذى وصديقى محمد صادق نشأت بمنزله مسلما شاكرا مالقيت من أسرته وذويه فى طهران من حفاوة ، ودار بيننا الحديث من جديد حول الكتاب وترجمته ودراستى وما أصبت من توفيق. واستقر بنا الرأى على إعادة النظر فى الترجمة ومقابلتها بالطبعة الأخيرة لقابوسنامة التى نشرتها فى طهران قبل عودتى وانتهينا من ذلك فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٥٧ أو أوائل يناير سنة ١٩٥٨ على ما أذكر.

والآن وقد فرغت من الحديث عن الترجمة وما مرت به من مراحل حتى قدر لها النشور وتبوء مكانها فى النور أرى إتماما للفائدة أن أضمن هذه الكلمة التمهيدية النتائج العلمية التى وصلت إليها فى رسالتى عن قابوسنامه متحدثا فى إيجاز عن بيئة الكتاب ومؤلفه وتاريخه وموضوعه وحكاياته وأسلوبه وأثره فى الأدب الفارسى الإسلامى.

بيئة قابوسنامه

يعنينا من هذه البيئة انعكاس أوضاعها المختلفة على صفحات الكتاب وسنقصر الحديث على أسرة المؤلف وطبرستان مهد هذه الأسرة وواسطة العقد فى جيد ملكها متحاشين الدخول فى تفاصيل لاتتسع لها مثل هذه الكلمة التمهيدية التى لا يقصد بها سوى إلقاء ضوء على أبواب الكتاب المفصلة المتعددة

الجوانب يكشف للقارىء عن صورة العصر الذى ألف فيه وحياة أهله وحضارتهم .

بنو زيار

نشأ الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار فى أسرة ديلمية عرفت فى التاريخ بإسم الأسرة الزيارية .

وقد أسس هـذه الأسرة مرداويج بن زيار فى طبرستان وجرجان عام ٣١٥ أو ٣١٦ هـ (٩٢٧ — ٩٢٨ م) وتمكن مرداويج من بسط سلطانه على اصفهان وهمدان ودفع بقواته إلى حلوان ، وكان يحكم هـذه البلاد بإسم الخليفة العباسى ولكن أخاه وخليفته وشمكير قدم ولاء اسميا للسامانيين وكذلك حكم خلفاء وشمكير موالين للغزنويين ثم للسلجوقيين يذكرونهم فى الخطبة وينقشون أسماءهم على السكة ويدفعون لهم الخراج والجزية مقابل احتفاظهم باستقلال داخلى . وعند ماظهر أمر البويهيين كاد سلطان بنى زيار ينحصر فى جرجان وطبرستان وفى أيام قابوس بن وشمكير أغار عضد الدولة البويهى على أملاك الزياريين عام ٣٧١ هـ (٩٨١ م) وانتزعها من يد قابوس ولكن قابوس عاد فاستردها عام ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م) بعد وفاة فخر الدولة البويهى وضم إليها گيلان واستمر خلفاؤه فى حكم هـذه البلاد فى ظل الغزنويين إلى أن استولى السلاجقة فى أواخر أيام الأمير الزيارى انوشيروان بن منوچهر عام ٤٣٣ هـ (١٠٤١/٢ م) على طبرستان وجرجان فظل الأمراء الزياريون يحكمون تحت رايتهم . ويقال إن آخر أمرائهم گيلا نشاه بن كيكاوس كان يحكم گيلان فقط وقد خلعه ملكشاه السلجوقى وتوفى عام ٤٧٠ أو ٤٧١ و (١٠٧٧ — ١٠٧٨ م) وبوفاته انقضت أيام بنى زيار .

واشتهرت هذه الأسرة رغم عدم استقرار أوضاعها السياسية برعاية العلماء والأدباء بل كان بعض أمرائها من الكتاب والشعراء فقد عاش

أبو ريحان البيرونى مدة فى بلاط قابوس بن وشمگير وبإشارته ألف كتابه (الآثار الباقية) كما رعى قابوس عددا من الشعراء ومدحه كثير منهم من بينهم أبو بكر محمد بن على السرخسى وزياد بن محمد الگرگانى . وأخذ منوچهرى شاعر الطبيعة تخلصه أى اسمه الأدبى المستعار من اسم الأمير منوچهر خامس ولاة هذه الأسرة (٤٠٣ — ٤٣٠ ﻫ — ١٠١٢ — ١٠٢٩ م) واقترن اسم الأمير عنصر المعالى فى كتب التاريخ بكتابه قابوسنامه . وكان أعلى أمراء بنى زيار قدرا فى محيط الفضل والأدب هو الأمير قابوس بن وشمگير الكاتب الشاعر الذى بقى لنا من آثاره مجموعة من الرسائل جمعها الإمام أبو الحسن على بن محمد اليزدادى تحت عنوان (كمال البلاغة) نذكر على سبيل المثال سطورا منها : يقول فى رسالة إلى أبى الفضل بن العميد :ـ

لم يزل الأستاذ منذ تعارفنا ، وفى سبيل التصافى تصرفنا ، يرى السعى فى مصالحى من أكرم مساعيه ورعاية العهد فيه من أهم مايراعيه ، ويبذل لى نخيلة الود ومنخوله خير مايبذل ويجتنى ثمرة الفؤاد وكل جميل يجتنيه يذبل ... الخ

ومن رسالة له فى التعزية :

الدهر — أطال الله بقاء الأستاذ — شر كله مفصله ومجمله ، موكب النوائب وملعب العجائب ، شأنه نكث العهود وتبديل البيض بالسود ، ما قصد أحدا بخير إلا اختتمه بشر وما عهد فى الرعاية عهدا إلا نقض ذلك غدا . . . الخ

ومما يروى من شعره :

إنى أنا الأسد الهزبر لدى الوغى	أحمى القنـــا ومخالبى أسيافى
والدهر عبدى والسماحة خادمى	والأرض دارى والورى أضيافى

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى	وأصبح جمعى فى ضمان التفرق
فقد بقيت لى همة ما وراءها	منـــال لراج أو بلوغ لمرتق
ولى نفس حر تأنف الضيم مركبا	وتكره ورد المنهل المتدفق

فإن بلغت نفسى فلله درها | وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق
ومن لم ير دنى والمسالك جمة | فأى طريق شـــاء فليتطرق

قل للذى بصروف الدهر عيرنا | هل حارب الدهر إلا من له خطر؟
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف | وتستقر بأقصى قعره الدرر؟
فإن تكن نشبت أيدى الزمان بنا | ونالنا من تمادى بؤسه الضرر
فنى السماء نجوم مالها عـــدد | وليس يكسف إلا الشمس والقمر

واشتهر قابوس بن وشمكير بجمال الخط فكان الصاحب بن عباد إذا رأى خطه يقول : — هذا خط قابوس أم جناح طاووس ؟

ويقول عنه الثعالبى فى الجزء الثالث من يتيمة الدهر : — إن الله جمع له إلى عزة الملك بسطة العلم وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم .

ويقول ابن الأثير فى حوادث ٤٠٣ ه : — وكان قابوس غزير الأدب وافر العلم له رسائل وشعر حسن وكان عالما بالنجوم وغيرها من العلوم .

ويقول ابن اسفنديار عن رسائل قابوس (وأنا أقول بلسان مطلق ، إن أحدا لم يسمع كلاما باللغة العربية مثل رسائل قابوس فى الفصاحة والوجازة والروعة والعذوبة واعتدال الأقسام واستواء الأوزان واتساق النظم وإبداع المعانى وغرابة الأسجاع مع سهولة الألفاظ وامتزاج الحروف المتجانسة ، وليس وراء ذلك نهاية ، فمن أنكر قولى فليتبرز إلى ميدان الامتحان وليأت على دعواه بالبرهان وأقول إن اللغة العربية عادت فى نشأة أخرى بهذه الطريقة البديعة ، والنظر والتأمل يكشفان عن حقيقة ما قلت ، والسكوت عن مدحه مدح والإقرار عن وصفه وصف وأقول إن هذا ليس من جنس كلام البشر ولا فى المعرفة البشرية والإدراك الطباعى ، بل هو من إفاضة القوة العلوية) .

ورث الأمير عنصر المعالى عن أسرته حب العلم والأدب فأكب على الدرس

والتحصيل منذ صباه وأقام على ذلك إلى آخر أيامه فلما آذنت شمس حياته بالمغيب جمع فى هذا الكتاب خير ما حصل ووعى وأفاد من تجاريب العمر والحياة وقدمه إلى ابنه وخليفته گيلا نشاه قائلا له (فاعرف الآن يابنى أنى ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلا فى كل باب وكل ما كان من عادتى جعلته جملة فى أربعة وأربعين بابا من أجلك ، واعلم أن هذه كانت دائما عادتى من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة) .

فجاءت أبواب قابوسنامه عميقة مفصلة تشهد بغزارة علم مؤلفه وسعة اطلاعه وتعطينا صورة صادقة عن العصر الذى ألف فيه .

طبرستان :

أما طبرستان مهد بنى زيار فهى كما يقول ياقوت فى معجمه (بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم) وتقع هذه البلاد شمالى جبال البرز وجنوبى بحر الخزر ويحدها من المشرق گرگان ومن المغرب گيلان وتعرف اليوم باسم مازندران وأشهر مدنها آمل وشالوس ورويان وبار فروش ومن أنهارها (هراز وتالار وتجن) واسم طبرستان مأخوذ من كلمة طبر الفارسية ومعناها الفأس أما السين والتاء والألف والنون فتكون لاحقة[1] تفيد المكانية فمعنى كلمة طبرستان (بلاد الفأس) كما يقال أفغانستان وتركستان وعربستان أى بلاد الأفغان وبلاد الترك وبلاد العرب . ويقول عبد الله بن قتيبة (يجب أن تسمى تبرستان) أى بلاد التبر لكثرة خيراتها ووفرة غلاتها وثراء أهلها .

ووجه التسمية أن أرض هذه البلاد مغطاة بغابات كثيفة وأكثر عمل أهلها الاحتطاب وقطع الأخشاب بالفؤوس كما يتخذون من الفأس سلاحا فى

---

(١) Affix

الحروب ويروى ياقوت فى معجم البلدان عن (ثقاة الفرس) رواية طريفة عن سبب تسمية هذه البلاد بطبرستان خلاصتها أنه اجتمع فى جيوش بعض الأكاسرة خلق كثير من الجناة وجب عليهم القتل فتحرج منه وطلب موضعا خاليا يحبسهم فيه فحملوا إلى جبال طبرستان ثم أرسل من يخبره بخبرهم بعد عام فإذا هم أحياء « ولكن بالسوء — » . فسألهم ما تشتهون فقالوا : — طبرها طبرها أى نريد فؤوسا نقطع بها الشجر ونتخذ منه بيوتا فأجيبوا إلى ما طلبوا ثم بعث من يأتيه بخبرهم فى العام التالى فسألهم ماتريدون ؟ فقالوا : — زنان زنان أى نريد نساء فأمر كسرى بأن يحمل إليهم من فى حبوسه من النساء فتزوجوا وتناسلوا فسميت تلك البلاد (طبر زنان) أى الفؤوس والنساء ثم عربت فقيل طبرستان .

ويردف ياقوت هذه الرواية بقوله (فهذا قولهم والذى يظهر لى — وهو الحق ويعضده ماشاهدناه منهم — أن أهل تلك الجبال كثيرو الحرب وأكثر أسلحتهم بل كلها الأطبار حتى أنك قل أن ترى صعلوكا أو غنيا إلاوبيده الطبر صغيرهم وكبيرهم ، فكأنها لكثرتها فيهم سميت بذلك ومعنى طبر ستان من غير تعريب موضع الأطبار والله أعلم) .

وكما عرفت طبرستان بمنعتها وقوة شكيمة أهلها وحصانة موقعها الجغرافى الذى جعل منها مهدا لثورات متوالية شغلت الخلفاء أيام عثمان ومعاوية وسليمان بن عبدالملك والمنصور والمأمون والمعتصم إلى أن استولى عليها حسن بن زيد العلوى المعروف بالداعى الكبير آخر الأمر عام ٢٥٠ هـ وطرد منها نوابب الخلفاء ، اشتهرت كذلك بجمالها الطبعى وخصب أرضها ووفرة مياهها وكثرة ثمارها وخيراتها وصناعاتها الزاهرة ومدنها العامرة وتجارتها الواسعة .

يقول المقدسى فى أحسن التقاسيم (وأما طبرستان فإنها كورة سهلية بحرية ولها أيضا جبل ، كثيرة الأمطار قشفة كربة وسخة مبرغثه ، عامة أخبازهم الأرز ، كثيرة الأسماك والثوم وطير الماء وبها مزارع الكتان والقنب ، قصبتها آمل ومن

مدنها: سالوس ميله ، مامطير ترنجى ، سارية طميسة ، هرى بود ممطير ، ناميسة غيشة[1]) ويقول فى موضع آخر (ومن طبرستان الأكسية التى تفضل على الفارسية وطيالسة وثياب الخيش المحمولة إلى الآفاق ، ويباع منها بمكة شيء كثير ومياه طبرستان من الجبال أو من خرماروز[2]) .

أما ابن أسفنديار صاحب تاريخ طبرستان فقد أفاض فى الحديث عن جمالها وخيراتها ورخاء أهلها فى أكثر من موضع من كتابه فيقول فى بعض المواضع إنها لا تحتاج إلى شيء من الولايات الأخرى ولاشيء فى المعمورة إلا موجود بهاو وبها الزروع الناضرة فى كل الفصول وأمواهها سائغة صافية وأخبازها نظيفة متنوعة مصنوعة من القمح والأرز والجاورس وبها من ألوان اللحوم والطيور والوحوش مالا يوجد فى غيرها وطعامها لذيذ وشرابها مروق مختلف ألوانه. ويصور لنا هذا الشراب فى صورة شعرية جميلة فهو صاف رقيق كدموع العاشقين جالب للسرور كوصل المعشوق لاغائلة فيه كصحبة الصالحين مقو ونافع للغاية لايجلب صداعا ولا خمارا، طيب الرائحة كالمسك الاذفر . ويصف مناخها بالاعتدال ، فشتاؤها خريف وصيفها ربيع وكل أرضها رياض وحدائق لاتقع العين فيها إلا على خضرة ومدنها وقراها متصلة ببعضها البعض ينابيعها وقنواتها حجرية وتجرى مياهها على دقاق الحصى وقد إجتمع بها الجبل والسهل والبحر وهواؤها فى مهب الشمال معتدل لطيف . ولا يعيب فيها إلا كثرة غيومها وتلبد سمائها فى بعض الأوقات لقربها من البحر وكثرة مناقعها .

ثم ينقل عن عبد الله ابن قتيبة . هذه الصورة الرائعة لطبرستان فيقول (عبد الله بن قتيبة گفت : أورا تبرستان ميبايد گفت ، كه همچنان است كه بتبر پيرأسته ، أى قال عبد الله بن قتيبة : يجب أن يقال لها بلاد التبر إذ كأنما هى مزدانة بالتبر ،سهلية جبلية بحرية غياضية، فجبالها لملوكها منعة ووزرة وغياضها لاهلها خزانة ونهرها لهم متجر ومصيد وسهلها الجنان . يسير المسافر على بسط

---

(1) طبعة ليدن ١٩٠٦م ص ٣٥٤ . (2) ص ٣١٧ .

من الخضرة منمنمة موشاة بأنوار الربيع ، طيب البنفسج وعيون النرجس وطرائق تلك الأنوار وتحت ظلال الأشجار ، على أغصانها عساكر الطير ، لكل طير منها لون من اللباس مونق وصنف من الصفير مطرب يقصر دونه كل عزف ومزمار ، متدليات الأعناب والأثمار مطردات الأنهار، تذكرك من الآخرة الجنان ، وتجلى لك جنتى سبأ قبل الكفران) ويذكر هذه الأبيات فى وصفها :

من طبرستان بلاد معشرى	ودار قومى بين أثناء الربى
مدينة خضراء من جاورها	ألفى نشيطا فى روابيها العصا
ترى الزروع تحتها مياهها	تجرى وأعلاها الثمار تجتنى
مشرفة العليا على البحر ترى	سفينه إذا اجرى أو ارتسى
كأنما جنات عدن نقلت	إلى ذراها بهجة لمن دنا
فطرتها السندس فى خضرتها	نمنمها نور الربيع ووشى
وطيرها تعزف فى أغصانها	كأنها روض جنان فى سبا

ثم يتحدث طويلا عن خلوها من الآفات الموجودة بالبلاد الأخرى وما أفاءت به عليها الطبيعة من خيرات وبهجة وجمال ويقول إنه لا يوجد فى الدنيا مكان مثل طبرستان يقيم به الإنسان ويذكر مناجمها ومعادنها وذهبها وفضتها وتجارتها الواسعة مع سائر البلاد ومنسوجاتها الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية والسفن الغادية الرائحة محملة بأنواع السلع ووفود التجار من مختلف بلاد العالم على أسواقها ورخاءها وعدم وجود الفقر المدقع بها وأن بها من النساء من تكتسب الواحدة منهن فى اليوم خمسين درهما بحسن صناعة يديها وأن جباية الخراج بها سهلة ميسورة .

وبلغ من رخاء القوم أن قال رجل طبرى : — لم ير إنسان قط فى مدينة آمل فقيرا يسأل الناس .

جعل هذا الرخاء من طبرستان مباءة لأهل الفضل والعلماء ومن شتتهم

صروف الدهر فلم تكن سوق العلم والأدب فى طبرستان أقل رواجا من سوق التجارة وقد أفرد الثعالبى المتوفى عام ٤٢٩ هـ فى يتيمته فصلين أحدهما عنوانه (الباب التاسع :— ذكر من هم شرط الكتاب من أهل جرجان وطبرستا) وعنوان الآخر (فصل فى ذكر شعراء طبرستان) وذكر من بينهم قابوس بن وشمگير جد مؤلف قابوسنامة . ويقول ابن اسفنديار إن علماء طبرستان وكتابها ومنجميها وشعراءها منقطعو النظير . ويتحدث طويلا عن قابوس بن وشمكير وينقل بعض رسائله ، ويقول ياقوت الحموى المتوفى عام ٦٢٦هـ فى معجم البلدان (وهى «يعنى طبرستان» بلدان واسعة يشملها هـذا الإسم ، خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهـل العلم والأدب والفقه) كذلك كتب ابن اسفنديار فى تاريخه فصلا مطولا — تحت عنوان (الباب الرابع)عن ملوك وأكابر وعلماء وزهادومعارف وكتاب وأطباءومنجمى وحكماء وشعراء طبرستان وذكر أسماء الكثير منهم ونبذا عن تاريخهم وشيئا من آثارهم وقد انعكست هذه الحياة العلمية والأدبية فى قابوسنامة فى الفصول التالية .

١ — الباب الحادى والثلاثون فى طلب علم الدين والقضاء .

٢ — الباب الثالث والثلاثون فى علم الطب .

٣ — الباب الرابع والثلاثون فى علم النجوم والهندسة .

٤ — الباب الخامس والثلاثون فى رسم الشعر .

٥ — الباب السادس والثلاثون فى الغناء .

٦ — الباب التاسع والثلاثون فى الكتابة والإنشاء .

ففى هذه الفصول صورة واضحة لحياة علمية أدبية رسخت أصولها وأرسيت على قواعد ثابتة وتقاليد مرسومة ودراسة منهجية مقررة . وأحيل القارىء إلى الباب الثالث والثلاثين فى علم الطب ليرى نفسه أمام أستاذ جامعى يقسم الطب إلى نظرى

وعملى ويعدد العلل والأمراض ويشخصها ويذكر علاماتها يحيل على المراجع المختلفة التى يجب على الطالب الرجوع إليها فى كل فرع من الفروع، وآداب المهنة وطريق اكتساب المران والخبرة.

ويبدو من بعض فصول الكتاب أن أهل طبرستان كانو يحذقون استغلال إمكانيات بلادهم وثروتها الطبيعية فى شتى أوجه النشاط الاقتصادى ويجيدون تثمير الأموال ويحسنون القيام عليها فى أمور معاشهم، ويمكن القارىء الوقوف على تفصيل ما أجملنا فيما يلى من الأبواب :

١ — الباب الحادى والعشرون فى جمع المال.
٢ — الباب الرابع والعشرون فى شراء الدار والضياع.
٣ — الباب الخامس والعشرون فى شراء الخيل.
٤ — الباب الثانى والثلاثون فى التجارة.
٥ — الباب الثالث والأربعون فى الزراعة والصناعة.

وكان لخفض العيش وسعة الأرزاق أثران متقابلان فى حياة الناس، أولهما الأخذ بأسباب الترف والتأنق فى الحياة الخاصة والانغماس فى اللهو والملذات، فكانت حياتهم الرتيبة تجرى على أصول مرعية وأوضاع مقررة كما كان الغلمان والقيان والجوارى والشراب والصيد والطرد والنرد والشطرنج ولعب الصولجان من الأمور الحيوية فى ذلك العصر، وقد أفرد المؤلف لهذا الجانب من حياة عصره، الأبواب التالية من الكتاب.

١ — الباب التاسع فى الشيخوخة والشباب.
٢ — الباب العاشر فى ترتيب تناول الطعام.
٣ — الباب الحادى عشر فى ترتيب تناول الشراب.
٤ — الباب الثانى عشر فى التضييف والضيافة.
٥ — الباب الثالث عشر فى المزاح ولعب النرد والشدرنج.

٦ ــ الباب الرابع عشر فى العشق .
٧ ــ الباب الخامس عشر فى الاستمتاع .
٨ ــ الباب السادس عشر فى آداب الذهاب إلى الحمام .
٩ ــ الباب السابع عشر فى النوم والراحة .
١٠ ــ الباب الثامن عشر فى الصيد والطرد .
١١ ــ الباب التاسع عشر فى لعب الصولجان .
١٢ ــ الباب الثالث والعشرون فى شراء الرقيق .
١٣ ــ الباب الثامن والثلاثون فى آداب المنادمة.

ولكن هذا التأنق والترف والإقبال على اللهو لم ينسهم التمسك بمثل أخلاقية عالية كانوا يرعونها مع الأهل والأصدقاء والغرباء نلمسها بوضوح فى:

١ ــ الباب الخامس فى معرفة حق الوالدين.
٢ ــ الباب السادس فى ازدياد الجوهر بازدياد الفضل .
٣ ــ الباب السابع عن الحسن والقبيح فى الكلام .
٤ ــ الباب الثامن فى نصائح أنو شيروان العادل .
٥ ــ الباب الثانى والعشرون فى إيداع الأمانة .
٦ ــ الباب السادس والعشرون فى الزواج .
٧ ــ الباب السابع والعشرون فى تربية الولد .
٨ ــ الباب الثامن والعشرون فى الصداقة واتخاذ الأصدقاء .
٩ ــ الباب الثلاثون فى العفو والعقوبة .
١٠ ــ الباب السابع والثلاثون فى خدمة الملوك .
١١ ــ الباب الرابع والأربعون فى المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعه.

أما الأثر الآخر الذى يعتبر رد فعل للأثر الأول فهو شيوع الزهد وروح التصوف والعزوف عن متاع الحياة الدنيا ولهوها والعمل لحياة خير وأبقى ، كان أهل طبرستان من حيث المذهب بين حنفى وحنبلى وشافعى وكان بعضهم

كرّاميا والبعض الآخر شيعيا وكان لأهل الزهد والتصوف فيها زوايا وأربطة وخانقاهات .

يقول المقدسى فى أحسن التقاسيم[1] ص ٣١٥ (أما قومس وأكثر أهل جرجان وبعض طبرستان لحنفيون والباقون حنابلة وشفعوية ، وللكرامية بجرجان وبيار وجبال طبرستان خوانق وللشيعة بجرجان وطبرستان جلبة) ثم يقول فى صفحتى ٣١٧ و ٣١٨ (ومياه طبرستان من الجبال أو من خرماروز وبها مشاهد رباط دهستان يقصد من خراسان ، له نور وفضائل ، وعلى يوم من بسطام موضع يقصد ، وبظاهر بسطام قبر أبى يزيد ، وبنواحى الخزر رباطات فاضلة).

وقد ذكر ابن أسفنديار فى تاريخ طبرستان نفراً من الزهاد والصوفية وخانقاهاتهم وكراماتهم ، وقد غلبت على مؤلف كتابنا هذا الأمير عنصر المعالى روح الزهد والتقوى فى سن الخمسين وتتجلى هذه الروح فى :

١ — الباب الأولى فى معرفة الله تبارك وتعالى .

٢ — الباب الثانى فى خلق الأنبياء ورسالتهم .

٣ — الباب الثالث فى شكر المنعم .

٤ — الباب الرابع فى إزدياد الطاعة عن طريق القدرة .

٥ — الباب الرابع والأربعون فى المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة.[2]

وكما يكون الثراء باعثا على الدعة والركون إلى الراحة والعكوف على الملذات يكون كذلك حافزا على اليقظة والمحافظة على الثروة والذود عنها ودفع كل خطر يتهددها ويفضى إلى بؤس صاحبها ولذلك كان أهل هذه البلاد محاربين أشداء وهبتهم طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأدغال والأحراش حصونا منيعة

---

(١) طبعة ليدن .

(٢) سبق ذكر هذا الباب عند الحديث عن المثل الأخلاقية .

وحفزهم خصبها ونعيمها على الاستماتة فى الدفاع عنها وذود كل دخيل يحاول السيطرة عليها فأعدوا أنفسهم للحرب والملك والسياسة كما أعدوها للتجارة والزراعة والصناعة واقتناء الدور والضياع والاستمتاع بنعيم الحياة وطيباتها وعلموا أبناءهم الفروسية وحمل السلاح .

يقول ياقوت فى معجم البلدان (والذى يظهر لى ويعضده ماشاهدناه منهم ؛ يعنى أهل طبرستان ، أن أهل تلك الجبال كثيرو الحروب وأكثر أسلحتهم بل كلها الأطبار حتى أنك قل أن ترى صعلوكا أو غنيا إلا وبيده الطبر صغيرهم وكبيرهم) .

وتنعكس هذه الصورة من حياتهم فى :

١ ــ الباب العشرون فى قتال الأعداء .

٢ ــ الباب السابع والعشرون فى تربية الولد[1] (أول هذا الباب)

٣ ــ الباب التاسع والعشرون فى الحذر من العدو .

٤ ــ الباب السابع والثلاثون فى خدمة الملوك[2] .

٥ ــ الباب الأربعون فى شرائط الوزارة .

٦ ــ الباب الحادى والأربعون فى نظام القيادة .

٧ ــ الباب الثامن والأربعون فى آداب الملك .

ومن هذا نرى أن حياة عصر المؤلف قد انعكست فى وضوح تام على صفحات الكتاب ، وأن الأمير عنصر المعالى قد صور حياة معاصريه وحضارتهم فى هذه الأبواب الأربعة والأربعين فأحسن التصوير . والكتاب بوضعه هذا ــ يجسم لنا المدنية الإسلامية والمجتمع الإسلامى فى إيران فى القرن الخامس الهجرى ، بل يقول المرحوم ملك الشعراء بهار (يجب أن

---

(١) سبق ذكر هذا الباب عند الحديث عن المثل الأخلاقية.

(٢) سبق ذكر هذا البابه عند الحديث عن المثل الأخلاقية :

يسمى بجموعة التمدن الإسلامى قبل المغول)[1] :

ويرى الدكتور محمد معين أستاذ جامعة طهران أن الصورة التى قدمها لنا الأمير عنصر المعالى فى أبواب كتابه لا تمثل أهل طبرستان وحدهم بل تمثل حياة الأشراف فى إيران عامة وهى صورة منقولة عن سنن إيرانية قديمة .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن الحضارة الفارسية قد غزت دولة الخلافة العباسية فى شتى نواحيها ، وتغلغلت رسومها وتقاليدها فى البلاط وبين الأشراف وعمت حواضر البلاد ، أدركنا فى وضوح تام أن قابو سنامة يصور لنا فى قوة ودقة حياة المجتمع الإسلامى وحضارته فى عهد الازدهار ، ولا غنى لباحث محقق أو دارس مدقق فى هذا الميدان عن الرجوع إلى هذا الكتاب .

(١) سبك شناسى . وكان بهار أستاذا بجامعه طهران ووزيراً لمعارف إيران وهو فى رأى مواطنيه أكبر الشعراء الإيرانيين المعاصرين وأغزرهم مادة وأكثرهم فضلا، له أشعار وطنية حماسية ومواقف مشرفة فى خدمة بلاده وانتخب عضوا فى البرلمان عدة مرات .

مؤلف قابوسنامه

هو الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير عاشر الأمراء الزياريين وسابع ولاتهم . حكم قهستان من سنة ٤٤١ إلى ٤٦٢ ه. حيث انتقل إلى رحمة مولاه . لا يذكر فى كتب التاريخ عن حياته وولايته شىء ذو بال. ولا يكاد المؤرخون يزيدون على اسمه ومدة ولايته شيئا غير تأليفه لقابوسنامه. ولكن الأمير عنصر المعالى تحدث عن نفسه فى عدة مواضع من كتابه فيقول لابنه فى مقدمة الكتاب (وقد كان أجدادك دائما ملوك الدنيا وكان جدك الأعلى الملك شمس المعالى قابوس بن وشمگير حفيد أرغش فر هادان ، وفى عهد كيخس وكان له ملك گيلان وقد أورد أبو المؤيد البلخى ذكره فى الشاهنامة وقد بقى منه ملك گيلان ذكرى لأجدادك . وجدتك أمى كانت بنت الأمير مرزبان بن رستم بن شروين مصنف « مرزبان نامه » وجدها الثالث عشر كايوس ابن قباد كان أخا أنو شيروان العادل . وأمك ابنة الملك الغازى محمود بن ناصر الدين . وكان جدى حسن فيروزان ملك الديلم؛ فكن فطنا يابنى واعرف قدر أصلك) .

وفى الباب السابع والعشرين (كما أننى عندما بلغت العاشرة كان لنا حاجب يقال له منظر وكان يعرف ترويض الخيل والفروسية جيدا وكان لنا خادم حبشى اسمه ريحان وهو أيضا كان يعرف الفنون جيدا ، فاستودعنى أبى إياهما حتى علمانى الفروسية ورمى الحربة والرماية والطعان وعلمانى ضرب الصولجان والطبطاب والرمى بالقوس وكل ما كان من أدب وفن . . . . فأمر « أى أبوه » بإحضار ملاحين جلدين وعهد بى إليهما حتى علمانى السباحة كرها لا طبعا ولكنى تعلمتها جيدا) .

وفى الباب الثانى والأربعين (اعلم يا بنى أنه فى أيام ابن خالك السلطان

مودود بن مسعود جئت إلى غزنين فأعزنى وأكرمنى كثيرا ، ولما انقضت مدة ورآنى وجربنى أسند إلى منادمته الخاصة . والنديم الخاص هو الذى لا يغيب عن مجلسه أبدا ، فكان يتحتم على أن أكون دائما حاضرا عند الطعام والشراب سواء أكان الندماء الآخرون موجودين أم لا) .

وفى الباب السابع (إعلم أنه فى أيام الأمير أبى الأسوار شاور بن الفضل ذهبت للغزو بگنجة فى السنة التى عدت فيها من الحج إذ كنت قد غزوت كثيرا فى الهند وأردت أن أغزو فى الروم أيضا) .

وفى الباب السادس (إلى أن ذهبت فى زمن القائم بأمر الله للحج حيث رزقنى الله تعالى زيارة بيته) .

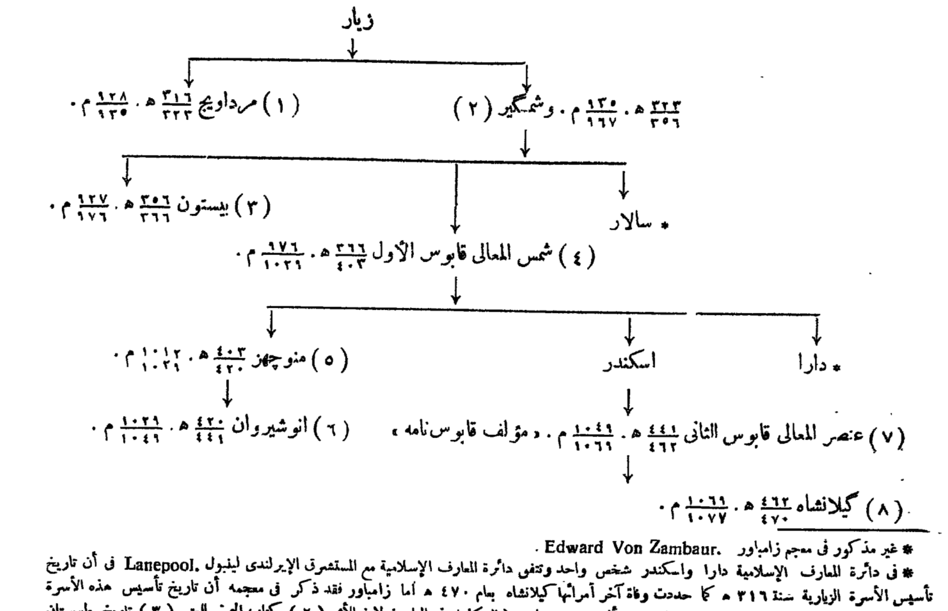
وفى أول الباب الحادى عشر (أما حديث الشراب فلا أقول تعاط الشراب ، ولا أستطيع أيضا أن أقول لا تشرب ، لأن الشبان لا يرجعون عن فعلهم بقول أحد ، فقد قيل لى كثيرا ولم أسمع حتى منحتنى رحمة الله التوبة بعد الخمسين) .

وفى آخر الباب الرابع والأربعين (فاعرف الآن يابنى أنى ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلا من كل باب وكل ما كان من عادتى جعلته جملة كتابا فى أربعة وأربعين بابا من أجلك ، واعلم أن هذه كانت دائما عادتى من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة ، وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة) .

فى هذه العبارات التى اقتبسناها من أبواب «قابوسنامه» من حديث الأمير عنصر المعالى إلى ابنه گيلانشاه وقفنا على تفاصيل عن أسرة المؤلف لم يرد ذكرها فيما اتفق لنا الوقوف عليه من كتب التاريخ وعرفنا أنه تعلم الفروسية والآداب والفنون والسباحة فى حداثته وأسام سرح اللهو حيث أسام لداته فى شبابه واشتغل مدة بمنادمة السلطان مودود بن مسعود كما اشترك

فى غزوات الهند والروم وذهب للحج أيام القائم بأمر الله وقد رزقه الله التوبة فى سن الخمسين فعزف عن اللهو والشراب وغلب عليه الزهد والورع كما يتضح ذلك للقارىء فى عظاته المنبثة فى أبواب متفرقة من الكتاب .

ولم يتوان الأمير فى شيخوخته وشبابه عن تكميل نفسه بتزويدها بالمعارف والعلوم التى كانت سائدة فى عصره ، فلما بلغ الثالثة والستين جمع ما حصل من معرفة وعلم وما اكتسب من تجارب فى كتاب قدمه إلى ابنه ليعلمه كيف يعيش ويحكم. وتجمع كتب الأدب على أنه ألف كتابه هذا فى أواخر عمره وأنه توفى سنة ٤٦٢ هـ . وعلى هذا يكون مولده حوالى عام ٣٩٩ هـ .
وقد دلل الأمير عنصر المعالى بكتابه قابوسنامه على أنه أب عاقل مجرب حكيم نهج فى تربيته لولده نهجا عمليا واقعيا، لم يغفل ما كان جاريا فى زمانه من عيوب ونقائص اجتماعية ولم يسر وراء المثاليات النظرية التى لا تغير من واقع الأمر شيئا ، فبصر ابنه بجانبى الخير والشر من حياته ولم يفرض عليه قسرا التزام طريق بعينه بل كان يعلم أن ابنه — كلداته من شباب عصره — يحوم حول الملذات والشهوات ويوشك أن يواقعها ، فعلمه كيف يأتيها من آمن السبل وأقلها ضررا مذكرا له من وقت لآخر بمضارها وأن الخير كل الخير فى العزوف عنها . والباب الحادى عشر فى ترتيب تناول الشراب شاهد حى على ما قدمنا.وهو فوق هذا كاتب شاعر وقد ذكر اسمه فى لباب الألباب بين الأمراء الشعراء وفى كتابه قابوسنامه واحد وثلاثون بيتا من شعره . ولكنه كاتب مجيد أكثر منه شاعرا مطبوعا وفيما يلى سلسلة نسب هذا الأمير :



* غير مذكور فى معجم زامباور Edward Von Zambaur.

* فى دائرة المعارف الإسلامية دارا واسكندر شخص واحد وتتفق دائرة المعارف الإسلامية مع المستشرق الإيرلندى لينبول Lanepool. فى أن تاريخ تأسيس الأسرة الزيارية سنة ٣١٦ هـ كما حدثت وفاة آخر أمرائها كيلانشاه بعام ٤٧٠ هـ أما زامباور فقد ذكر فى معجمه أن تاريخ تأسيس هذه الأسرة ٣١٥ هـ وتاريخ انقراضها سنة ٤٧١ هـ وقد اعتمد فى تأليف معجمه على : (الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٢) كتاب اليمينى للعتبى (٣) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار (٤) الآثار الباقية للبيرونى :

تاريخ قابوسنامه

هذا الكتاب مشهور باسم قابوسنامه ويسمى أحيانا كتاب النصيحة، والاسم الأول مأخوذ من أسم مؤلفه، لأن قابوس معرب كيكاوس والأمير كيكاوس معروف كذلك فى كتب التاريخ الإسلامى باسم قابوس الثانى وذكر فى دائرة المعارف الإسلامية بهذا الاسم .

والاسم الثانى « كتاب النصيحة » مطابق لموضوع الكتاب والغرض من تأليفه ،وعبارة (فاعلم يابنى أن هذا كتاب النصيحة)التى جاءت فى آخر مقدمة الكتاب طبعة الأستاذ سعيد نفيسى ، إن لم تكن من إضافات الناسخين تدل على أن الاسم القديم للكتاب هو « كتاب النصيحة » .

وقد نال هذا الكتاب من قديم شهرة جديرا بها وذكر المؤرخون اسم كيكاوس مقرونا باسم كتابه فاشتهر بأنه مؤلف قابوسنامه .

ويستفاد من مقدمة الأستاذ الفاضل سعيد نفيسى أن سنائى فى حديقة الحقيقة ومحمد عوفى فى جوامع الحكايات ولوامع الروايات والقاضى أحمد الغفارى فى تاريخ نگارستان ومحمد جبلة الرودى فى جامع التمثيل وفزونى الاسترابادى فى البحيرة وأفضل الدين أبا حامد أحمد بن حامد الكرمانى فى عقد العلى فى الموقف الأعلى وبهاء الدين محمد الكاتب المعروف بابن اسفنديار فى تاريخ طبرستان وسعد الدين الكافى فى قصيدته وخسرو الدهلوى فى مطلع الأنوار وعبد الرحمن الجامى فى سلسلة الذهب ومجد الدين محمد الحسينى المجدى فى زينة المجالس ومحمد باقر المعروف بمحقق السبزوارى فى روضة الأنوار ، قد نقلوا منه حكايات كثيرة .

وقد نقل القاضى أحمد الغفارى فى تاريخ نگارستان حكايتين من قابوسنامة لم يردا فى أية نسخة من نسخه الحالية :

أولاهما حكاية ماجه بنت شعير وهى امرأة يمنية ثرية كشف السيل عن قبرها فى ولاية اليمن فوجد مليئاً بالذهب والحلى والجواهر وكتب على لوح عند رأسها ما يفيد أنها ماتت جوعا فى قحط عم البلاد ولم تجد رغم وفرة مالها ما تتبلغ به .

والثانية حكاية رجل من صلحاء بنى إسرائيل رزقه الله إجابة دعوات ثلاث فسألته امرأته أن يخصها بواحدة منهن فيدعو لها بأن تصبح أجمل امرأة فى قومها فما أجيبت دعوته حتى داخلها الغرور وسلكت طريق الغواية فدعا عليها فمسخت كلبة فبكى أولاده واسترحموه فدعا الله أن تعود سيرتها الأولى، وبشؤمها حرم الإفادة من بركة الإجابة[1] .

ولما كانت حكايات قابوسنامه من القصص التمثيلى الذى يستشهد به فى موارد خاصة فأكبر ظننا أن المطالب التى ذكر فى ثناياها هاتان الحكايتان — إذا صح نقلهما عن قابوسنامه — قد ضاعت كذلك .

وقابوسنامه معروف كذلك خارج إيران ولدى المستشرقين وتوجد منه مخطوطات محفوظة فى المتحف البريطانى وليدن وبرلين وقد ترجم إلى عدة لغات أوروبية وآسيوية .

ترجمه المستشرقة الألمانى دييز Fr. V. Diez إلى الألمانية ونشر ترجمته فى برلين عام ١٨١١م م ، ١٢٢٦ هـ . ، وترجمه المستشرق الفرنسى كويرى Querry إلى الفرنسية ونشر هذه الترجمة فى باريس عام ١٨٨٦ م ، ١٣٠٤ هـ . ، ويشير المستشرق براون Browne إلى ثلاث تراجم تركية فقدت إحداها . وبين سنتى ٨٢٤ ، ٨٢٧ هـ . ترجم أحمد بن الياس قابوسنامه بأمر السلطان مراد الثانى العثمانى وقد طبع هذه الترجمة عبد القرون الشيروانى عام ١٢٩٨ هـ . فى مدينة

---

(١) للوقوف على النص الفارسى لهاتين الحكايتين يرجع إلى كتابى « بحث دربارهٔ قابوسنامه » طبع طهران .

غازان كما ترجم سنة ١٩٥١ م إلى الإنجليزية[1] وعام ١٩٥٣ م . إلى اللغة الروسية[2] .

وقد سبقت الإشارة إلى أننا انتهينا من هـذه الترجمة العربية فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

وقد طبع هذا الكتاب عدة مرات فى إيران والهند وأوروبا فطبع فى إيران خمس مرات :

قام بطبعه لأول مرة مع « تزوك تيمورى » رضاقليخان هدايت أمير الشعراء سنة ١٢٨٥ هـ « ١٨٦٨ م . » وأعيدت هذه الطبعة للمرة الثانية عام ١٣٠٧ - ١٣٠٨ هـ « ١٨٨٩ - ١٨٩٠ م . » وظهرت الطبعة الثالثة سنة ١٣١٩ هـ « ١٩٠١ م . » وقام بالطبعة الرابعة سنة ١٣٤١ هـ . « ١٩٢٢ م . » فى مطبعة الحبل المتين بإصفهان فتح الله والى البختيارى وسلطان محمد خان سردار أشجع البختيارى وأخرج الطبعة الخامسة عام ١٩٣٣ م « ١٣٥٢ هـ . » الأستاذ الفاضل سعيد نفيسى عن نسخة خطية قديمة يرجع تاريخها إلى عام ٧٥٠ هـ محفوظة بمكتبة « آقاى حاج حسين آقا ملك » بطهران .

وفى عام ١٩٤١ م . « ١٣٦٠ هـ » قامت وزارة المعارف بطبع منتخب قابو سنامة بإشراف الأستاذ سعيد نفيسى، وعلمت أثناء وجودى بطهران عام ١٩٥٦ م . أن الأستاذ سعيد نفيسى يفكر فى طبع هذا الكتاب مرة أخرى ، كما قام محرر هذه السطور بطبع قابو سنامه بطهران عام ١٩٥٦ م « ١٣٧٥ هـ . » عن نسخة ليوى بعد تصحيحه والتقديم له والتعليق عليه[3] ومقابلته بطبعتى هدايت ونفيسى ونسخة خطية كتبت فى العصر القاجارى . وقد طبع نصف

---

(1) R. Levy. A mirror for Princes: London 1951.

(2) E. Bertels, Kabus - Name. Moskw 1953.

(3) كتاب نصيحت نامه ـ معروف به ـ قابوسنامه ـ باتصحيح ومقدمه وحواشى ـ دكتر امين عبد المجيد بدوى .

قابوسنامه في بمباى مرتين نقلا عن طبعة هدايت ونشر في سلسلة مطبوعات ميرزا محمد ملك الكتاب وكانت أولى الطبعتين عام ١٣١٤ هـ ، ١٨٩٦ م . والثانية عام ١٣٣١ هـ ، ١٩١٢ م . وفي سنة ١٣٢٥ هـ ، ١٩٠٧ م . طبعه الحاج ميرزا أسد الله التاجر الشيرازى — في بمباى .

كذلك طبعه روبن ليوى Reuben Levy في سلسلة مطبوعات أوقاف جيب التذكارية بانجلترا عام ١٩٥١ م ، ١٣٧١ هـ .

وفي تاريخ تأليف قابوسنامه تناقض ظاهر بين كتاب تاريخ الأدب والمؤرخين . فتاريخ تأليف الكتاب في جميع كتب تاريخ الأدب الفارسي — ما كتب منها في إيران وخارجها — عام ٤٧٥هـ . بينما تجمع جميع المصادر التاريخية على أن مؤلف الكتاب توفي عام ٤٦٢ هـ . وأن ابنه گيلا نشاه آخر أمراء بنى زيار فارق هذه الدنيا عام ٤٧٠ أو ٤٧١ هـ .

وعلى رواية كتب الأدب يقع تاريخ تأليف قابوسنامه بعد وفاة مؤلفه بحوالى ثلاث عشرة سنة وبعد وفاة ابنه بأربع أو خمس سنوات ، فبم نعلل هذا ؟

إذا رجعنا إلى آخر الباب الرابع والأربعين من الكتاب نجد العبارة الآتية «وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائة» وعلى هذه العبارة اعتمد مؤرخو الأدب في تحديد زمن تأليف الكتاب . ولا نجد تعليلا لهذا إلا أن ناسخ أقدم نسخة خطية قد أخطأ في نقل هذه العبارة فكتب سنة خمس وسبعين بدل سنة سبع وخمسين وكثيرا مايحدث هذا في حياتنا اليومية فنقرأ أو نكتب ٥٢ بدلا من ٢٥ مثلا ؛ وعن هذه النسخة نقلت بقية النسخ الخطية التي طبع عنها الكتاب .

والمؤلف يقول إنه بدأ تأليف الكتاب في هذا التاريخ ولم يقل أتمه ولم يبين متى فرغ منه ، ولكن الروايات تتفق مع مقدمة الكتاب وخاتمته في

أنه ألفه فى أخريات أيامه ، وعلى هذا يقع تاريخ تأليف قابو سنامه فى رأيى بين سنتى ٤٥٧ ، ٤٦٢ هـ .

وقد تسنى لى أثناء وجودى بطهران الوقوف على مقالين نشرهما المستشرق ريتشرد . ن . فراى Richard N.Frye عن ظهور أقدم نسختين خطيتين لقابو سنامة ، نشر أولهما فى العدد الثانى من المجلد الأول من مجلة آسيا الوسطى [1] تحت عنوان « مذكرات عن نهضة إيران الشرقية فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين » [2] .

وليس من جديد فى هذا المقال إلا ما يذكره كاتبه من أنه ورد فى آخر هذه النسخة الخطية هذه العبارة « وقد بدأت هذا الكتاب غرة شعبان عام ٤٧٠ هـ . وأتممته فى المحرم سنة ٤٧٣ هـ . » وهذه العبارة تخالف ما جاء فى سائر النسخ المخطوطة التى طبع عنها قابوسنامه ولم يذكر الكاتب فى مقاله تاريخ تحرير هذه النسخة الخطية .

أما المقال الثانى فقد نشر فى مجلة سرتا كانتا بريجنسيا [3] سنة ١٩٥٤ م . وعنوانه « كتاب النصيحة لكايوس بن اسكند بن قابوس بن وشمگير » [4] .

وفى هذا المقال يتحدث عن نسخة خطية يقول إنها النسخة الأصلية لقابوسنامه أو نسخة معاصرة لها كتبت فى جرجان عاصمة آل زيار سنة ٤٨٣ هـ. ويذكر أنه جاء فى آخر هذه النسخة هذه العبارة : « كتبها شيردا بن شيرذيل

---

(1) Central Asiatic Journal Vol. 1 No 2.

(2) Notes on the Renaissance of the 10 ht and 11 th Centuries in Eastern Iran.

(3) Serta Canta brigiensia. A. D. MCMLIV.

(4) The Anderz Mama of Kayus b. Iskandar b kapus b. Vusmagir. By Richard N. Frye .

الاسفهبدى الطبرى فى السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين واربعمائة».

وقد ترجمت هذا المقال مجلة «فرهنگ إيران زمين» فى طهران بعدديها الثانى والثالث من المجلد الثانى «١٣٣٣ هـ. ش- ١٩٥٤ م». وجاء فى تعليق المترجم: أن جزءا من هذه النسخة الخطية موجود فى مؤسسة Clincinnati Museum of Fine Arts وقسم موجود بمؤسسة Kevorkian of New york. والقسم الثالث يقال إنه مازال موجودا فى طهران.

ولم أجد فى المقالين إلا ما يزيد مشكلة تاريخ تأليف الكتاب تعقيدا. وقدحاول الكاتب حل هذه المشكلة فأخفق، ولا يمكن حتى الآن الاطمئنان إلى قيمة هذين المخطوطين من الناحية التاريخية. فلنبق على رأينا الذى انتهينا إليه فى تاريخ تأليف هذا الكتاب إلى أن تتوفر لنا مصادر يوثق بها نخرج منها بجديد.

موضوع قابوسنامة

قابوسنامه أو كتاب النصيحة كتاب بدأ تأليفه الأمير الزيارى الديلمى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير الملقب بعنصر المعالى سنة ٤٥٧ هـ وأتمه عام ٤٦٢ هـ . فى الثالثه والستين من عمره . وهذا الكتاب بعد المقدمة يشتمل على أربعة وأربعين بابا كل منها يعالج موضوعا خاصا ويمهد فى أغلب الأحيان لموضوع الباب الذى يليه . وقد كتبه مؤلفه وقدمه لابنه وخليفته گيلانشاه ليعلمه كيف يعيش ويحكم .ويرى ملك الشعراء بهار ـ كما سبق ذكره ـ أنه « مجموعة التمدن الإسلامى قبل المغول » وتدل أبواب الكتاب دلالة قاطعة على سعة أطلاع مؤلفه وغزارة فضله وتمكنه فى الآداب وشتى أنواع الفنون والمعارف التى كانت سائدة فى عصره ونظرته العملية إلى الحياة وكثرة ما أفاده من تجاربه فيها ، وليس لدينا كتاب يسامى قابوسنامة أو يدانيه من حيث دقة تصويره وتجسيمه الأوضاع الإجتماعية والحضارية والسياسية التى كانت تسود دولة الخلافة العباسية وحواضرها . فالحضارة الايرانية وأوضاع إيران الاجتماعية كما تعرض لنا فى أبواب الكتاب نجد لها انعكاسات قوية واضحة فيما قرأناه عن الحياة فى قصور الخلفاء والوزراء والأشراف فى دولة بنى العباس التى قامت على أكتاف الفرس وأرسيت قواعدها على أساس حضارتهم. ولا نغلو إذا قلنا إنه لاغنى لباحث مدقق فى أوضاع المجتمع الإسلامى قبل حملة المغول من الرجوع إلى هذا الكتاب، وقد يخيل للقارىء أن كل باب من أبواب الكتاب كتبه مؤلف ضليع فى فنه وليس للأمير عنصر المعالى غير الجمع وتنسيق الأبواب وتهذيبها لأن الإحاطة الشاملة المتعمقة فى بعض الفصول كالأبواب المتعلقة بشراء الرقيق والخيل والطب والنجوم والهندسة والغناء والتصوف تتطلب من كاتبها أن يكون قد قضى عمره فى دراسة موضوعاتها وممارستها .

ولكنا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مؤلف الكتاب كان أميرا مارس الحكم والحرب والسياسة وأكب منذ صباه حتى شيخوخته على تحصيل شتى أنواع الفنون والآداب واشتغل بهزل الحياة وجدها ونشأ فى أسرة كان من أمرائها الكتاب والشعراء وحفلت رحابها بأهل العلم والأدب نطمئن إلى نسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه .

ومن الممكن تقسيم أبواب الكتاب من حيث الموضوع إلى أقسام ثمانية:

أولها — فى النصائح التى قل أن يخلو منها فصل منه وتستغرق الباب الثامن فى نصائح أنوشيروان العادل بأكمله .

ثانيها — فى العظات ونعنى بها النصائح ذات الطابع الدينى وهى منبثة فى المقدمة وأبواب متفرقة وتشمل الأبواب التالية برمتها :

١ — الباب الأول فى معرفة الله تبارك وتعالى .
٢ — الباب الثانى فى خلق الأنبياء ورسالتهم .
٣ — الباب الثالث فى شكر المنعم .
٤ — الباب الرابع فى زيادة الطاعة عن طريق الاستطاعة .
٥ — الباب الخامس فى معرفة حق الوالدين .

ثالثها — فى الحياة وفن المعاشرة وتشمل :

١ — الباب العاشر فى ترتيب تناول الطعام .
٢ — الباب الحادى عشر فى ترتيب تناول الشراب .
٣ — الباب الثانى عشر فى التضييف والضيافة .
٤ — الباب الثالث عشر فى المزاح ولعب النرد والشطرنج .
٥ — الباب الرابع عشر فى العشق .
٦ — الباب الخامس عشر فى الاستمتاع .
٧ — الباب السادس عشر فى أدب الذهاب إلى الحمام .
٨ — الباب السابع عشر فى النوم والراحة .

٩ ــ الباب الحادى والعشرون فى جمع المال .
١٠ ــ الباب الثالث والعشرون فى شراء الرقيق .
١١ ــ الباب الرابع والعشرون فى شراء البيت والضياع .
١٢ ــ الباب الخامس والعشرون فى شراء الخيل .
١٣ ــ الباب السادس والعشرون فى الزواج .
١٤ ــ الباب الثامن والعشرون فى الصداقة واتخاذ الأصدقاء .

رابعها ــ فى الأخلاق والتربية وهى :

١ ــ الباب السادس فى زيادة الجوهر بزيادة الفضل .
٢ ــ الباب السابع فى الحسن والقبيح من الكلام .
٣ ــ الباب التاسع فى الشيخوخة والشباب .
٤ ــ الباب الثانى والعشرون فى إيداع الأمانة .
٥ ــ الباب السابع والعشرون فى تربية الولد .
٦ ــ الباب الثلاثون فى العفو والعقوبة .
٧ ــ الباب الرابع والأربعون فى المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة .

خامسها ــ فى طلب العلم وتحصيل الفضل :

١ ــ الباب الحادى والثلاثون فى طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك .
٢ ــ الباب الثالث والثلاثون فى علم الطب .
٣ ــ الباب الرابع والثلاثون فى علم النجوم والهندسة .
٤ ــ الباب الخامس والثلاثون فى رسم الشعر .
٥ ــ الباب التاسع والثلاثون فى الكتابة والإنشاء .

سادسها ــ فى الرياضة :

١ ــ الباب الثامن عشر فى الصيد والطرد .
٢ ــ الباب التاسع عشر فى لعب الصولجان .

سابعها فى الحرف :

١ ـــ الباب الثانى والثلاثون فى التجارة .
٢ ـــ الباب السادس والثلاثون فى الغناء .
٣ ـــ الباب الثالث والأربعون فى الزراعة والصناعة .

ثامنها فى السياسة وإدارة المملكة :

١ ـــ الباب العشرون فى محاربة الأعداء .
٢ ـــ الباب التاسع والعشرون فى تدبر أمر العدو .
٣ ـــ الباب السابع والثلاثون فى خدمة الملوك .
٤ ـــ الباب الثامن والثلاثون فى آداب المنادمة .
٥ ـــ الباب الأربعون فى شرائط الوزارة .
٦ ـــ الباب الحادى والأربعون فى نظام القيادة.
٧ ـــ الباب الثانى والأربعون فى آداب الملك .

وفى خلال هذه الأبواب نجد مجموعة من الأخبار والحكم والحكايات التمثيلية والأحاديث والآيات القرآنية وأبيات من الشعر استعان بها المؤلف على تقوية عبارته وتوضيح فكرته .

حكايات قابوسنامه

فى قابوسنامه ـ كما فى كثير من الكتب الفارسية الأخرى ـ مجموعة من الحكايات القصيرة من باب القصص التمثيلى ذكرها المؤلف فى مناسبات متعددة مستشهدا بها على ماذهب إليه ومقويا حجته فيما ساقه من قضايا وقد زادت هذه الحكايات مطالب الكتاب وضوحا وهى فى نفس الوقت تدفع عن القارئ إحساس الملل من القراءة ولا تخلو من طرافة وقد بلغ

مجموع هذه الحكايات في الطبعة التى ترجمناها عنها ستا وخمسين حكاية منها : عشر حكايات عن أشخاص مجهولين .

وخمس حكايات عن مؤلف الكتاب .

وإحدى وأربعين حكاية عن أشخاص معروفين .

وقد ذكرت هذه الحكايات متفرقة فى أربعة وعشرين بابا،أما الأبواب العشرون الأخرى وهى الأول والثانى والثالث والخامس والثامن والحادى عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والحادى والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون والسادس والعشرون والثالث والثلاثون والرابع والثلاثون والخامس والثلاثون والسادس والثلاثون والحادى والأربعون والثالث والأربعون فهى خالية من الحكايات تماما خلافا لما يتوهمه الكثيرون من أن كل أبواب الكتاب مشتملة على حكايات .

وحكايات قابوسنامه بصفة عامة حكايات واقعية وتاريخية ومن بينها حكايات حكمية وأخلاقية وبعضها تبدو خرافية وأكثرها بسيطة مشوقة خالية من المبالغات ونرى فيها تجسيما لبعض جوانب حياتنا الواقعية وكل منها مسوقة فى مناسبة خاصة وفى مكانها الطبعى وكأنما أراد المؤلف بإيرادها دفع السآمة والملل عن قارئ فصول الكتاب وحفزه على المضى فى القراءة دون كلل .

وأشخاص هذه الحكايات غالبا ممن عاشوا فى دنيانا هذه ومثلوا أدوارهم على مسرحها ومنهم من لا يزال يأخذ مكانه فى أساطيرنا ويداعب خيالنا ولبعضهم صفة دينية وقداسة مذهبية ، فالقارئ يطالع فيها طرفا من أخبار الرسول وأهل بيته والخلفاء المسلمين وملوك إيران الأقدمين وملوك الساسانيين وحكماء الفرس والروم واليونان والحكام والسلاطين وقوادهم ووزرائهم وعمالهم ورجال بلاطهم ويلتقى بالكتاب والشعراء والمطربين

والندماء والعلماء والأطباء والقضاة والفقهاء والعلويين والمذكرين والزهاد والمتصوفين، ويعيش بين التجار وأهل السوق والجنود وأصحاب الحرف والدراويش والعيارين والصبية والغلمان والجوارى والقيان والترك والفرس والعرب والمتقين والفاسقين والعقلاء والمجانين، أو بقول أعم يعيش بين أهل ذلك الزمان، ولكنه رغم هذا قل أن يلتقى بامرأة حرة فلم يرد ذكر للحرائر إلا فى خمس حكايات وباستثناء شخصيتين بارزتين هما شهربانو ابنة ملك العجم، وأرملة فخر الدولة، تبدو صورة المرأة الحرة فى الحكايات الثلاث الأخرى حائلة باهتة وكأنها شبح يلوح من بعيد.

ويمكن تقسيم حكايات قابوسنامه بالنسبة لأشخاصها إلى:

١ - حكايات عن أشخاص مجهولين.

٢ - حكايات واقعية عن كيكاوس.

٣ - حكايات عن أشخاص آخرين معروفين.

وفيما يلى بيان هذه الحكايات وأبوابها حسب هذا التقسيم:

أولا: حكايات عن أشخاص مجهولين:

١ - حكاية رئيس بخارى والدرويش فى الحج فى الباب الرابع.
٢ - حكاية الرجل وغلامه فى الباب السابع.
٣ - حكاية الرجل الشيخ فى الباب التاسع.
٤ - حكاية الخياط والجرة فى الباب التاسع.
٥ - حكاية الشيخ والشاب فى الباب التاسع.
٦ - حكاية الطرار وعابر السبيل فى الباب الثانى والعشرين.
٧ - حكاية التاجر والبياع فى الباب الثانى والثلاثين.
٨ - حكاية صاحب القطيع والراعى فى الباب الثانى والثلاثين.
٩ - حكايه الملك والوزير المعزول فى الباب الأربعين.

١٠ ــ حكاية الصوفيين فى الباب الرابع والأربعين .

ثانيا ــ حكايات واقعية عن كيكاوس :

١ ــ حكاية كيكاوس وأبى الأسوار فى الباب السابع .
٢ ــ حكاية كيكاوس ومجاهد الحاجب فى الباب التاسع .
٣ ــ حكاية كيكاوس وتعلم السباحة فى الباب السابع والعشرين .
٤ ــ حكاية كيكاوس عن عادات السلطان مودود وملوك الروم فى الباب الثانى والأربعين .
٥ ــ حكاية كيكاوس ومنادمة السلطان مودود .

ثالثا ــ حكايات عن أشخاص معروفين :

١ ــ حكاية الخليفة المتوكل وغلامه الفتح فى الباب السادس .
٢ ــ حكاية أفلاطون والرجل الجاهل فى الباب السادس .
٣ ــ حكاية محمد بن زكريا والمجنون فى الباب السادس .
٤ ــ حكاية خسرو برويز ووزيره بزر جمهر فى الباب السادس .
٥ ــ حكاية هرون الرشيد والمعبر فى الباب السابع .
٦ ــ حكاية بزرجمهر والمرأة فى الباب السابع .
٧ ــ حكاية الصاحب والفقيه الشافعى والشاب العلوى فى الباب السابع .
٨ ــ حكاية الخليفة المأمون وتربة أنوشيروان فى الباب السابع .
٩ ــ حكاية الصاحب بن عباد وضيفه فى الباب العاشر .
١٠ ــ حكاية بن مقلة ونصر بن منصور التميمى فى الباب الثانى عشر .
١١ ــ حكاية الخليفة المعتصم والرجل المجرم فى الباب الثانى عشر .
١٢ ــ حكاية النبى والعجوز فى بيت عائشة فى الباب الثالث عشر .
١٣ ــ حكاية شمس المعالى والغلام الجميل فى الباب الرابع عشر .
١٤ ــ حكاية السلطان مسعود ونوشتكين فى الباب الرابع عشر .
١٥ ــ حكاية عمرو بن الليث وأزهر الحمار فى الباب التاسع عشر .

١٦ — حكاية شمس المعالى وعبد الله الجمازى فى الباب العشرين .
١٧ — حكاية أحمد بن فريغون والراعى فى الباب الخامس والعشرين.
١٨ — حكاية گشتاسف فى مدينة القسطنطينية فى الباب السابع والعشرين.
١٩ — حكاية شهربانو ابنة ملك العجم فى الباب السابع والعشرين .
٢٠ — حكاية سقراط وتلاميذه فى الباب الثامن والعشرين .
٢١ — حكاية مهذب العيار وقشرة الشهامة فى الباب التاسع والعشرين .
٢٢ — حكاية أرملة فخر الدولة والسلطان محمود فى الباب التاسع والعشرين .
٢٣ — حكاية ذى القرنين ووصيته فى الباب التاسع والعشرين .
٢٤ — حكاية معاوية والرجل المجرم فى الباب الثلاثين.
٢٥ — حكاية قاضى القضاه أبى العباس الرويانى والشجرة فى الباب الحادى والثلاثين .
٢٦ — حكاية فضلون بن مامان ومستشاره فى الباب السابع والثلاثين .
٢٧ — حكاية الأمير فضلون وأبى البشير الحاجب فى الباب السابع والثلاثين.
٢٨ — حكاية القاضى عبد الملك العبكرى والمأمون فى الباب الثامن والثلاثين.
٢٩ — حكاية الصاحب اسماعيل بن عباد والكتبة فى الباب التاسع والثلاثين.
٣٠ — حكاية السلطان محمود والخليفة القادر بالله فى الباب التاسع والثلاثين.
٣١ — حكاية الأمير أبى على سيمجور وكاتبه فى الباب التاسع والثلاثين.
٣٢ — حكاية ربيع بن المطهر القصرى والصاحب فى الباب التاسع والثلاثين.
٣٣ — حكاية الصاحب اسماعيل بن عباد وفخر الدولة فى الباب الأربعين .
٣٤ — حكاية أبى الفضل البلعمى وسهل الخجندى فى الباب الأربعين .
٣٥ — حكاية السلطان طغرل بيك والفارابى العالم فى الباب الثانى والأربعين.
٣٦ — حكاية السلطان محمود وأبى الفرج البستى فى الباب الثانى والأربعين.
٣٧ — حكاية السلطان مسعود والعجوز المظلومة فى الباب الثانى والأربعين.
٣٨ — حكاية فخر الدولة وقابوس بن وشمگير فى الباب الثانى والأربعين.
٣٩ — حكاية الإسكندر ومقاتلة العدو الغافل فى الباب الثانى والأربعين.

٤٠ — حكاية ابى الفضل الهمدانى العيار في الباب الرابع والأربعين .
٤١ — حكاية الشبلى والصبيان فى المسجد فى الباب الرابع والأربعين .

* * *

وإذا رجعنا إلى هذه الحكايات فى الكتاب وخاصة حكاية رئيس بخارى والدرويش بالقسم الأول وحكاية كيكاوس وأبى الأسوار فى القسم الثانى وحكاية الصاحب والفقيه الشافعى والشاب العلوى وحكاية شمس المعالى وعبد الله الجمازى وحكاية قاضى القضاة أبى العباس الرويانى والشجرة فى القسم الثالث ، نرى أن أهم عناصرها دقة التصوير وقوة الحوار وبراعة الشخصيات . وأن لكل حكاية هدفا ترمى إليه أو بها عقدة تحل فى آخرها، والمعانى التى تدور حولها هذه الحكايات هى المروءة والأمانة وحب الخير والشجاعة والشطارة والجاسوسية والاحتيال والعدالة والبلاغة والنفور من الجهل وادعاء العلم وغير ذلك من المعانى الأخلاقية والحكمية الأخرى . ويعتمد أشخاص الحكايات فى حوارهم على الفقه والمنطق والعلوم الدينية والفلسفية وتجارب الحياة، ويجرى المؤلف خواطره وأفكاره ونظرياته على ألسنتهم بعبارات فى غاية الجمال والبلاغة .

ففى حكاية رئيس بخارى والدرويش فى الحج مثلا يعرض علينا كيكاوس صورة دقيقة لثراء الرئيس وقافلة الحجيج وفى آخر الحكاية يعبر عن رأيه فى الحج فى محاورة بليغة رائعة جذابة بين رئيس بخارى والدرويش،وكذلك تتجلى هذه العناصر الثلاثة : التصوير والحوار والبراعة ، فى حكاية الصاحب والفقيه الشافعى والشاب العلوى وحكاية قاضى القضاة أبى العباس الرويانى والشجرة بشكل أبرز وأوضح ، ولكن فكرة المؤلف هى العنصر السائد فى جميع الحكايات على السواء .

وبراعة المؤلف وقوة بيانه ودقة تصويره تبعث فى أشخاص حكاياته الحياة وتملأهم نشاطا وحركة ، وقصارى القول إن مؤلف قابوسنامه جمع

فى كتابته القصة بين المهارة وتمام التوفيق ويمكننا أن نقول إن هذه المجموعة من الحكايات تكون أجمل قسم فى الكتاب .

أسلوب قابوسنامه

الأسلوب فى الاصطلاح الأدبى عبارة عن طريقة تعبير الكاتب أو الشاعر عن أفكاره وإحساساته بصياغة الجمل وانتقاء الكلمات واستعمالها فى مختلف الوجوه مع الإفادة من العلوم والمعارف والثقافات السائدة فى عصره ، ولكل كاتب أو شاعر مبرز طريقه الخاص وبه يتميز عن سواه .

وقابوسنامه بوضعه الذى بين أيدينا أنموذج ممتاز للنثر الفارسى فى القرن الخامس الهجرى وكان فى عصره مثالا يحتذى للإنشاء السلس الجميل والعبارة الجزلة المشرقة .

وعبارة الكتاب موجزة فياضة بالمعانى ويمكن القول إنها بصفة عامة خلو من مترادفات الألفاظ والجمل والسجع والموازنة والصناعات اللفظية المتكلفة فلا يرى فيه شىء من ذلك إلا عفوا .

وقد حرص الكاتب على تزيين إنشائه بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية والأخبار والحكايات والحكم والأمثال والتشبيهات والشعر والاستعارات والمجاز والكنايات كما تحاشى النادر والمهجور من الكلمات فلم يرد منها إلا قليل ربما كان مألوفا فى عصره . وقد عبر عن مذهبه الإنشائى فى الباب التاسع والثلاثين فى الكتابة والإنشاء حيث يقول :

(وينبغى كتابة الرسالة بحيث تستخدم الأغراض والمعانى الكثيرة فى عبارة موجزة قصيرة ، . . . . . وزين كتابك بالاستعارات والأمثال والآيات القرآنية والأخبار النبوية وإذا كان كتابا فارسيا فلا تكتبه بالفارسية المطلقة لأنها غير مستحسنة وخاصة الفارسية الدرية إذ أنها غير معروفة ،

فينبغى أن لا يكتب ذلك بأى حال والأولى أن لا يقال . وتكلفات الكتاب العربى معروف كيف يجب أن تكون ، والسجع فى الرسالة العربية براعة وحسن جدا ويستملح ولكنه يقبح فى الرسالة الفارسية فإذا لم تقله أفضل ، ولكن قل كل كلام تتحدث به عاليا ومستعارا وعذبا ومختصرا . وينبغى أن يكون الكاتب دراكا وأن يعرف أسرار الكتابة ويفهم العبارات المرموزة) .

ولا سبيل هنا للترجمة إلى نقل العبارات بألفاظها ليحكم قراء العربية على مدى التزام هذا المنشئ القدير للحدود التى رسمها للكتاب والمنشئين، ولكن قراء الفارسية يستطيعون الرجوع إلى مقدمة الكتاب وأبوابه ليحكموا بأن الكاتب إنما كان بهذا معبرا عن مذهبه فى الكتابة كما يمكن القارىء العربى أن يقف فى هذه الترجمة على روعة تشبيهاته وبلاغة تمثيلاته وجمال استعاراته وكناياته وحكمه وأمثاله ودقة نظره ونضج أفكاره وحسن اقتباسه .

فالكتاب بهذا يمثل أول مراحل استواء أساليب الكتابة فى الأدب الفارسى الإسلامى قبل خضوعها للصناعة اللفظية وطغيان الألفاظ العربية والكلمات الدخيلة عليها، ومع ذلك لا يخلو من آثار تعثر الإنشاء الفارسى فى المراحل السابقة ، فبينا نرى به الكثير من الجمل القصيرة والكلمات المكررة نجد الكاتب يحترز أحيانا من التكرار ويلجأ إلى الإيجاز عن طريق الحذف بقرينة سابقة أو غير قرينة مع عدم التقيد بقاعدة نحوية بعينها على ما هو مفصل بكتابى « بحث در بارهٔ قابوسنامه » ولا يهم غير المشتغلين بالدراسات الفارسية .

كذلك نجد بقابوسنامه قدرا غير قليل من الكلمات والأمثال والجمل العربية والاصطلاحات الأدبية والعلمية ، ولكنا لا نجد به من الشعر العربى غير بيت واحد جاء فى الباب التاسع وهو : —

إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

* * *

وقد لاحظت أثناء اشتغالى بطبع قابوسنامه فى طهران عام ١٩٥٦ م - «١٣٧٥ هـ» . اختلافا واضحا بين عبارات النسخ الأربع التى اعتمدت عليها فى تصحيح الكتاب رغم اتفاقها فى الموضوع وعدد الأبواب وترتيبها مما جعلنى أحس أن هذه النسخ لكتاب مختلفين لأن هذا الخلاف كان يبدو لى أكثر من أن يكون تصحيفا أو تصرفا من الناسخين ، وقد تخيرت عبارة بعينها نقلتها بنصوصها المختلفة فى النسخ الأربع ووضعتها بين يدى القارئ فى مقدمتى للكتاب ليحكم بنفسه على مدى الإختلاف بين هذه النسخ .

وقد حدا بى هذا إلى الحدس بأن مؤلف الكتاب أنشأه باللهجة الطبرية كما فعل جده لأمه مرزبان بن رستم بن شروين مؤلف مرزبان نامه وأن نسخ قابوسنامه التى بين أيدينا ليست إلا ترجمات فارسية للأصل الطبرى وقع منشئوها فى كتابتها تحت تأثيره وتقيدوا بنصه دون تصرف يذكر فى العبارة .

تأثير قابوسنامه فى الأدب الفارسى

يستفاد من مقدمة «قابوسنامه» أن مؤلفه كتبه فى الثالثة والستين من عمره أو على قوله هو فى آخر أيام حياته لإرشاد ابنه وتعليمه أصول الحياة وفن المعاشرة وسياسة الملك وليضع بين يديه ثمار تجارب ثلاثة وستين عاما ليصيب حظا منها .

وليس الأمير عنصر المعالى أول أمير أو ملك فارسى سن هذه السنة بل جرى فيها على سنن أجداده ولم يأت بها ابتداعا . وهو يصل نسبه فى عبارة صريحة بالأكاسرة فيقول عن أمه أن جدها الثالث عشر كايوس بن قباد أخو أنو شيروان العادل ، فلا عجب أن يحيى سنة الآباء والأجداد بتأليفه هذا الكتاب [1] .

(١) يرجع الى ترجمة مقدمة الكتاب .

ونخرج من هذه السطور بأن قابوسنامه إن يكن أول كتاب فى بابه بالأدب الفارسى الإسلامى فليس فى طريقته وموضوعه إلا واحدا من كتب الرسوم والنصائح الفهلوية التى لم تصلنا ووقفنا على أخبارها أو نبذمنها فى كتب المؤرخين المسلمين مثل تاريخ الطبرى ومروج الذهب والتنبيه والإشراف للمسعودى والأخبار الطوال للدينورى وعيون الأخبار لابن قتيبه والآثار الباقية للبيرونى وغرر أخبار ملوك الفرس المنسوب للثعالبى والفهرست لابن النديم والكتب المذهبية كالملل والنحل للشهرستانى والملل والأهواء والنحل لابن حزم والفرق بين الفرق للبغدادى وغيرها من كتب التاريخ والقصص الفارسية مثل مجمل التواريخ والقصص وتاريخ سيستان وتاريخ طبرستان ومرزبان نامه وجامع الحكايات وأشباهها .

وعلى كل لسنا بصدد حديث مفصل عن رسوم الفرس وعاداتهم ولا غرض لنا من سوق هذه الفذلكة إلا بيان انعكاس رسم فارسى قديم على صفحات قابوسنامه الذى أسماه « روبن‌ليوى » بحق « مرآة الأمراء » وجعل هذه العبارة عنوانا لترجمته الإنجليزية لهذا الكتاب[1].

ونكتفى هنا بالإشارة إلى مثالين :

بالرجوع إلى صفحة ١٩٩٤ من الشاهنامة الفارسية طبع بروخيم نرى فصلا تحت عنوان « تخلى أردشير عن الملك لشاپور ».

وقد نظم الفردوسى هذا الفصل فى مائة وأحد عشر بيتا ، ومما لاشك فيه أن الأصل المنثور كان أكثر إسهابا وتفصيلا من الشعر الذى لا مجال فيه للإفاضة والإطالة.

فى هذا الفصل يحس أردشير بدنو أجله فيستدنى ابنه منه ويعهد إليه بالملك

---

(1) R . Levy ' Amirror for Princes . London 1952

ويوصيه ويعلمه كيف يسوس البلاد والرعية ويحمى ملكه من العاديات .
ويستهل الشاعر قصته المنظومة بأبيات يعبر فيها عن إحساس الملك بدنو أجله ويثنى بعظاته ونصائحه لولده وتبصيره إياه بمغبة الأمور فى هذه الدار الفانية ثم يتحدث بلسان أردشير عن الارتباط الوثيق بين الدين والدنيا وسبب زوال الملك وعن الكرم والصدق والاستقامة . والقصف والصيد والطرد وقتال الأعداء وتجييش الجيوش والعفو والعقوبة وحفظ السر وتدبر الكلام وطلب العلم إلى غير ذلك من رءوس الموضوعات التى عقد لها كيكاوس فى قابوسنامه أبوابا برمتها .

ثم نسمع عن نقل « كليلة ودمنه » فى عصر أنو شيروان من الهندية إلى الفهلوية وقد ذكر ابن المقفع قصة هذه الترجمة فى مقدمته لترجمته العربية التى بين أيدينا اليوم . وقد وضع هذا الكتاب على ألسنة الطير والبهائم والوحوش والسباع وكان الملوك — كما يقال — يرجعون إليه فى سياسة الرعية ونشر العدل وقمع الخصوم وقهر الأعداء ويرون فيه مفتاح الحكمة ودليل السعادة . وقد نقله من الهندية إلى الفهلوية برزويه الطبيب الشاب فى عشرة أبواب وزاد عليها الفرس فيما بعد ستة أبواب أخرى .

ورب قائل يقول إن أحمد بن عمرو بن على النظامى العروضى السمرقندى فى حدود عام ٥٥٠ هـ . قد وضع كتابه « چهار مقاله » أى المقالات الأربع على غرار قابوسنامه وتقليد الأبواب التى تناولت مثل هذه الموضوعات .

وجوابنا على هذا إن النظامى العروضى ألف كتابه لإظهار الشأن الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب ودورهم الهام فى بلاط الملك ، ويقول فى آخر مقدمته « أما الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب فمن خواص الملك ولا غنى له عنهم ، قوام الملك بالكاتب وخلود الذكر بالشاعر ونظام الأمور بالمنجم وصحة البدن بالطبيب » ثم يقول « ليتبين الملك ويعلم أن الكتابة ليست عملا صغيرا وأن الشعر ليس شغلا ضئيلا وأن النجوم علم ضرورى والطب صنعة

لاغنى عنها . ولا بد للملك العاقل من هؤلاء الأشخاص الأربعة : الكاتب والشاعر والمنجم والطبيب . »

ولكن هدف كيكاوس من تأليف كتابه هو الإرشاد والتعليم كما قدمنا وشتان بين الغرضين .

وقد فتح تأليف « قابو سنامه » فتحا جديدا فى الأدب الفارسى الإسلامى بإحيائه هذه السنة القديمة ـ فألف على غراره كتب كثيرة للملوك مما بين أيدينا منها « سياست نامه » لنظام الملك و « نصيحة الملوك » المنسوب للإمام الغزالى و « گلستان » و « بوستان » للسعدى الشيرازى كما عمل نصير الدين الطوسى كتابه « أخلاق ناصرى »عن طريق تهذيبه وترجمته لكتاب الطهارة والاقتباس من كتب النصائح والأخلاق الفارسيةو العربية،وجرى آخرون ـ مقلدين ـ فى هذا المضمار،فألف عبد الرحمن الجامى مثلا كتابه « بها رستان » وقاآنى كتاب « پريشان » محاكاة لگلستان السعدى الشيرازى .

هذه خلاصة موجزة لدراستى فى « قابو سنامه» أضعها بين يدى القارئ وهى دراسة قاصرة على الجانب الأدبى ولكن موضوع الكتاب جدير بدراسات شاملة مفصلة من نواح متعددة ، وفى أبوابه ميدان فسيح للبحث والاستقصاء فى الجوانب المختلفة للحضارة الإسلامية على الصورة التى كانت عليها بعد الفتوح إلى ماقبل الزحف المغولى.وأرجو أن يكون فى نشر هذه الترجمة وهذا البحث الموجز ما ييسر مهمة الباحثين والدارسين لهذه الحضارة من قراء العربية والله ولى التوفيق .

الجمعة ٢٢ رمضان١٣٧٧ — دكتور

١١ إبريل ١٩٥٨ — أمين عبد المجيد بدوى

قابوسنامه

المقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله أجمعين . هكذا يقول جامع هذه النصائح ، الأمير عنصر المعالى كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمگير مولى أمير المؤمنين ، لابنه گيلانشاه :

أعلم يابنى أنى قدهرمت ، وغلب على الضعف، ومن شعرى ، أرى لمنشور اعتزال الحياة كتابة على وجهى لا تستطيع محوها يد المدبرين . فلما وجدت يابنى اسمى فى دائرة الراحلين ، رأيت من المصلحة ـ قبل أن يصل كتاب عزلى ـ أن أدون كتابا فى ذم الزمان والاستمتاع بالذكر الجميل وأقدم لك منه نضيبا بموجب الحب الأبوى حتى تنظر بنفسك فى كلامى بعين العقل قبل أن تسحقك يد الزمان، وتنال بهذه النصائح الرفعة وطيب الذكر فى الدارين ، وإياك أن يتخلف قلبك عن قبول هذه النصائح ، فقد أديت ما على من واجب الأبوة ، فإذا لم تحسن الإفادة من قولى فقد يكون هناك آخرون يغتنمون سماعه والعمل به ، ولو أن طبيعة الأيام مجبولة على أن لا يعمل ابن بنصح أبيه لشعلة فى باطن الشباب تجعل ظنهم ـ من قبيل الغفلة ـ يحملهم على أن يروا علمهم أسمى من علم الشيوخ، ومع أن هذا كان معلوما لى فإن الحب الأبوى لم يسوغ لى السكوت فما وجدته بطبعى جمعت منه بضع كلمات فى كل باب ، ودونت ما كان أوجب وأفضل فى هذا الكتاب ، فإن تحقق منك العمل فيها ، وإلا فأكون قد أديت شرط الأبوة، وقد قيل ليس على القائل أكثر من الكلام ، فإن لم يكن السامع مشتريا [1] فلا ضير .

إعلم يابنى أن المرء قد جبل على أن يكد ويسعى ليخلف ما يكون قد أصاب

---

(١) راغبا فى سماع النصيحة مقبلا عليها.

فى الدنيا لأعز أقربائه . وقد أصبت من الدنيا هذا الكلام ، وأنت أعز إنسان عندى ، فلما أزمعت الرحيل ، بعثت إليك بما كان من نصيبى ، لكيلا تكون متابعا لهواك ، وتجتنب مالا يليق ، وتحيا حياة خليقة بأصلك الطاهر ، فإنك ذو أصل شريف وكريم الطرفين من كلا الجانبين وقد كان أجدادك دائما ملوك الدنيا ، وكان جدك الأعلى — الملك شمس المعالى قابوس بن وشمگير ، حفيد أرغش بن فرهادان ، وفى عهد كيخسرو كان له ملك گيلان ، وقد أورد أبو المؤيد البلخى ذكره فى الشاهنامة ، وقد بقى منه ملك گيلان ذكرى لأجدادك ، وجدتك — أمى — كانت بنت الأمير مرزبان بن رستم بن شروين ، مصنف مرزبان نامه ، وجدها الثالث عشر كايوس بن قباد، كان أخا نوشيروان العادل ، وأمك ابنة الملك الغازى محمود بن ناصر الدين ، وكان جدى حسن بن فيروزان ملك الديلم ، فكن فطنا يا بنى واعرف قدر أصلك ولا تكن من السافلين . ومع أنى أتوسم فيك الخير والتوفيق رأيت من الواجب تكرار هذا الكلام .

تنبه يابنى ! إن يوم رحيلى قريب ، وسيكون مجيئك على إثرى قريبا ، واعلم أن هذه الدنيا مزرعة من خير وشر ، وما تزرع تحصد ولا يأكل أحد حصيده فى مزرعته ، بل يأكله فى العمار ، والعمار هو الدار الباقية ، والرجال الصالحين فى هذه الدار همة الأسود وللطالحين همة الكلاب ، فإن الكلب يأكل حيث يصيب ، والأسد «يأكل» فى مكان آخر ، ومكان صيدك هذه الدار الفانية ، وصيدك العلم والإحسان ، فاصطد هنا لتستطيع أن تجعل أكلك أسهل وقت الأكل بالدار الباقية . وطريق ذلك طاعة الله عز وجل . ومثل الذى يطلب الله كمثل النار مهما تنكسها تطلب العلو والازدياد ، والذى يبتعد عن طريق الله وطاعته كالماء ، كلما ترفعه يطلب الانحدار ، وقد وضعت هذا الكتاب فى أربعة وأربعين بابا .

وها هي الأبواب التي أكتبها : —

الباب الأول — في معرفة الله تبارك وتعالى .
الباب الثاني — في خلق الأنبياء ورسالتهم .
الباب الثالث — في شكر المنعم .
الباب الرابع — في ازدياد الطاعة عن طريق القدرة .
الباب الخامس — في معرفة حق الوالدين .
الباب السادس — في ازدياد الجوهر بازدياد الفضل .
الباب السابع — عن الحسن والقبيح في الكلام .
الباب الثامن — في نصائح أنو شيروان العادل لابنه .
الباب التاسع — في الشيخوخة والشباب .
الباب العاشر — في ترتيب تناول الطعام .
الباب الحادي عشر — في ترتيب تناول الشراب .
الباب الثاني عشر — في التضييف والضيافة .
الباب الثالث عشر — في المزاح ولعب النرد والشطرنج .
الباب الرابع عشر — في العشق .
الباب الخامس عشر — في الاستمتاع .
الباب السادس عشر — في أدب الذهاب إلى الحمام .
الباب السابع عشر — في النوم والراحة .
الباب الثامن عشر — في الصيد والطرد .
الباب التاسع عشر — في لعب[1] الصولجان .
الباب العشرون — في قتال الأعداء .
الباب الحادي والعشرون — في جمع المال .
الباب الثاني والعشرون — في إيداع الأمانة .

---

(١) الترجمة الحرفية : — في ضرب الصولجان .

الباب الثالث والعشرون — فى شراء الرقيق .
الباب الرابع والعشرون — فى شراء الدار والضياع .
الباب الخامس والعشرون — فى شراء الخيل .
الباب السادس والعشرون — فى الزواج .
الباب السابع والعشرون — فى تربية الولد.
الباب الثامن والعشرون — فى الصداقة واتخاذ الأصدقاء .
الباب التاسع والعشرون — فى الحذر من العدو .
الباب الثلاثون — فى العفو والعقوبة .
الباب الحادى والثلاثون — فى طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك .
الباب الثانى والثلاثون — فى التجارة .
الباب الثالث والثلاثون — فى علم الطب .
الباب الرابع والثلاثون — فى علم النجوم والهندسة .
الباب الخامس والثلاثون — فى رسم الشعر .
الباب السادس والثلاثون — فى الغناء .
الباب السابع والثلاثون — فى خدمة الملوك .
الباب الثامن والثلاثون — فى آداب المنادمة .
الباب التاسع والثلاثون — فى الكتابة والإنشاء .
الباب الأربعون — فى شرائط الوزارة.
الباب الحادى والأربعون — فى نظام القيادة .
الباب الثانى والأربعون — فى آداب الملك .
الباب الثالث والأربعون — فى الزراعة والصناعة .
الباب الرابع والأربعون — فى المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة.

الباب الأول

فى معرفة الله تبارك وتعالى

إعلم يا بنى أنه لا شىء قط من كائن أو معدوم أو يمكن أن يكون لم يصر معلوما للخلق كما هو . وأنت فى معرفة الخالق عاجز ، إذ ليس للمعرفة إليه سبيل ، وكل ما عداه صار معروفا ، وإنما تكون عارفا لله عندما تكون غير معروف ، ومثال المعرفة كالمنقوش ، والعارف كالنقاش ، فما لم يكن فى المنقوش قبول للنقش ، لا يستطيع نقاش أن ينقش عليه .

ألا ترى أن الشمع لما كان أكثر قبولا للنقش من الحجر ، تعمل منه الأختام ولا تعمل من الحجر ؟ فعليه يكون فى كل معرفة قبول للعرفان ، والخالق غير قابل للمعرفة فتأمل فى نفسك ولا تتأمل فى الخالق .

انظر إلى المصنوع وأعرف الصانع ، واحذر أن يضلك التلبث فى المعرفة طريق الصانع ، لأن كل تلبث من الزمان ، والزمان منقض ، وللمنقضى بداية ونهاية ، وهذه الدنيا التى تراها مغلقة لا تصدق بوثاقها وتيقن أن وثاقها لا يبقى غير محلول ، وتفكر فى آلاء الخالق ونعمائه ، ولا تفكر فى ذاته ، فإن أضل الناس من ينشد الطريق حيث لا طريق ، كما قال النبى صلعم (تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته) ولولم يمنح الخالق — بلسان صاحب الشرع — عباده الجرأة ، لما اجترأ أحد على الكلام فى معرفة الطريق إلى الله تعالى . اعلم أن دعاءك الله بكل اسم وصفة إنما يكون على قدر عجزك وقصورك لا على قدر ألوهيته وربوبيته . إنك لا تستطيع الثناء على الله كما ينبغى له ، فإذا كنت لا تستطيع الثناء عليه كما يليق به ، فأنى لك بالمعرفة ؟ إذا أردت حقيقة التوحيد

فاعلم أن كل شيء فى المجاز صدق فى الربوبية ، وكل من عرف الواحد حقا بريء من محض الشرك ، الواحد فى الحقيقة هو الله عز وجل ، وكل ما سواه مثنى ، إذ كل شيء يتصف بالإثنينية أو يتركب من اثنين مثل الجسم ، أو يكون اثنين بالتفريق مثل العدد ، أو اثنين فى الجمع مثل الصفات ، أو اثنين فى الصورة مثل المبسوطات ، أو اثنين بالاتصال مثل الطبع والصورة ، أو اثنين فى مقابلة شيء مثل الجوهر والعرض ، أو اثنين بالتولد مثل الأصل والفرع ، أو اثنين بالمكان كالمثل والشبه ، أو شيئا متولدا من جوهر شيء كالهيولى والعنصر ، أو اثنين عن طريق العدد مثل المكان ، أو اثنين من طريق المد مثل الزمان ، أو اثنين من طريق الحد مثل الظن والعيان ، أو اثنين من طريق قبول شيء مثل الخاصية ، أو اثنين عند الوهم مثل المشكوك حتى الوجود أو العدم ، أو يكون هو نفسه اثنين مثل الضد والند .

ومميز كل هذه علامة الثنوية ، حاشا الله الذى ليس كمثله شيء . والحقيقة أن تعلم أن كل ما يأتى فى تصورك ليس هو الله بل الله عز وجل بارئ ذلك الشيء ، بريء من الشرك والشبه .

الباب الثانى

فى خلق الأنبياء ورسالتهم

أعلم يابنى أن الله تعالى ما خلق هذه الدنيا من أجل حاجته ولا خلقها عبثا ، بل فطرها على موجب العدل ، وزينها على اقتضاء الحكمة ، لأنه علم أن الوجود خير من العدم ، والكون خير من الفساد والزيادة خير من النقصان ، والحسن خير من القبيح ،وكان على كليهما قادرا وبهما عالما ، ولم يعمل مالا يليق أن يكون، أوكان على خلاف علمه،وعمل فى ميقات،وكان ما عمله على موجب العدل ، ولم يكن من الجائز أن يكون على موجب الجهل ، فجاء وضعه على مقتضى الحكمة ، حيث صوره على أبدع ماكان . كذلك كان قادرا على أن يعطى الضوء بغير الشمس والمطر بغير السحاب ، ويركب الأشياء بغير الطبائع ويوجد التأثير بالخير والشر فى العالم بغير النجوم ، ولكنه لما كان الأمر على أساس الحكمة،لم يوجدشيئا بغير الواسطة وصيرالواسطةسبب الكون والفساد، لأنه إذا زالت الواسطة زال شرف الترتيب ومنزلته وإذا لم يكن الترتيب لم يكن النظام ولا بدللفعل من نظام ولا بد أيضامن واسطة،فأوجدالواسطة كذلك ليكون ثمت قاهر ومقهور ، ورازق ومرزوق ، وهذه الإثنينية شاهد على وحدانية الله تعالى ، ولما كنت ترى الواسطة ولا ترى الغرض ، فإياك أن تنظر إلى الواسطة أو ترى القليل أو الكثير من الواسطة بل من رب الواسطة ، فإذا لم تنبت الأرض ، فلا تضع الغرم على الأرض ، وإذا لم ينصف النجم فلا تضع الغرم على النجم ، فإن النجم يعرف عن الإنصاف والجور بقدر ما تعرف الأرض عن الإنبات ، وكما أن الأرض ليس لها القدرة على أن تبذر فيها البذر الطيب فتنبت الخبيث ، فإن للنجم هذا الحكم عينه ولا يستطيع عمل الخير والشر ، ولما

كانت الدنيا قد زينت بالحكمة كان لابد للزينة من التزيين. فانظر فى هذه الدنيا
لترى زينتها من النبات والحيوان والمأكولات والملبوسات وأنواع الطيبات،
إذ كل هذه زينة قد أوجدت بموجب الحكمة. كما يقول فى كتابه (ما خلقنا
السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) فإذا عرفت
أن الله لم يخلق نعمة فى هذه الدنيا عبثا، فمن العبث أن لا يؤدى حق النعمة
والرزق، وحق الرزق أن تعطيه للمرزوق، ولما كان العدل كذلك، فقد خلق
الناس ليأكلوا، ولما أوجد الناس، كان تمام النعمة بالناس، وكان لابد للناس
من سياسة وترتيب، والسياسة والترتيب بغير إرشاد لجان مبتسران، لأن
كل مرزوق يأكل رزقه بغير ترتيب وعدل، لا يعرف شكر الرازق، ويكون
هذا عيب الرازق، إذ أعطى الرزق للجاهلين والجاحدين، ولما كان الرازق
منزها عن العيب، لم يترك المرزوق جاهلا، كما ذكر فى كتابه (وما خلقت
الجن والإنس إلا ليعبدون) وأرسل الأنبياء بين الناس فعلموهم أسلوب المعرفة
وطريق الارتزاق، وأداء شكر الرزق، لكى يكون خلق الدنيا بالعدل،
وتمام العدل بالحكمة، وتمام الحكمة بالنعمة، وتمام النعمة بالمرزوقين، وتمام
المرزوقين، بالأنبياء الهادين، إذ لا يجوز نقصان شىء من هذا الترتيب،
ليكون إرشادا حقا، فإذا نظرت من ناحية العقل فإن كثيرا من الحرم
والفضائل التى للمرزوق بسبب النعمة والرزق تستوجب أن يعرف حق
هاديه، ويشكر رازقه، ويعترف بحق رسله ويتبعهم، ويعتقد صدق الأنبياء
جميعا، من آدم إلى نبينا صلعم وأن يكون مطيعا فى الدين ولا يقصر فى شكر
المنعم ويراعى حق فرائض الدين ليكون حميد الذكر ومحمودا.

الباب الثالث

فى شكر المنعم

اعلم يا بنى أن شكر المنعم واجب على جميع الخلق على قدر التكليف لا على قدر الاستحقاق ، إذ لو جعلوا جميعا كل كيانهم شكرا ، لا يكونون قد أدوا بعد شكران جزء من ألف ، اعلم أن حدود الطاعة فى دين الإسلام خمسة ، إثنان منها خاصان بذوى اليسار ، وثلاثة بجميع الخلق ، وأحد هذه الثلاثة الإقرار باللسان والتصديق بالقلب ، والثانى أداء الصلوات الخمس والثالث صوم رمضان ، أما الشهادة فهى دليل النفى على حقيقة كل ما سوى الحق ، والصلاة بصدق القول ، إقرار العبودية ، وصوم رمضان هو التصديق بالقول والإقرار بألوهية الله ، وبما أنك قلت إنى عبد فينبغى أن تكون فى العبودية ، وإذا أردت أن يطيعك عبدك ، فلا تفر من طاعة ربك ، وإذا فررت ، فلا ترج خيرا من عبدك ، إذ أن إحسانك إلى عبدك ليس بأكثر من إحسان الخالق إليك ، ولا تكن عبدا غير طائع ، فإن العبد غير الطائع طالب الربوبية والعبد الطالب للربوبية سرعان ما يهلك .

بيت

يحق لك إذا ضربت عنق العبد الذى يطلب الربوبية

* * *

إعلم أن الصلاة والصوم خاصان بالله ، فلا تقصر فيهما ، لأنك إذا قصرت فى الخاص ، حرمت من العام ، واعلم بأن صاحب الشريعة قد عدل الصلاة بالدين كله ، فمن ترك الصلاة ، فكأنما ترك الدين كله ، وجزاء غير المتدين القتل

وسوء السمعة فى الدنيا وعقوبة الله تعالى فى الآخرة . إياك يابنى أن تدع لقلبك سبيلا إلى التقصير فى الصلاة ، فإنك إذا نظرت من وجهة الدين أو من ناحية العقل عرفت أن فوائد الصلاة جمة ، وأولها أن كل من يؤدى فريضة الصلاة يكون جسده وثوبه طاهرين ، والطهر خير من الدنس على أى حال ، ثم إن المصلى يكون خلوا من الكبر ، لأن أصل الصلاة مبنى على التواضع ، فإذا اعتاد الطبع التواضع ، تبعه الجسد أيضا ، ومعلوم لأهل المعرفة أن كل من أراد اتباع قوم وجب عليه أن يصحبهم ، وإذا امرؤ صحب التعساء صار تعسا ، وإن أحد طلب السعادة والجاه وجب عليه اتباع أصحاب الجاه والثراء ، وإجماع العقلاء على أنه لا دولة أقوى من دولة دين الإسلام ، ولا أمر أمضى من أمر الإسلام، فإذا أردت أن تكون دائما ذا إقبال ونعمة ، فاطلب أصحاب الطول والحول ، وكن مطيعا لأرباب الدولة ، ولا تطلب خلاف هذا ، كيلا تكون تعسا ، وحذار يابنى أن تستخف وتهزأ بالصلاة ، بعدم إتمام الركوع والسجود والمزاح فيها فإن هذا ليس من عادة المتدينين .

فصـــل

واعلم يابنى أن الصوم طاعة تكون مرة فى العام ، وليس من المروءة التقصير فيها ، ولا يجيز العقلاء مثل هذا التقصير ، واحذر أن تحوم حول التعصب ، لأن الصوم لا يخلو من تعصب، لا تتعصب فى الصوم والإفطار ، فإذا علمت أن خمسة رجال علماء متعقلين قد صاموا فصم أنت أيضا معهم ، وأفطر معهم ، ولا تركن إلى قول الجهلاء . واعلم أن الله تعالى مستغن عن شبعك وجوعك ، ولكن الغرض من الصوم هو ختم من صاحب الملك على ملكه ، وليس هذا على بعض من ذلك الملك ، بل على كافة الجسد : على اليد والرجل والعين والفم والأذن والبطن والعورة ، يجب ختم هذه كلها كى تنزهها كما ينبغى ، وباعد هذه الأعضاء عن الفجور الذى لا يليق ، حتى

تكون قد أديت حق الصوم . واعلم أن أجل عمل فى الصوم هو نك إذا أجلت طعام النهار إلى الليل أن تعطى للمحتاجين ذلك الطعام الذى كان نصيبك بالنهار لتظهر فائدة تعبك ، ويصل بره ونفعه إلى المستحقين .

وحذار أن تجيز التقصير فى هذه الطاعات الثلاث الخاصة بعامة الخلق فإنه لا عذر للتقصير فيها ، أما هاتان الطاعتان الخاصتان بالأغنياء ، فعذر التقصير فيهما جائز ، والكلام فى هذا الباب كثير ، ولكنى قلت مالا بد منه .

الباب الرابع

فى زيادة الطاعة عن طريق القدرة

اعلم يا بنى أن الله عز وجل خص ذوى النعمة واليسار بفريضتين وهما الزكاة والحج، وأمر بأن يزور بيته كل مستطيع ، ولم يكلف غير القادرين بالحج ، ألا ترى فى الدنيا أن تكاليف أبواب الملوك كذلك ينهض بها الموسرون ؟ ثم إن اعتماد الحج على السفر ، ومن الجهل تكليف غير القادرين بالسفر، لأن السفر بغير مكنة من التهلكة،وإذا لم تسافر عند القدرة لا تكون قد استكملت متعة الدنيا ولذة نعيمها فإن تمام اللذات فى أن ترى ما لم تكن رأيت وتأكل مالم تكن أكلت وتنال مالم تكن نلت ، وهذا لا يكون فى غير السفر ، فأهل السفر ذوو خبرة بالدنيا وتجربة للأمور وتوفيق مستمر ومعرفة، لكونهم يرون مالم يروا ويسمعون مالم يسمعوا ، كما قيل فى العربية (ليس الخبر كالمعاينة) ومن ثم قدر الخالق السفر على أولى النعمة ، ليؤدوا حقه ، ويستحقوا نعمته ويمتثلوا أمر الله سبحانه ، ويزوروا بيته ولم يأمر الفقير المعدم غير القادر ، كما قلت :

رباعى

إذا لم يدعنى الحبيب ولم يجلسنى معه ، وتركنى هكذا ذليلا لفقرى

فهو معذور لأن خالق الكونين ، لم يدع الفقراء إلى بيته .

* * *

واعلم يابنى أن الفقير إذا حج ، يكون قد ألقى بنفسه فى المهلكة ، لأن كل فقير يعمل عمل الأغنياء مثله كالمريض الذى يعمل عمل الأصحاء وقصته تشبه قصة ذلك الحاج :

حــكاية

سمعت أن رئيس بخارا قصد الحج مرة ، وكان رجلا متنعما ولم يكن في تلك القافلة من هو أظهر منه شأنا ، وكان يحمل متاعه أكثر من مائة جمل . وقد جلس في الهودج بتيه ودلال ، وبرفقته قوم من الفقراء والأغنياء ، فلما اقترب من عرفات ، كان درويش يسير حافيا ظمآن ، متورم القدمين ، ورآه بذلك الدلال والنعيم ، فالتفت إليه وقال : أيكون جزائي وإياك كلينا سواء يوم الجزاء ، وأنت ترفل في تلك النعمة وأنا في هذه الشدة؟ فأجاب الرئيس : حاشا أن يجزيني الله عز وجل مثل جزائك يوم القيامة،فلو كنت أعرف أن ستكون منزلتي وإياك سواء لما أتيت قط إلى البادية ، فقال الدرويش ولم ؟ فأجاب الغني: أنا جئت بأمر الله ، وقد جئت أنت مخالفا أمره ، لقد دعيت فأنا ضيف ، وأنت طفيلي ، فأني تكون حرمة الطفيلي كحرمة الضيف ؟ لقد أمر الله تعالى الأغنياء بالحج وقال للفقراء (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أنت جئت إلى البادية بغير أمر الله عز وجل في ذلة ومسغبة ، وألقيت بنفسك في المهلكة ، فكيف تستوى وأهل الطاعة ؟

* * *

كل من يحج مستطيعا يكون قد أدى حق النعمة وامتثل أمر الله ، فإن تكن لك مؤنة الحج فلا تقصر في الطاعة ، ومؤنة الحج خمسة أشياء : المكنة ، والمدة ، والحرمة ، والأمن ، والراحة ، فإذا وجدت نصيبا منها فاجتهد في تمامها .

واعلم أن الحج طاعة لا تسقط قط مادامت المكنة ، واعلم أن الله تعالى دعا مخرجي الزكاة بمقربيه، ومخرج الزكاة بين الآخرين كالملك بين الرعية ، لأنه رازق والآخرين مرزقون ، واعلم أن الله تعالى قادر على أن يكون كل الناس اغنياء ، ولكن هكذا اقتضت الحكمة أن يكون البعض غنيا والبعض

فقيرا ، لتبدو منازل الناس وأقدارهم ، ويظهر الأعلون ، مثل الملك الذى يوكل غلاما بأرزاق القوم ، فإن هذا الغلام الموكل بالأرزاق إذا اغتصبها ولم يؤدها لا يستطيع أن يأمن غضب الملك ، وكذلك الغنى إذا استأثر بالرزق ولم يؤت الزكاة لا يمكنه أن يكون آمنا من غضب الله تعالى ، والزكاة مرة فى العام فريضة عليك ، أما الصدقة فزيادة فى الطاعة ، وهى وإن لم تكن فريضة فإنها من المروءة والإنسانية ، فتصدق ماشئت ولا تقصر فإن المتصدقين فى أمان الله، ويجب اعتبار الأمن من الله تعالى غنيمة، وإياك أن[1] تشكك قلبك فى مناسك الحج والزكاة ولا تقل لم السعى والإحرام وقص الأظافر والشعر ؟ ولم يلزم إعطاء نصف دينار من العشرين دينارا ؟ وماذا يريدون من البقر والضأن والإبل ؟ ولم يقدمون الأضاحى ؟ طهر قلبك من هذا جملة ، ولا تظن أن كل مالا تعرفه ليس بخير ، فإن الخير هو أن لا تعرف ولا نعرف ، واشتغل بطاعة الله عزوجل ولا شأن لك بكيف ولم ، فإذا امتثلت أمر الله تعالى فاعرف حق الوالدين لأنه أمر الله تعالى .

(١) الترجمة الحرفية وعليك الأمان ألا

الباب الخامس

فى معرفة حق الوالدين

اعلم يابنى أن الخالق حين أراد عمارة الدنيا ، أوجد أسباب النسل ، وصير شهوة الوالدين البهيمية سبب وجود الأبناء ، فأداء حقهما واجب على الأبناء بموجب الوجود . وإياك أن تقول أى حق للوالدين على ؟ لقد كان غرضهما الشهوة ، ولم أكن أنا المقصود ؟ فإن لهما فضلا عن الشهوة شفقة بالغة وقد احتملوا كثيراً ، وأقل حق الأبوين أنهما الواسطة بينك وبين خالقك ، فينبغى بقدر احترامك لخالقك أن تحترم الواسطة احتراما يليق بها ، والوليد مادام صغيرا لايحرم من حق الإرشاد وحب الأبوين . والله عز وجل يدعوهما بأولى الأمر . وكذلك قرأت فى التفسير أن أولى الأمر — على قول — هم الآباء والأمهات ، إذ أن حقيقة الأمر فى العربية اثنان ، الأمر والعمل كلاهما وأولوا الأمر من يكون لهم الأمر والقدرة على السواء ، وللأبوين قدرة فى تربيتك وأمر فى تهذيبك .

أى بنى لا تستهن بإيلام قلب أبويك ، فإن الخالق عز اسمه يأخذ بحق الوالدين ويقال إنهم سألوا أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه عن حق الوالدين فقال : ـ

إنه هذا الأدب الذى جعله الله تعالى فى موت أبوى النبى (صلعم) ، فقالوا وماهو ؟ قال إنهما لو أدركا زمن النبى (صلعم) ، لكان لزاما عليه أن يقدمهما على نفسه ، وأن يتواضع لهما ويراعى أدب البنوة . ومن ثم كان يأتى هذا الكلام ضعيفاً حيث قال (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) فإذا لم تنظر إلى الأبوين

من وجهة الدين فانظر إليهما من وجهة إنسانيتك ، إذ أن الأبوين سبب خيرك وأصل تربيتك ، وعندما تقصر فى حقهما فإنه يتضح كذلك أنك لست أهلا لأى خير ، لأن من لا يعرف حق إحسان الأصل لا يعرف قدرا لإحسان الفرع أيضاً ، وكيف يكون من الخير الإحسان إلى غير الشاكرين ؟ فلا تطلب أنت كذلك خير نفسك وكن مع والديك كما تطمع من أولادك ، لأن من يولد لك يطمع فى نفس ما تطمع فيه من أبيك ، إذ مثل الآدمى كمثل الفاكهة والأبوين كالشجرة ، فكلما أكثرت تعهد الشجرة آتت ثمرا أطيب وكلما زدت تكريم أبويك كان دعاؤهما وابتهالهما من أجلك سريعا الإجابة ، وكنت أقرب إلى رضاء الله عزوجل ، وإياك أن تتمنى موت أبيك من أجل الميراث فإن مايكون من رزقك ، يصل إليك بغير موت الأبوين ، لأن الرزق مقسوم وكل إنسان يصل إليه مايكون قد قسم له فى الأزل ، ولا تشق على نفسك كثيراً من أجل رزقك ، لأن الرزق لا يزيد بالسعى ، فقد قيل (الرزق بالجد لا بالكد) وإذا أردت أن تكون راضيا عن الله عز وجل من أجل الرزق فانظر فى الصباح إلى من يكون حاله أسوأ من حالك لترضى دائما عن الله عز وجل ، وإذا كنت فقيرا فى المال فاجتهد فى أن تكون غنيا بالعقل ، لأن العقل خير من الغنى ، إذ يمكن تدبير المال بالعقل ، ولا يمكن تكوين العقل بالمال ، والجاهل يفلس سريعا من المال ، ومال العاقل لا يستطيع اللص أن يسرقه [1] ولا يستطيع الماء والنار أن يهلكاه ، فإذا ملكت العقل ، فتعلم الفضل ، لأن العقل بغير الفضل كرجل بغير ثياب ، وشخص بغير صورة ، وجسم بغير روح ، وقد قيل (الأدب صورة العقل)

---

(١) المقصود هنا بمال العاقل عقله وفضله ، كما يبدو من المفاضلة بين المال والعقل.

الباب السادس

فى زيادة الجوهر من زيادة الفضل

اعلم يابنى أن المرء بغير نفع مادام بغير فضل ، كشجرة أم غيلان[1] التى لها جذع وليس لها ظل ، لا تنفع نفسها ولا غيرها ، وذو النسب والأصل لايحرم احترام الناس وإن يكن غير ذى فضل ، وأسوأ مايكون المرء أن لايكون له أصل ولا فضل ، ولكن ينبغى الاجتهاد فى أن يكون الجوهر فى شخصك حتى ولو كنت أصيلا كريم المحتد ، لأن جوهر الشخص خير من جوهر الأصل ، كما قالوا (الشرف بالعقل والأدب لابالأصل والنسب) فإن العظمة للعقل والعلم لا للعنصر والأصل ، ولا تكن تبعا للاسم الذى يضعه أبواك فذاك الاسم علامة ، والاسم هو ماتخلعه على نفسك من الفضل ، لتجعل اسم أحمد ومحمد وموسى وجعفر علما على أستاذ فاضل أو حكيم كامل ، فإذا لم يكن لذى الأصل جوهر الفضل فإنه لايليق بصحبة أحد ، وتشبث بكل من فيه هذان الجوهران ، ولا تدعه من يدك ، فإنه ينفع كل إنسان .

اعلم أن الكلام خير الملكات جمعاء ، لأن الخالق جل جلاله خلق الإنسان أحسن مخلوقاته كلها ، والإنسان الذى رجح على سائر الحيوانات رجحها بعشرة أشياء فى بدنه ، خمسة من الباطن وخمسة من الظاهر ، فالخمسة الخفية مثل الفكر والتعلم والحفظ والتخيل والنطق ، وتلك الخمسة الظاهرة مثل السمع والبصر والشم واللمس والذوق وما يكون لسائر الحيوان من هذه كلها لايكون على هذه الجملة ، فصار الإنسان لهذا السبب ملكا قاهرا على سائر الحيوان ، فإذا عرفت ذلك فتعلم الفضل وتعود فضائل اللسان ، لأن لسانك يقول ادبما

---

(١) شجرة ذات أشواك

ما تجرى عليه ، فقد قيل أحسن الناس لسانا أكثرهم فضلا ، واجتهد مع كل فضائلك فى أن تقول الكلام فى موضعه، فإنك إذا أحسنت الكلام ولم يكن فى موضعه يبدو قبيحا ، وآثر الصمت على الفضول ؛ فإن الكلام غير النافع ضرر كله ، والكلام الذى لا تأتى منه رائحة الفضل من الخير أن لا يقال، فقد مثل الحكماء الكلام بالنبيذ الذى منه السكر والنشوة ومنه الخمار أيضا ، وحذار أن تقول الكلام الذى لم تسأل عنه ، وتجنب سقط القول وإذا سئلت فلا تقل غير الصواب ، ولا تنصح أحدا ولا تعظه مالم يطلب إليك وخاصة من لا يسمع النصح ، ولا تنصح على الملأ فقد قيل (النصيحة بين الملأ تقريع) وإذا كان امرؤ قد نشأ على الاعوجاج فلا تحم حول تقويمه، لأن الشجرة التى نشأت على العوج و تفرعت وطالت لا تستقيم بغير القطع والتشذيب ، وكما تجود بحلو المقال لا تبخل عند القدرة ببذل المال،لأن الناس أكثر افتتانا بالمال منهم بالكلام ، وتجنب مواطن التهم وفر من قرين السوء خبيث النية ، ولا تكن معجبا مغرورا بنفسك ، وضع نفسك فى موضع إذا طلبوك فيه وجدوك حتى لا تخجل ، واطلب نفسك من حيث وضعتها لتجدها ثانيا [٢] ، ولا تفرح بغم الناس حتى لا يفرحوا بغمك ، وانصف حتى تجد النصفة ، وقل خيرا لتسمع خيرا ، ولا تبذر فى الأرض السبخة فإنها لا تثمر ، والإحسان إلى غير الشاكرين كالبذر فى الأرض السبخة ، ولا تضن بالإحسان على مستحقيه واهد إلى الخير ، فقد قيل (الدال على الخير كفاعله) واعلم أن فاعل الخير والآمر به أخوان لا يقطع الزمن وصلهما ، ولا تندم على فعل الخير ، فإن جزاء الخير والشر ينالك فى هذه الدنيا أيضا ، وعندما تحسن إلى أحد فانظر « تر » [٣] أنه يوجد فى قلبك من الارتياح والغبطة وقت الإحسان بقدر ما يصل إلى شخصه من راحة ، وإذا أسأت إلى إنسان أحس قلبك من الضجر

---

(٢) يعنى ضع نفسك فى موضعها.

(٣) ليست فى الاصل .

والضيق بقدر مايصيبه من أذى ، فإذا نظرت إلى الحقيقة رأيت أنه لا يلحق أحدا منك أذى بدون ضجرك ، ولا تصل إلى أحد منك رفاهية بغير هنائك ، فصار حقا أنك تنال جزاء الخير والشر فى هذه الدنيا أيضا قبل أن تصل إلى العالم الآخر ، ولا يستطيع امرؤ إنكار هذا الكلام ، فإن كل من أحسن أو أساء فى حياته إلى إنسان يعرف أننى فى هذا الكلام على حق ، فلا تضن ما استطعت بالخير على أحد فإن ذلك الخير يثمر يوما ما .

حكاية

كذا سمت أنه فى ذلك العصر الذى كان المتوكل [1] خليفة فى بغداد كان له غلام اسمه الفتح حسن الحظ دائم التوفيق وقد تعلم الفنون والآداب ، فتبناه المتوكل ، وأراد الفتح هذا أن يتعلم السباحة فكان الملاحون يعلمونه فنونها ، ولم يكن قد اجترأ على السباحة فى دجلة ولكنه على عادة الصغار كان يتظاهر بنفسه قائلا إنى قد تعلمت ، وذات يوم ذهب للسباحة منفردا بغير الأساتذة ، وكان الماء يجرى بشدة فجرف الفتح ، وعرف الفتح أنه لا يستطيع مقاومته فجاراه وأرخى نفسه ، وصار يدلف على وجه الماء حتى غاب عن أعين الناس ، فلما قطع مسافة كان على ضفة النهر فجوات نخرها الماء ، وفجأة بلغ به الماء الفجوات ، فجاهد وألقى بنفسه فى إحداها وجلس وقال لنفسه : سأبقى حتى أرى ماحكمة الله تعالى فى هذا ؟ وعلى كل فقد نجوت هذه الساعة بنفسى ، وقد بقى فى تلك الفجوة سبعة أيام بلياليها. وأخبروا المتوكل فى اليوم الأول أن الفتح قد غرق ، فنزل عن السرير وجلس على الأرض ودعا الملاحين وقال : كل من يأتينى بالفتح حيا أو ميتا أعطيه ألف دينار ، وأقسم الأيمان المغلظة قائلا بأنه إذا لم يأتوا به بالحالة التى يكون عليها ولم أره فإنى لن أتناول طعاما . فنزل الملاحون فى دجلة وغاصوا وأخذوا يبحثون إلى أن وصل أحد الملاحين فى نهاية اليوم السابع إلى تلك الفجوة ورأى الفتح

(١) كان مقرر الخليفة المتوكل فى سرمن رأى لا فى بغداد :

فابتهج وقال أذهب فأحضر السمارى،[1] فذهب وجاء إلى المتوكل وقال: ياأمير المؤمنين ! إذا أتيت بالفتح حيا فماذا تعطينى ؟ قال أعطيك خمسة آلاف دينار نقداً، فقال الملاح وجدته وسآتى به حيا ، فأخذوا السمارى وأتوا بالفتح حيا ، فأعطى المتوكل ما كان وعد به الملاح ، وقال للوزير اذهب إلى الخزانة واعط للفقراء النصف من كل مايكون بها ، ثم قال احضروا الطعام ، فإنه جائع سبعة أيام بلياليها، فقال الفتح: ياأمير المؤمنين إنى شبعان ! فقال المتوكل: لعلك شبعان من الماء ، فقال الفتح : فى هذه الأيام السبعة كان يأتينى فى كل يوم عشرة أرغفـــة موضوعة على طبق ، فكنت أجاهد وآخذ فى كل يوم اثنين أو ثلاثة منها وأعيش بها ، وكان مكتوبا على كل رغيف (محمد بن الحسن الإسكاف) فأمر المتوكل أن نادوا: من الرجل الذى كان يلق بالخبز فى دجلة؟ فأتوا به وقولوا له : إن أمير المؤمنين سيحسن إليك ، وفى اليوم التالى جاء رجل وقال : إنى أنا الذى ألقيت الخبز فى دجلة ، فقال المتوكل : بأية علامة ؟ قال بعلامة أن اسمى (محمد بن الحسن الإسكاف) كان مكتوبا على كل رغيف، فقالوا إن هذه العلامة صحيحة ، فمذ أى وقت تلق بهذا الخبز فى دجلة ؟ قال منذ سنة ، فقالوا وما غرضك من هذا ؟ قال كنت قد سمعت أن اعمل المعروف والق به فى الماء فإنه يثمر يوما ما . فقال المتوكل لقد عملت بما سمعت ووجدت ثمرة ماعملت ، وأقطعه خمس قرى على باب بغداد ، وذهب ذلك الرجل إلى قراه ، وصار وجيها جدا ، إلى أن ذهبت فى زمن القائم بأمر الله للحج ، حيث رزقنى الله تعالى زيارة بيته ، فرأيت أحفاد ذلك الرجل فى بغداد وسمعت هذه الحكاية من الشيوخ .

فلا تن عن إبلاء الجميل ما استطعت واظهر نفسك للناس بعمل الخير والإحسان ، وإذا ظهرت فلا تكن بخلاف ذلك ، لاتقل بلسانك غير ما تضمر . ولا تضمر فى قلبك غير ما تقول ، لكيلا تكون عارض القمح

(١) السمارى نوع من الزوارق يستخدم فى دجلة .

بائع الشعير[1] ، وانصف من نفسك فى كل الأمور لأن كل من ينصف من نفسه يستغنى عن القاضى[2] ، وإن كان لك غم أو فرح فبثهما لمن يعنى بغمك وفرحك ، ولا تظهر الألم والحزن والغم والفرح لكل إنسان . ولا تكن سريع الابتهاج والاغتمام بكل خير وشر ، لأن ذلك فعل الصغار ، وكن على أن لا تتحول عن حالك بكل محال ، فإن ذوى الحجى لا يتزحزحون عن مكانهم بكل حق وباطل ، وكل سرور مآله إلى الغم لا تعده سرورا ، وكن فى وقت اليأس أكثر رجاء ، واعتبر اليأس باب الرجاء المغلق ، والرجاء باب اليأس ، واعلم أن حاصل كل الأمور هو الارتحال عن الدنيا ، ولا تكن منكرا للحق ، وإذا ثار عليك إنسان فاطفىء ثورته بالصمت ، واعلم أن الصمت جواب الحمق ولا تضيع تعب أحد قط ، واعرف حق كل إنسان كما ينبغى ، وخاصة حق قرابتك ، واحترم شيوخ قبيلتك ، فإن الرسول صلعم قال (الشيخ فى القبيلة كالنبى فى الأمة) ولكن لا تكن مولعا بهم ، حتى تستطيع أن ترى معايبهم كما ترى محاسنهم ، وإذا لم تأمن الغرباء فآمن نفسك منهم بمقدار خوفك ، ولا تأمن بالظن غير المؤتمن ، لأن من الجهل تناول السم بمظنة الترياق ، وانظر إلى عقول الناس وفضائلهم فإذا رأيت أنك تستطيع الحصول على الشهرة والعيش بالغباء والجهل فكن غبيا جاهلا ، وإلا فتعلم العلم ، ولا تر عارا فى التعلم والاستماع لتنجو من العار ، وانظر فى عيوب الفضلاء ومزاياهم متسائلا : ما هو نفعهم وضررهم ؟ ومامدى الربح والخسارة ؟ ثم التمس نفعك من بين ذلك ، وابتعد عما يقرب الناس من الأذى وعود نفسك تعلم الأدب والفضل ، وتعلم ما لا تعرف ، فإن سقراط يقول : لا كنز خير من الفضل ، ولا عزة أجل من العلم ، ولا زينة أحسن من الحياء ، ولا عدو أسوأ من الخلق السيء . فلا تحدد وقتا للتعلم إذ فى أى وقت وحال يجب أن لا تفوتك ساعة لا تتعلم

---

(1) هذا مثل فارسى يضرب للمخادع الذى يظهر غير ما يبطن وكأنه يبيع للناس الشعير على أنه قمح .

(2) لو أنصف الناس استراح القاضى . . وبات كل عن أخيه راضى .

فيها علما ، وإذا لم يوجد وقتئذ عالم فإنه يمكنك أن تتعلم من جاهل ، ذلك لأنه في كل وقت تنظر إلى الجاهل بعين البصيرة وتوكل به بصارة العقل ، تعرف أن ما لا يعجبك منه لا ينبغي عمله ، كما قال الإسكندر : إنني لم أفد من الأصدقاء بل أفدت على الأكثر من الأعداء ، وذلك أنه إذا كان في فعل قبيح يستره الأصدقاء شفقة على حتى لا أعرفه ، ويتحدث به العدو لعداوته فأعلمه ، فأبعده عن نفسي ، فأكون قد أفدت من العدو . وأنت أيضا تكون قد تعلمت ذلك العلم من الجاهل لا من العالم . وتعلم الفضل والأدب واجب على الناس — سواء منهم الأكابر والأصاغر — لأن التفوق على الأقران يمكن نيله بالفضل والمعرفة ، وعندما ترى في نفسك ميزة لا تراها في أقرانك فإنك ترى نفسك دائما أسمى « منهم[1] » ويراك الناس أيضا أفضل من أقرانك بقدر فضلك وعرفانك ، وعندما يرى الرجل العاقل أنهم زادوا قدره ، فإنه يجتهد حتى يكون أفضل وأكثر معرفة ، وإذا فعل كذلك ، فإنه لا يمضي طويل حتى يصير أعظم من كل إنسان . وطلب العلم هو طلب الرفعة على الأصحاب والأقران ، والكف عن الفضل دليل الرضا بالجهل والضعة ، وتعلم الفضل وترويض الجسم جد نافعان فقد قيل : الكسل فساد البدن . وإذا لم يطعك الجسد فإنك لا تستريح جيدا ، لأن جسمك لا يطيعك من الكسل وحب الراحة ، وذلك أن أجسادنا لا تتحرك بطبعها ، وكل حركة يعملها الجسم إنما يعملها بالأمر لا بالرغبة ، وما لم ترد أنت وتأمر فإن الجسم لا يرغب في العمل قط ، فطوع جسدك بالعسف ، ورده إلى الطاعة بالقهر ، فإن من لا يستطيع تطويع جسده لا نصيب له من الفضل ، وإذا جعلت جسدك مطيعا بتعلم الفضل ، لقيت سلامة الدارين في فضله . واعرف أن رأس مال الصالحات في العلم وأدب النفس والورع والصدق والتقوى وعدم الأذى والحلم والحياء.

أما حديث الحياء فإنه وإن قيل (الحياء من الإيمان) إلا أنه في كثير من

---

(١) ليست في الأصل .

المواضع يكون وبالا على المرء ، فلا تكن خجولا بحيث يتطرق الخلل والتقصير فى المهمات من الخجل ، إذ أنه فى مواضع كثيرة يجب عدم الخجل ليتحقق الغرض ، ويجب الحياء من الفحش واللؤم وعدم الحفاظ والكذب ، ولا تخجل من قول وعمل فيهما صلاح ، فكما أن الخجل نتيجة الإيمان ، فإن الحرمان نتيجة الخجل ، يجب معرفة مواضع الخجل وعدم الخجل ، وعمل ما يكون أقرب إلى الصواب ، فقد قيل مقدمة الصلاح الحياء ، ومقدمة الفساد القحة ، أما الجاهل فلا تعده من الناس ، وعد الفاضل عاقلا حصيفا ولا تحسب المتعفف الجاهل زاهدا ، ولا تصحب الجهال ، وبخاصة الجاهل الذى يحسب نفسه عالما ، ولا ترض بجهلك ، ولا تصاحب غير طيبي السمعة ، فإن الرجل يصير حسن الذكر بصحبة الأخيار ، ألا ترى أنك تمزج زيت السمسم بالورد أو البنفسج ولبقائه حينا مع الورد أو البنفسج ، لا يسميه أحد زيت السمسم ، بل زيت الورد أو زيت البنفسج ؟ وببركة أولئك الأخيار لا تكن جاحدا للعمل الصالح ولا تنسه ولا تعرض عن المحتاج إليك فكفاه ألم الحاجة ، واستشعر كرم الخلق والرجولة ، وابتعد عن الأخلاق الذميمة ، ولا تكن متلفا ، فإن ثمرة الإتلاف الحاجة ، وثمرة الحاجة الهوان ، واجتهد أن تكون ممدوح العقلاء ولا تكون ممدوح الجهال ، فإن ممدوح العوام والجهال مذموم الخواص ، كما سمعت فى الحكاية : —

حكاية

هكذا يقولون إن أفلاطون كان جالسا ذات يوم ، فاقترب منه رجل من جملة خواص المدينة وجلس ، وأخذ فى شتى أنواع الحديث ، وفى خلال ذلك قال : أيها الحكيم ! رأيت فلان يتحدث عنك ويدعو لك كثيرا ويثنى عليك قائلا : إن أفلاطون رجل عظيم ولم يكن قط رجل على شاكلته ولن يكون ، فأردت أن أبلغك ثناءه ، فلما سمع أفلاطون هذا الكلام اغتم وبكى ، فقال الرجل : أيها الحكيم ! أى أذى لحق بك من هذا الكلام فبكيت هكذا ؟

فقال أفلاطون: أيها السيد! لم يلحقنى منك أذى قط ، ولكن أية مصيبة أسوأ لى من أن يمدحنى الجاهل ويعجبه عملى ؟ لا أدرى أية جهالة فعلت فكانت قريبة من طبعه وأعجبته، لأتوب عنها، واغتمامى هذا من كونى ممدوح الجهال .

وأذكر أيضا فى هذا المعنى حكاية أخرى : —

حـــكاية

كان محمد بن زكريا الرازى يسير مع قوم من تلاميذه ، فجاء إليهم مجنون وقال : لا يوجد أحد طبيب إلا محمد بن زكريا وضحك فى وجهه ، فلما جاء محمد بن زكريا إلى بيته أمر بمطبوخ الأفتيمون[1] وأكله فسأله تلاميذه لم تأكل هذا المطبوخ ؟ قال من أجل ضحك ذاك المجنون ، لأنه لو لم يكن قد رأى فى جزءا من جنونه لما ضحك فى وجهى ، فقد قالوا (كل طير يطير مع شكله).

وفضلا عن ذلك لا تثر ولا تحتد ولا تخل من الحلم ولكن لا تلن كليا بحيث تؤكل من اللين ؛ ولا تكن أيضا فظا بحيث لا يمكن اجتذابك قط ، وكن على وفاق مع كل قبيل ، فإنه بالوفاق يمكن تحقيق المراد من الصديق والعدو ، ولا تعلم أحدا السوء فإن تعليم السوء سوء آخر ، وإذا أساءك إنسان بغير جرم ، فاجتهد أن لا تسىء إليه ، فإن دار قلة الأذى فى حى الإنسانية بل إن أصل الإنسانية قلة الأذى ، فإن كنت رجلا فكن قليل الأذى ، ويجب على المرء أن ينظر فى المرآة ، فإن كان له مرأى حسن ، وجب أن يكون عمله حسنا كمرآه ، وإن رأى وجهه قبيحا وجب عليه أن يكثر من عمل الإحسان لأنه إن عمل قبيحا وقع القبح على القبح ، وقبيح جدا قبحان فى مكان واحد ، واقبل النصح من الإخوان الموافقين ، وادخل كل وقت بنا صحيك ، وإذا قرأت هذه الكلمات التى ذكرتها وعرفتها ، فلا تغتر بفضلك وعلمك ، ولا تظن أنك عرفت كل شىء وعد نفسك من جملة الجهال ، فإنك تكون عالما حينما

---

(١) دواء يعالج به الصرع .

تقف على جهلك، كما سمعت فى الحكاية أنه فى عصر كسرى پرويز وعهد وزارة بزرجمهر[1] جاء رسول من الروم فجلس كسرى على رسم ملوك الفرس، وأذن للرسول، وكان يريد أن يعلن أن لديه وزيرا عالما. فقال الرسول للوزير، يا فلان! أتعرف كل شيء فى العالم؟ قال بزرجمهر: لا ياسيد العالم! فغضب كسرى من هذا الكلام وخجل من الرسول وسأل: من يعرف إذا كل شيء؟ قال بزرجمهر: كل شيء يعرفه الجميع والجميع لم يولدوا من أمهاتهم بعد!

فعد نفسك أجهل إنسان بين الجميع، فإذا عرفت نفسك جاهلا صرت عالما. والعالم من يعرف أنه جاهل وعاجز، وكان سقراط مع علمه يقول: لولم أكن أخشى أن يعيبنى أكابر العقلاء من بعدى ويقولون إن سقراط ادعى كل علم الدنيا جملة لقلت إنى لا أعرف شيئا مطلقا وإنى عاجز، ولكنى لا أستطيع أن أقول ذلك فإنه يكون منى دعوى كبيرة. وأبو شكور البلخى يمدح نفسه بالعلم فيقول:

بيت

لقد وصل علمى إلى حيث عرفت أنى جاهل [2]

* * *

فلا تغتر بعلمك مهما كنت عالما، وإذا اتفق لك عمل فلا تكن مستبدا برأيك مهما كانت لك القدرة على إنجازه، لأن كل مستبد برأيه يندم دائما. ولا تأنف من المشورة، وتشاور مع الشيوخ العقلاء والأصدقاء المشفقين، فإنه مع حكمة محمد صلعم ونبوته، وبعد أن صار معلما وقائما بأمر الله عزوجل قد أمره قائلا (وشاورهم فى الأمر) يا محمد تشاور مع هؤلاء المرتضين

---

(١) المعروف أن بزرجمهر كان وزيرا لكسرى أنو شيروان لا كسرى پرويز.

(٢) تابد انجارسيد دانش من .·. كه بدانسته ام كه نادانم

وأصحابك ، عليكم التدبير وعلى النصر فإنى أنا الله .

واعلم أن رأى شخصين لا يكون كرأى شخص واحد وأن عينا واحدة لا تستطيع أن ترى ماتراه العينان ، ألا ترى أنه عند ما يمرض طبيب ويشتد عليه المرض ، لا يعتمد على علاجه لنفسه فيحضر طبيبا آخر ويداوى نفسه باستطلاع رأيه وإن يكن أقل منه ؟ وإن حدث لأحد بنى جنسك أمر فلا مناص من أن لا تضن عليه بالجهد والتعب والمال ، وإن يكن عدوك وحاسدك ؛ لأنه إذا تم له أمر بعونك تخلص من هذه المحنة ، وقد تتبدل تلك العداوة بالصداقة . وإذا جاء البلغاء المفوهون للسلام عليك فاحترمهم واحسن إليهم ليحرصوا على السلام عليك ، فإن ألأم الناس من لا يسلم عليه ، وإذا تكلمت مع الناس فلا تكن هينا إذ لا يحسن بالرجل العاقل أن يكون هينا ، لأن الرجل وإن يكن حكيما — لا تشبه حكمته الحكمة إذا كان هينا ولا يكون لكلامه رونق ؛ فاعرف كيف يكون شرط الكلام .

الباب السابع

عن الحسن والقبيح فى الكلام

أى بنى كن لسناً ، ولكن لا تكن كذاباً ، ولا تجعل نفسك معروفاً بالكذب ، وكن معروفاً بالصدق ، حتى إذا ما كذبت مرة مضطرا قبل منك ، ولتقل ما تقوله صدقاً ، ولكن لا تقل الصدق الشبيه بالكذب فإن الكذب المشابه للصدق خير من الصدق الذى يشبه الكذب ، لأن هذا الكذب مقبول وذاك الصدق غير مقبول ، واحترس كيلا يقع لك مثل ما وقع لى مع الأمير أبى الأسوار[1] :

حكاية

اعلم أنه فى أيام الأمير أبى الأسوار شاور بن الفضل ذهبت للغزو بگنجة فى السنة التى عدت فيها من الحج ، إذ كنت قد غزوت كثيراً فى الهند وأردت أن أغزو فى الروم أيضاً ، وكان أبو الأسوار رجلا ساكناً عاقلا وملكا عظيما شكوراً وعادلا وشجاعاً وفصيحاً وبعيدالنظر ، وكان كما ينبغى أن يكون الملوك الممجدون ، كان كله جداً لا هزلا ، فلما رآنى أجلنى كثيراً ، ودخل معى فى الحديث ، وكان يتحدث عن كل شىء ويسأل وأجيب ، وكانت تعجبه أحاديثى فأكرمنى كثيراً ولم يتركنى لأعود ، ورضيت كذلك لكثرة ما كان يحسن إلى وأقمت سنوات بگنجة وكنت دائماً أحضر للطعام والشراب فى مجلسه ، وكان

---

(١) أبو الأسوار أو أبو السوار الشدادى شاور بن فضلون أحد ملوك أران وأرمنستان فى القرن الخامس الهجرى وكان مقره مدينة گنجة وله حروب كثيرة مع الأرمن والروم وتوفى سنة ٤٥٩ هـ .

يسألنى فى شتى أنواع الكلام ، إلى أن جرى الحديث ذات يوم عن عجائب كل موضع ، فقلت : فى رستاق جرجان قرية ، وعين ماء بعيدة عن القرية ، والنسوة اللاتى يذهبن لطلب الماء يتجمعن وقد أخذت إحداهن جرة فارغة ، وهى تمشى فى المقدمة وتنظر فى الطريق ، وفى أراضى تلك القرية دودة خضراء ، وحينما ترى من ذلك الدود شيئاً تنحيه عن الطريق ، لكيلا تطأه واحدة من النسوة اللاتى يحملن الماء ، فإذا وطئت إحداهن تلك الدودة وماتت تحت قدمها تعفن الماء الذى تحمله فى الجرة فى الحال بحيث يجب إراقته ويلزمها أن تعود مرة ثانية وتغسل الجرة وتأتى بالماء من العين ، فلما قلت هذا الكلام عبس الأمير أبو الأسوار وحول وجهه ، ولم يكن معى لبضعة أيام على تلك الحال التى كان عليها من قبل ، حتى قال لى فيروزان الديلمى : إن الأمير ممتعض من تلك الحكاية ؛ وقال : فلان رجل ثابت رزين فما يدعوه أن يتكلم معى كما يتكلمون مع الأطفال ؟ ، فأرسلت فى الحال قاصداً من گنجة إلى جرجان وأمرت بعمـــل محضر بشهادة قاضى وخطيب ورئيس وعلماء تلك الناحية يثبتون فيه أن تلك القرية لم تزل موجودة وحال تلك الدودة كما هى . وكان يلزم أربعة شهور لأعمل ذلك المحضر ، ووضعت المحضر أمام أبى الأسوار وقرأته ، فتبسم وقال : إنى أنا نفسى أعلم أن قول الكذب لا يتأتى من رجل مثلك وخاصة فى حضرتى ، ولكن لم يلزم قول ذلك الصدق الذى يتحتم انقضاء أربعة أشهر والإتيان بمحضر بشهادة معارف تلك الديار حتى يقبل منك ؟

ولكن اعلم يابنى أن للكلام أربعة أنواع : أحدها غير جدير بالمعرفة والقول ، وآخر جدير بالمعرفة وجدير بالقول أيضاً ، وآخر جدير بالقول وغير جدير بالمعرفة ، وآخر جدير بالمعرفة وغير جدير بالقول . أما غير الجدير بالقول والمعرفة فهو الكلام الذى يضر بالدين ، وذاك الجدير بالقول والمعرفة أيضاً هو الكلام الذى فيه صلاح الدين والدنيا ، ينفع فى الآخرة وينفع فى الدنيا أيضاً ، ويكون من قوله وسماعه منفعة للقائل والسامع ، وذاك الجدير بالمعرفة وغير جدير بالقول هو الذى يجعل عيب محتشم أو عيب صديق معلوماً

لك، أو يظهر لك من طريق العقل أو الدنيا أنه غير شرعى ، لأنك إذا قلته حل عليك غضب ذلك المحتشم ، أو يترتب عليه أذى صديق أو خوف الهياج والاضطراب ، فهذا الكلام جدير بالمعرفة وغير جدير بالقول ، وذاك الجدير بالقول وغير جدير بالمعرفة هو الكلام الذى فى كتاب الله عز وجل ، وفى أخبار الرسول صلعم وفى كتب العلوم وللعلماء فى تأويله تعصب واختلاف ، لأنه إذا لم يهتم بتأويله أحد لم يؤاخذه الله بذلك. أما أفضل هذه الأنواع الأربعة التى ذكرتها فهو الكلام الجدير بالمعرفة وبالقول أيضاً ، ولكل واحد من هذه الأنواع الأربعة من الكلام وجهان ، أحدهما حسن والآخر قبيح فتحدث على خير وجه كلما تحدثت إلى الناس ليكون الكلام مقبولا ويعرف الناس منزلتك فإن المرء مخبوء تحت لسانه كما يقولون بالعربية (المرء مخبوء تحت لسانه) ومن الكلام ما إذا قاله أحد الناس يكدر سماعه النفس ، وعين ذلك الكلام يمكن قوله بعبارة أخرى تنعش الروح .

حـــكاية

كذا سمعت أن هارون الرشيد رأى رؤيا على تلك الجملة : إذ تخيل أن جميع أسنانه سقطت من فمه ، فدعا معبراً فى الصباح وسأله عن تعبير تلك الرؤيا ، فقال المعبر : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ! جميع أقربائك يموتون قبلك بحيث لا يبقى أحد بعدك ، فأمر هارون بأن يضربوا المعبر ماية عصا ، قائلا : يا كذا وكذا واجهتنى بهذا الكلام المؤلم لهذا الحد ! إذا مات أقربائى جميعاً فمع من أكون حينئذ ؟ وأمر بإحضار معبر آخر وقص الرؤيا ثانياً ، فقال المعبر : يستدل بهذه الرؤيا التى رآها أمير المؤمنين على أن حياة مولانا ستكون أطول من حياة أقربائه جميعاً ! فقال هارون : (هذا فى طريق العقل واحد) لم يخرج التعبير عن ذلك ، ولكن بين العبارة والعبارة فرق كبير ، وأعطى لهذا الرجل ماية دينار .

وسمعت حكاية أخرى ولو أنها غير لائقة بهذا الكتاب ولكن (النادرة لا ترد).

حـــكاية

كذا سمعت أن رجلا كان نائماً مع غلامه وقال للغلام : اجعل دبرك من هذه الناحية ! فقال الغلام : ياسيدى! يمكن قول هذا الكلام بأحسن من هذا، فقال الرجل : كيف أقول ؟ قال الغلام : قل هكذا ، اجعل وجهك إلى تلك الناحية ، فالغرض واحد فى كلا القولين ، حتى لا تكون قد قلت مثل تلك العبارة القبيحة ، فقال الرجل : قد سمعت وأعتقتك .

فينبغى أن يعرف وجه الكلام وظهره، ولتقل ماتقوله على الوجه الأفضل حتى تكون لسناً وفصيحاً أيضاً ، فإذا كنت تتكلم ولا تدرى ماتقول،فسواء أنت وذلك الطائر الذى يسمونه الببغاء، فإنه ناطق أيضاً ولكنه لا يفهم الكلام. ويجب على المتكلم أن يكون كل ما يقوله مفهوماً[1] للناس ليكون من جملة العقلاء ، وإلا فإنه يكون بهيمة فى صورة إنسان. أما الكلام فعظمه لأنه نزل من السماء ، ولا تضن فى مقام القول بما تعرف من الكلام ، ولا تضيعه فى غير موضعه ، حتى لا تكون قد جرت على العلم ، ولتقل ماتقوله صدقاً ولا تكن ذا دعوى بغير معنى ، وفى كل الدعاوى اعرف البرهان أكثر من الدعوى ، ولا تدعى المعرفة فى علم لا تعرفه ، ولا تطلب العيش من ذلك العلم ، فإنه يمكنك تحقيق الغرض من ذلك العلم والفن إذا عرفته ، ولا تصل إلى شىء فيما لا تعرف .

حكاية

يقال إنه فى أيام كسرى جاءت امرأة إلى بزرجمهر وسألته عن مسألة، إلا أنه لم يكن مستعدا لهـا فى تلك الساعة ، فقال لا أدرى ، فقالت المرأة : إذا كنت لا تدرى فبم تأكل نعمة الملك ؟ فقـــال بزرجمهر : بما أدرى ، ولا يعطينى الملك شيئا عما لا أدرى ، وإذا كنت لا تعرفين ذلك فتعالى واسألى الملك .

---

(١) الترجمة الحرفية : ويجب على المتكلم أن يصير كل ما يقوله معلوماً للناس .

ثم إنه لا تفرط فى الأمور واعلم أن الإفراط شؤم ، وكن وسطا فى كل الأعمال ، فإن صاحب شريعتنا يقول (خير الأمور أوسطها) وتعود الرزانة فى القول والعمل ، وإذا ذممت من أجل تلك الرزانة والأناة ، فاعلم أن ذلك خير من أن تمدح من أجل التسرع والخفة ، ولا ترغب فى معرفة سر لا يتعلق بنفعك أو ضرك ولا تبح بسرك لغيرك ، وإذا بحت به ، فلا تعد ذاك الكلام سرا من بعد ذلك ، ولا تسر إلى أحد أمام الناس ، فإنه مهما يكن باطن الكلام حسنا يحمل ظاهره على السوء ، لأن الناس على الأكثر سيئو الظن بعضهم ببعض . واجعل همتك فى كل عمل وقول على قدر مالك ، ولتقل كل ما تقوله بحيث يشهد كلامك على صدقك ، مهما تكن عند الناس متكلما وصادقا . وإذا لم ترد أن تعيب نفسك بالظلم فلا تكن شاهدا على شيء قط ، فإذا صرت «شاهدا» فلا تمتنع وقت أداء الشهادة . واسمع كل كلام يقال ولكن لا تكن متسرعا وقت العمل به ، ولا تقل ما تقول بغير تدبر ، وقدم التفكير على القول لكيلا تندم على ما قلت ، فإن النظر فى العواقب كفاية ثانية ، ولا تمل من سماع أى كلام ، اسمعه سواء أكان يفيدك أم لا ، حتى لا يوصد عليك باب الكلام .

وحذار أن تقول كلاما باردا ، فإن الكلام البارد بذر تنبت منه العداوة ، وإذا كنت عالما فعد نفسك جاهلا ، لكى ينفتح عليك باب التعلم ، ولا تنقض أى كلام أو تمدحه مالم يعلم لك عيبه وفضله ، وتكلم على نسق واحد مع الخاص والعام حتى لا تخرج عن حد الحكمة ولا يصير الكلام وبالا على المستمع إلا حيث لا يسمعون منك دليلا وحجة على الكلام ، فعندئذ تحدث كما يريدون حتى تخرج سالما من بين كل قوم ، ومهما تكن لسنا فاظهر نفسك أقل من ذلك ، حتى لا تبقى راجلا وقت القول والعمل [1] ، وكن كثير المعرفة قليل الكلام ، لا كثير الكلام قليل المعرفة ، فقد قيل : الصمت سلامة ثانية

---

(١) أى حتى لا تعجز

وكثرة الكلام حمق ثان ، ذلك لأن الرجل الثرثار مهما يكن عاقلا ، فإن العامة يعدونه من جملة الحمق ، وإذا كان شخص أحمق ، فإنه حين يكون صامتا ، يعد العوام صمته ذاك من العقل ، ولا تكن مزكيا نفسك مهما كنت طاهرا ورعا ، لأن أحدا لا يسمع شهادتك لنفسك ، واجتهد أن تكون ممدوح الناس لا ممدوح نفسك ، ومهما تكن واسع المعرفة فتكلم بما ينفع حتى لا ينقلب الكلام وبالا عليك ، كما حدث للعلوى الزنجانى[1] .

حكاية

سمعت أنه كان فى أيام الصاحب شيخ بزنجان وكان رجلا فقيها ووجيها من أصحاب الشافعى رحمه الله ، ومفتيا وواعظا بها ، وكان هناك شاب علوى هو ابن رئيس الناحية ويشتغل بالوعظ . وكان بين كليهما دائما مكاشفة[2] وكل منهما يطعن فى الآخر على المنبر ، وذات يوم دعا ذاك الشاب الشيخ بالكافر من فوق المنبر ، فوصل إليه هذا الخبر فدعاه الشيخ من على المنبر بابن الحرام ، فحملوا إليه ذلك الخبر ، فنهض من مكانه وقصد الرى وذهب إلى الصاحب شاكيا من ذلك الشيخ وبكى وقال : أيجوز فى أيام مثلك أن يدعو أحد ابن رسول الله بابن الحرام ؟ فغضب الصاحب وأرسل شخصا ودعا ذلك الشيخ وجلس للمظالم مع الفقهاء والسادة وقال : أيها الشيخ ! إنك رجل من أئمة الشافعية وعالم ووصلت إلى حافة القبر ، فلا يجوز أن تدعو ابن الرسول بابن الحرام ، فالآن صحح هذا الذى قلته ، وإلا أنزل بك عقوبة لا يكون أشد منها حتى تكون عبرة لخلق الله ولا يأتى شخص آخر هذه الوقاحة كما هو واجب فى الشرع ، فقال الشيخ : إن صدق شاهدى فى هذا الكلام هو هذا العلوى نفسه ! فلا تطلب منى شاهدا أحسن من هذا ! أما بقولى فهو ابن حلال طاهر ، وبقوله ابن حرام ، فقال الصاحب : بأى معنى ؟

---

(١) نسبة إلى زنجان على الطريق بين طهران وتبريز .

(٢) عداوة وخصومة .

فقال الشيخ : كل أهل زنجان يعلمون أنى عقدت نكاح أبيه وأمه ، وهو يدعونى من فوق المنبر بالكافر ، فإذا قال هذا الكلام باعتقاد ، فالنكاح الذى يعقده الكافر لا يكون صحيحا ، وبقوله يكون من غير شك ابن حرام ، وإذا قاله بغير اعتقاد يكون كذابا ، وابن الرسول لا يكون كذابا ، فادعوه كما تشاءون ، ويجب الوقوف بلا شك على شىء من هذين ، فخجل العلوى ، ولم يستطع أن يجيب قط ، وصار هذا الكلام غير المتدبر وبالا عليه .

فكن متكلما لا مهذارا ، فإن الهذر هو الجنون الثانى ، وانظر لمن تتحدث إليه أهو مشتر[1] لكلامك أم لا ، فإذا وجدته مشتريا فبع ، وإلا فقل ما يعجبه ليشترى منك ، وكن مع الناس رجلا ، ومع الآدميين إنسانا ، فإن الرجولة شىء والإنسانية شىء آخر ، وكل من صحا من نوم الغفلة يعيش مع الخلق كما قلت ، ولا تكن ما استطعت نفورا من سماع الكلام ، فإن الناس يتعلمون الكلام[2] بسماع الكلام ، والدليل عليه أنه إذا ولد طفل من أمه وحملوه إلى سرداب وربوه هناك ولم يتكلم معه أمه وأبوه ومرضعته ، ولم يسمع كلام أحد ، فإنه حينما يكبر يكون أبكم ، ولا يعرف الكلام قط إلى أن يسمع أياما طويلة ثم يتعلم . والدليل الآخر هو أن الطفل الذى يولد من أمه أصم لا يستطيع النطق قط ، ألا ترى أن جميع البكم صم ؟ وقد قال الحكماء : يضىء الملوك أبصارهم بسماع نصح الحكماء ، لأن الحكمة كحل وتوتيا عين القلب ، فيجب استماع كلام هؤلاء القوم بسمع القلب والاعتماد عليه ، وفى هذا الكلام تذكرت بضع كلمات طيبة من كلام أنوشيروان العادل ذكرناها فى هذا الكتاب لتعمل بها بقدر ما تستطيع ، فإن العمل بنصائح ذلك الملك واجب .

حكاية

هكذا قرأت فى أخبار الخلفاء الماضين أن الخليفة المأمون ذهب إلى تربة

---

(١) أى راغب فى كلامك وسامع له .

(٢) الترجمة الحرفية : — يصيرون متكلمين .

أنوشيروان العادل فوجـــد أعضاءه متفتتة على تخت وصارت ترابا ، وقد كتب على جدار البيت بضعة سطور بماء الذهب بالخط البهلوى ، فأمر المأمون فأحضروا الكتاب العارفين بالفهلوية وترجموا تلك الكتابات إلى العربية ، فصارت تلك العربية معروفة فى العجم ، وهى : كان جميع عباد الله عز وجل — ما حييت — يتمتعون بعدلى ولم يأت أحد قط إلى حضرتى إلا ولقى نصيبا من رحمتى ، والآن وقد حل وقت العجز ، لم أعرف حيلة إلا أن أكتب هذه الكلمات على الجدار حتى إذا ماجاء أحد لزيارتى قرأ هذه الألفاظ وعرفها وتعلمها وعمل بها كيلا يبقى محروما منى .

الباب الثامن

فى نصائح نوشيروان العادل لابنه

قال أولا — مادام الليل والنهار يتعاقبان ، فلا تعجب من تقلب الأمور .

وقال أيضاً — لماذا يندم الناس على عمل كان قد ندم عليه الغير ؟

وقال أيضاً — لم ينام آمناً من له معرفة بالملوك ؟

وقال أيضاً — كيف يعد نفسه حيا من لم تكن حياته على مراده ؟

وقال أيضا — لم لا تدعوه عدواً من يرى شهامته فى أذى الناس ؟

وقال أيضا — إنك لاتدعو من يكون عدو محبك صديقا .

وقال أيضا — لا تصادق الجاهل ، فإن الجاهل ليس جديراً بالحب أو البغض .

وقال أيضا — اجتنب من يرى نفسه عالما وهو جاهل .

وقال أيضا — انصف من نفسك لتستغنى عن القاضى .

وقال أيضا — قل الحق وإن يكن مراً ، وإذا أردت أن لا يعرف العدو سرك فلا تفشه للصديق .

وقال أيضا — كل عظيم يعتبر نفسه صغيرا فهو عظيم الزمان .

وقال أيضا — لا تعد الخاملين أحياء .

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون غنيا بلا عناء فكن حميد الفعال .

وقال أيضا — لا تشتر جزافا كيلا تضطر إلى البيع جزافا .

وقال أيضا — الموت جوعا خير من الشبع بخبز اللئام .

وقال أيضا — بكل خيال يتراءى لك ، لا تعتمد على غير ذوى الثقة ، ولا تنزع ثقتك ممن يوثق بهم .

وقال أيضا — اعلم أن الحاجة إلى أقاربك الذين هم دونك مصيبة عظمى، فإن الموت فى الماء خير من طلب الأمان من الضفدع .

وقال أيضا — الفاسق المتواضع الذى يطلب الآخرة خير من العابد المتكبر الذى يطلب الدنيا ،

وقال أيضا — لا أجهل من ذلك الرجل الذى يرى وضيعا وصل إلى الرفعة ، وهو ما يزال ينظر إليه بعين الاحتقار .

وقال أيضا — لا جرم أكبر من أن يدعى الشىء من لا يعرفه فيصير كذابا .

وقال أيضا — لا تغتر بمن يستبدل المفقود بالموجود .

وقال أيضا — لا أسفل فى الدنيا ممن يكون لأحد إليه حاجة يستطيع قضاءها ولا يفعل .

وقال أيضا — كل من يقول عنك كلاما قبيحا بغير جرم ، عده أكثر عذرا ممن يبلغك هذا الكلام .

وقال أيضا — إن المصاب فى عزيز لا يلحقه من الألم ما يلحق بالمنتظر بغير جدوى .

وقال أيضا — إن من يضطر لرؤية المؤذى لأكثر تأذيا ممن لحق به الأذى البالغ .

وقال أيضا — اعتبر العبد الذى يشترى ويباع أكثر حرية ممن يكون عبدا لبطنه [1] .

وقال أيضا — لا ينبغى لأى عالم أن يتعب فى تعاليم من لم يؤدبه تعليم الزمان .

---

(١) الترجمة الحرفية : عبد حلقه :

وقال أيضا — صون كل شيء من الجاهل أيسر من صونه من نفسه .

وقال أيضا — إذا أردت أن يثنى عليك الناس فاثن على الناس .

وقال أيضا — إذا أردت أن لا يضيع تعبك فى سبيل الناس ، فلا تضيع تعب الناس .

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون بعيدا عن الأذى فلا تكن حسودا .

وقال أيضا — إذا أردت أن تقضى الحياة فى راحة فاجعل سيرتك على مقتضى الأمور .

وقال أيضا — إذا أردت أن لا تعد كالمجانين فلا تطلب شيئا غير قابل للوجود.

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون محترما فالتزم الحياء .

وقال أيضا — إذا أردت أن لا تكون مخدوعا فلا تعتبر الأمر غير الحاصل كالأمر الحاصل .

وقال أيضا — إذا أردت أن لا تكون خجلا فلا تأخذ مالم تكن قد وضعته، وإذا أردت أن لا يضحكوا منك من ورائك فاخش من هم دونك .

وقال أيضا — إذا أردت أن تأمن طول الندم فلا تعمل بهوى القلب .

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون فى عداد الأحرار فلا تدع للطمع موضعا فى قلبك .

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون من المنصفين فاحسن إلى من هم دونك بقدر الطاقة، وإذا أردت أن لا يصيب قلبك جرح لا يندمل بأى مرهم فلا تناظر الجاهل .

وقال أيضا — إذا أردت بقاء قدرك فاعرف قدر الناس .

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون خير ممدوح للناس فلا تظهر باطنك لمن لا عقل له .

---

(١) الترجمة الحرفية : — عبد حلقة

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون أجل الناس فكن كثير العيش والملح [1]

وقال أيضا إذا أردت أن تكون بعيدا عن مذمة الخلائق فكن مثنيا على آثارهم .

وقال أيضا — إذا أردت أن تكون محبوبا فى قلب إنسان ولا ينفر منك الناس فتحدث كما يريد الناس .

وقال أيضا — إذا أردت أن يكون لسانك طويلا فكن قصير اليد .

* * *

هذه كانت كلمات أنوشيروان العادل فإذا قرأتها فلا تحتقر هذه الألفاظ فإن أريج الحكمة وعبير الملك يتضوعان من هذه الأقوال لأنها كلام الحكماء وكلام الملوك ، وتعلم الآن وأنت شاب اذ حينما تصير شيخا لا تكون بك حاجة إلى سماع وتعلم النصيحة والحكمة ، لأن الزمان نفسه يكون قد علم الشيوخ .

(١) الترجمة الحرفية : كن واسع العيش والملح ، أى كن كريما مضيافا

الباب التاسع

فى الشيخوخة والشباب

أى بنى ! مهما تكن شابا فكن ذا عقل شيخ[1] لا أقول لا تصب[2] ولكن كن شابا مسيطرا على نفسه . ولا تكن من الشبان الذابلين ، لأن الشاب الشاطر حسن لطيف كما يقول أرسطاطايس (الشباب شعبة من الجنون) ولا تكن أيضا من الشبان الجاهلين لأن البلاء لا ينشأ من الشطارة ، ومن الجهل ينشأ البلاء ، وخذ نصيبك بقدر الطاقة من أيام الشباب ، فإنك إذا صرت شيخا لا تستطيع أن تستجمع نفسك ، كما قال ذلك الشيخ : (لقد تحسرت واغتممت السنين الطوال قائلا : عندما أصير شيخا لا يرغب فى الحسان ، والآن وقد صرت شيخا فإنى أنا نفسى لا أرغب فيهن ، وإذا أنا رغبت فإنه لا يليق) ومهما تكن شابا فلا تنس الله عز وجل ولا تأمن الموت ، فإن الموت لا يعرف الشاب ولا الشيخ ، كما يقول العسجدى :

بيت[3]

لم يكن الموت بالشيخوخة والشباب   فيموت الشيخ ويعيش الشـاب

حكاية

يحكى أنه كان بمدينة الرى خياط له دكان فى بوابة الجبانة قد علق كوزاً

---

(١) أى كن ناضج العقل كالشيوخ .

(٢) صبا الرجل يصبو صبوا وصبوا وصبا وصباء (واوى) مال إلى الصبوة أى جهلة الفتوة (أقرب الموارد مادة صبو) .

(٣) مرك به پيرى وجوانى نيستى   پير بمردى وجوان زيستى

فى مسمار ، وكان له شغف بأن يلقى حصاة فى ذلك الكوز كلما خرجت جنازة من البوابة ، ويحصيها كل شهر قائلا : إنه قد مات فى هذا الشهر كذا شخصاً ، ويفرغ الكوز ويلقى به الحصى ثانياً إلى الشهر التالى ، حتى انقضى على ذلك زمن ، ومات ذلك الخياط ، فجاء رجل فى طلبه ، ولم يكن يدرى أنه قد مات ، فلما رأى باب الدكان مغلقاً سأل جيرانه أن أين الخياط ؟ فقال الجار : إن الخياط وقع فى الكوز أيضاً .

ولكن يابنى كن فطناً ، ولا تغتر بالشباب ، واذكر الله عز وجل فى الطاعة والمعصية فى أى حال تكون ، واطلب العفو واخش الموت حتى لا تقع مثل الخياط فى الكوز فجأة موقراً بالمعاصى ، ولا تجعل كل صحبتك ومعاشرتك مع الشبان ، وجالس الشيوخ كذلك ، واجعل رفقاءك وندماءك خليطاً من الشيوخ والشباب ، حتى إذا قال شاب محالا بسبب السكر نبهك الشيخ ، لأن الشيوخ يعرفون أشياء لا يعرفها الشبان ولو أن غالب الشبان يضحكون من الشيوخ لأنهم يرون الشيوخ فى حاجة إلى الشباب ، ولهذا السبب يطلبون التقدم على الشيوخ ، ويهزأون بهم ، ولئن كان الشيوخ يتمنون الشباب فإن الشبان أيضا بغير شك يتمنون الشيخوخة[1] وقد يبلغونها أو لا يبلغونها ، وإذا نظرت جيدا رأيت كلا منهما حسودا للآخر ، ومهما كان الشبان يعدون أنفسهم أعلم الناس فحذار أن تكون على شاكلة مثل هؤلاء الشبان ، وقر الشيوخ ، ولا تتحدث إليهم جزافا فإن جواب الشيوخ والعقلاء قاس .

حـــكاية

سمعت أن رجلا عمره مائة سنة مقوس الظهر كان يسير متكئا على عصا ، فقال له شاب ساخرا منه ، أيها الشيخ ! بكم اشتريت هذه القوس حتى أشترى أنا أيضا واحدة ؟ فأجاب قائلا : إذا عمرت وهبت لك بلا ثمن وإن كنت لا تستحقها .

«١» اى يتمنون أن يعمروا .

ولكن لا تجالس الشيوخ البله، فإن صحبة الشبان العقلاء خير من صحبة الشيوخ البلهاء . وما دمت شابا فكن شابا، وإذا صرت شيخا فتشيخ لأن التصابى فى وقت الشيخوخة لا يليق ، والشيخ الذى يتصابى يكون كمن ينفخ فى البوق وقت الهزيمة ، كما قيل :

بيت

الشيخ الذى يتصابى فى وقت الشيخوخة ، كالنافخ[1] فى البوق وقت الهزيمة.

* * *

ولا تكن شيخا أرعن، واخش الشيوخ الدنسين الجائرين ، وأد حق الشيخوخة أكثر مما تؤدى حق الشباب ، لأنك مادمت شابا يكون لك أمل الشيخوخة ، وليس للشيوخ أمل غير الموت ، إذ أن الغلة إذا ابيضت ولم تحصد تناثرت . وكذلك الثمرة التى نضجت ، إذا لم تقطف وقعت من الشجرة .

رباعى

لو وضعت على ناصية القمر قوائم التخت، أو صرت كسليمان فى الدولة والبخت،
إذا نضج عمرك حزمت المتاع ، فالثمرة إذا نضجت سقطت من الشجرة .

(إذا تم أمر دنا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم)

* * *

ولتعلم أنك لا تترك لتبقى هكذا ، فإذا تعطل شبابك انسد عليك باب النطق والبصر والسمع واللمس والذوق جملة ، فلا أنت تسر بحياتك ، ولا أحد يسر بك ، وتصير وبالا على الناس ، فالموت خير من مثل تلك الحياة ، ومثل عمر الإنسان كمثل الشمس ، وشمس الشبان فى أفق المشرق وشمس الشيوخ فى أفق المغرب كما قلت :

---

(١) فى الأصل « كالنفخ » .

كيكاوس يامن صرت عاجزا فى كف الشيخوخة ، تهيأ للرحيل فقد أقبلت الثالثة والستون ، لقد شارف يومك صلاة العصر على كل حال ، ويقبل الليل سريعا ، إذا حئت صلاة العصر .

* * *

لهذا السبب لا ينبغى أن يكون الشيخ شابا فى عقله وفعله ، وكن دائما رحيما بالشيوخ ، لأن الشيخوخة مرض لا يذهب أحد لعيادته ، والشيخوخة علة لا يعرف أى إنسان لها دواء إلا الموت ، ولهذا لا يستريح الشيخ من ألم الشيخوخة مالم يمت ؛ وكل علة تصيب الإنسان إذا لم يمت بها يصح منها إلا علة الشيخوخة فإنها كل يوم تزداد سوءاً ولا يرجى منها الشفاء .

ومما قرأت فى الكتاب ، أن الرجل حتى الرابعة والثلاثين يزداد كل يوم فى القوة والتركيب ، وبعد ذلك يبقى هكذا حتى الأربعين لايزيد ولا ينقص ، كالشمس وقد بلغت كبد السماء ، تكون بطيئة السير حتى الزوال ، ومن الأربعين حتى الخمسين يرى كل عام فى نفسه نقصانا لا يكون قد رآه فى السنة الماضية ، ومن الخمسين حتى الستين يجد كل شهر فى نفسه نقصانا لا يكون قد وجده فى الشهر الماضى ، ومن الستين حتى السبعين يرى كل أسبوع فى نفسه نقصانا لا يكون قد رآه فى الأسبوع المنصرم ، ومن السبعين إلى الثمانين يرى كل يوم فى نفسه نقصانا لم يكن قد رآه بالأمس ، وإذا جاوز الثمانين يرى فى نفسه كل ساعة ألما وعناء لا يكون قد رآه فى الساعة الأخرى .

وحد لذة العمر إلى الأربعين ، فإذا انقضت الأربعون فقد جلس على درجة السلم العليا ، فتهبط كما صعدت من غير شك . فالبرم من يرى فى كل ساعة ألما وعناء لم يكونا فى الساعة الماضية .

(فيا ولدى ويا قرة عينى) لقد أطلت شكاية الشيخوخة إليك ، لأن منها عنائى . ولا عجب فالشيخوخة لى عدو ، ومن العدو تحق الشكوى ، كما قلت :

بيت

إذا شكوت منها فلا تعجب منى ، لأنها بلائى والشكوى تكون من البلاء .

* * *

ويشتكى من الأعداء لأحب إنسان (أرجو من الله عز وجل) أن تبث هذه الشكوى لابنك ، ولى فى هذا المعنى بيتان :

قطعة

أواه لمن أشكو الشيخوخة ؟ فإن ألمى هذا ليس له دواء آخر غير التوبة .

هلم إلى أيها الشيخ حتى أبثك شكواى ؛ لأنه لا خبر للشباب بهذه الحال .

* * *

ولا يعرف أحد ألم الشيخوخة خيرا من الشيوخ .

حكاية

كان من جملة حجاب أبى حاجب يقال له مجاهد الحاجب الكامل . وكان شيخا جاوز الثمانين وأراد أن يشترى حصانا ، فأحضر رائض حصانا سمينا ، بديع اللون صحيح القوائم . فرأى الحصان وأعجبه ودفع الثمن ، فلما رأى

أسنانه ألفاه عجوزا فلم يشتره فاشتراه رجل آخر ، فقلت له : يا حاجب ! فلان اشترى الحصان فلم لم تشتره ؟ قال : إنه رجل شاب وأنا خبير بألم الشيخوخة وضعفها وآفتها ، فكيف أكون معذورا حين أشترى حصانا عجوزا ؟

ولكن متى صرت شيخا فاجتهد أن تقر فى موضع ، لأن السفر فى الشيخوخة ليس من العقل ، وخاصة لمن لا يكون قادرا ، إذ أن الشيخوخة عدو والعجز عدو آخر ، فالسفر مع عدوين ليس من الحكمة ، أما إذا وقع السفر اضطرارا وابتعدت عن بيتك ولطف الله تعالى بك فى ذاك السفر وظهر فى تلك الغربة والسفر خير أفضل من ذاك الذى كان فى الحضر ، فلا تطلب العودة إلى البيت قط ، واستقر حيثما ترى عملك واعتبر ذلك المكان الذى فيه خيرك موطنا ومقاما. ومهما قيل إن الوطن هو الأم الثانية فلا تكن مشغولا به ، وحافظ على رونق أيامك ، فقد قيل : الخير يطلب السعداء ، وللتعساء المولد والمقام . أما إذا رأيت لنفسك رونقا وظفرت بعمل مفيد ، فاجتهد فى أن تثبت ذاك العمل وتحكمه ، ولا ينبغى أن تكثر الطلب فى ذاك الثبات الذى تلقاه ، لأنك فى طلب الزيادة تقع فى النقص ، فإذا كان شىء موضوعا وضعا حسنا فلا تحاول أن تجعله فى وضع أحسن لكيلا تعجز عن ذلك بالطمع فى المحال ، ولكن لا تكن غير منظم فى تمضية العمر ، وإذا أردت أن تكون محترما فى عين الصديق والعدو فيجب أن يكون وضحك ومقامك متميزين عن عامة الناس .

الباب العاشر

فى ترتيب تناول الطعام

اعلم يابنى أنه ليس لعامة الناس فى أشغالهم أوقات وترتيبات ظاهرة ، فهم لا يراعون الوقت وعدم الوقت ، بينا يكون الأكابر والعقلاء قد عينوا أوقاتا لأعمالهم ، وقسموا عليها الأربع والعشرين ساعة من الليل والنهار وأوجدوا لكل عمل حدا ولكل وقت مقياسا لكيلا تختلط أعمالهم ببعضها البعض وليكون معلوما لخدمهم كذلك بأى عمل يجب أن يشتغلوا فى كل وقت ، حتى تكون جميع أعمالهم منظمة .

أما أول حديث تناول الطعام ، فاعلم أن عادة أهل السوق أن يتناولوا الطعام ليلا وذلك ضار جدا ، وهم دائما متخومون ، وعادة أهل الجندية أن لا يراعوا الوقت كذلك ، فيأكلوا وقتما يجدون ، وهذه عادة الدواب إذ تأكل كلما تجد العلف ، والخاصة والمحتشمون لا يتناولون الطعام أكثر من مرة ، وهذه الحمية مستحسنه ، ولكن الجسد يضعف ويكون الناس دائما ضعفاء ، فالأصوب أن يتناول المحتشمون فى الصباح قليلا من الزاد فى الخلوة ويذهبوا إلى أعمالهم حتى صلاة الظهر ، فيكون قد وصل ذلك الراتب المرسوم ، ويحضرون من يتناول الطعام معهم ويأكلون ، ولكن ينبغى أن لا يأكلوا بعجلة ، وأن يتمهلوا ويجوز أن يتحدثوا إلى الناس على الطعام ، فإنه شرط الإسلام ، ولكن اطرق برأسك ولا تنظر إلى لقم الناس .

حـــكاية

سمعت أن الصاحب إسماعيل ابن عباد كان يأكل مرة مع خواصه فرفع رجل لقمة من الإناء وكان فى اللقمة شعرة لم يرها الرجل ، فقال الصاحب : يا فلان ! اخرج تلك الشعرة من اللقمة ، فوضع الرجل اللقمة من يده وقام وهم بالذهاب ، فأمر الصاحب أن يأتوا به ، وسأله قائلا : أى فلان ! لم قمت عن سماطنا نصف شبعان ؟ فقال الرجل : لا ينبغى لى أن آكل طعام من يرى الشعرة فى لقمتى ، فخجل الصاحب .

أما أنت فكن مشغولا بنفسك ، فتمهل أولا فى الطعام ثم مرهم بوضع الآنية ، ورسم المحتشمين نوعان :

فبعضهم يأمر بوضع الآنية أمامه أولا ثم أمام الضيوف ، وبعض من المحتشمين يأمرون بوضع الآنية أولا أمام الضيف ، وهذا أفضل لأنه طريق الكرم ، وذلك طريق السيادة ، ولكن مرهم أن يعملوا على عجل عندما يأتون بالآنية بنوع ، لأن البطون ليست كلها سواء ، فيجب أنهم عندما يقومون عن الخوان أن يكون المقل والمكثر من الطعام قد شبعوا جميعا ، وإذا كان أمامك طعام شهى ولم يكن أمام الآخرين ، فينبغى أن تجعل لهم منه نصيبا ، ولا تكن عابس الوجه على الطعام ، ولا تتشاجر على السفرة مع قيم الخوان فإنها عادة غير مستحسنة ، وهذا الكلام يقال فى وقت آخر ، فإذا كنت قد عرفت ترتيب الطعام فاعرف ترتيب الشراب .

الباب الحادى عشر

فى ترتيب تناول الشراب

أما حديث تناول الشراب، فلا أقول تعاط الشراب، ولا أستطيع أيضاً أن أقول لا تشرب؛ لأن الشبان لايرجعون عن فعلهم بقول أحد، فقد قيل لى كثيراً ولم أسمع، حتى منحتنى رحمة الله التوبة بعد الخمسين، أما إذا لم تشرب يكون لك ربح الدارين، وتنال رضاء الله تعالى وتنجو من ملامة الخلق، ومجالسة غير العقلاء، وفعل المحال، ويكون ثمت وفر كبير فى تدبير البيت والرياسة، فإذا لم تشرب فهو أحب عندى من عدة وجوه، ولكنك شاب، وأعلم أن الرفاق لايدعونك لاتشرب، ومن هنا قالوا (الوحدة خير من جليس السوء) فإذا شربت على أى حال فهيء قلبك للتوبة واطلب من الله تعالى التوفيق لها واندم على عملك فلعله بفضله يمنحك التوفيق للتوبة النصوح، وعلى كل حال، إذا شربت النبيذ ينبغى أن تعرف كيف يجب الشرب لأنك إذا لم تعرف، فالشراب سم، وإذا عرفت فهو ترياق، وكل المأكولات والمشروبات تصير سماً على التحقيق إذا أسرفت فيها، ولهذا قالوا:

بيت

إن الترياق سم إذا زاد وتجاوز مقداره

* * *

وينبغى إذا تناولت الطعام أن لا تشرب النبيذ فى الحال ما لم تظمأ ثلاث مرات، وتستعمل الماء أو الفقاع، وإذا لم تظمأ فتوقف مقدار ثلاث ساعات

بعد تناول الطعام ، لأنه مهما تكن المعدة صحيحة وقوية ، إذا تنوول الطعام والشراب بضع مرات ، فإنها تهضمه فى سبع ساعات : تنضجه فى ثلاث ساعات وفى ثلاث ساعات أخرى تأخذ قوة الطعام وتوصلها إلى الكبد ، ليقسمها الكبد على الأعضاء ، لأنه هو القسام ، وفى ساعة أخرى ترسل بالثفل الذى يكون قد تبقى إلى الأمعاء ، ويجب أن تكون خالية فى الساعة الثامنة ، وكل معدة لا تكون بهذه القوة فهى يقطينة لا معدة ، فلهذا السبب قلت أن اشرب النبيذ بعد مضى ثلاث ساعات من الطعام ، لتستفيد من الطعام ومن الشراب أيضاً ، أما بدء شراب السيكى ، فاجعله من بعد صلاة العصر ، حتى إذا ما سكرت يكون الليل قد أقبل ، ولا يرى الناس سكرك ، ولا تتنقل فى السكر لأنه غير محمود ، فقد قيل (النقلة مثلة) ولا تشرب السيكى فى الصحراء والبستان ، وإذا شربت فعد إلى البيت للسكر ، واسكر فى بيتك ، لأن مايجوز عمله تحت السقف لا يمكن عمله تحت السماء ، وظل سقف البيت خير من ظل الشجرة لأن المرء فى بيته كملك فى ملكه ، ويكون فى الصحراء كالغريب ، وظاهر إلى أى مدى تصل يد الغريب ، وانهض دائماً عن النبيذ وما يزال هنالك موضع لكأسين . واحترز من لقمة الشبع ومن قدح السكر[1] لأن الشبع والسكر لا يكونان من كل الطعام والشراب ، بل يكون الشبع من اللقمة الأخيرة كما يكون السكر من القدح الأخير ، فقلل لقمة من الطعام وقدحاً من السيكى ، لتأمن عاقبة الإفراط فى كل شىء ، واجتهد أن لا تكون ثملا دائماً ، فإن ثمرة شرب السيكى شيئان : المرض والجنون ، لأن شارب السيكى يكون إما سكراناً أو مخموراً ، فعندما يكون سكراناً فهو من جملة المجانين ، وعندما يكون مخموراً فهو من جملة المرضى ، فالخمار نوع من المرض ، فلم يلزم الولع بأمر ثمرته المرض أو الجنون ؟ وإنى لأعلم أنك لا تكف يدك عن النبيذ بهذا الكلام ، ولا تقبل نصيحتى ، وعلى كل فلا تتعاط الصبوح ما استطعت ،

---

(١) اللقمة التى يتم بها الشبع والقدح الذى يتم به السكر .

لأن العقلاء قد ذموا عادة الصبوح ، وأول شؤمها فوات صلاة الصبح ، ثم إنه لا يكون خمار الليلة الماضية قد خرج من الرأس والدماغ حتى يصحبه بخار اليوم ، ولا تكون ثمرة ذلك غير الماليخوليا ، وفضلا عن ذلك فإنه وقتما يكون الناس نائمين تكون أنت صاحياً ، وعندما يصحو الناس لابد لك من النوم ، وإذا نمت كل النهار فلابد من أن تسهر طول الليل فتكون كل أعضائك منهكة ومتعبة ، وقلما يكون صبوح لا تكون فيه عربدة أو شيء يرتكب ينشأ عنه الندم أو مال ينفق فى غير ما ينبغى ، أما إذا اتفق صبوح فى أوقات نادرة فجائز ، ولكن لا ينبغى تعوده ، لأنه غير محمود . ومهما تكن مولعاً بالنبيذ فتعود أن لا تشرب به ليلة الجمعة ، ولو أن النبيذ حرام فى يومى الجمعة والسبت كليهما ، ولكن ليوم الجمعة حرمة وبعدم شربك النبيذ من أجل حرمة الجمعة ويوم الجمعة ، تجعل شربك النبيذ أسبوعاً ، طيباً على قلوب الناس وتنعقل عنك ألسنة العامة . وتنال الثواب بالدار الآخرة والسمعة الطيبة فى هذه الدنيا أيضاً . فإذا حصلت السمعة الطيبة فعليك أن تحافظ عليها ، ولا ينبغى الإمعان فى الإسراف فإن ذلك أفضل .

الباب الثانى عشر

فى التضييف والضيافة

أى بنى ؟لا تضيف الغرباء فى كل يوم . فإنك لا تستطيع القيام بالضيافة اللائقة كل يوم ، فانظر كم مرة تضيف فى شهر ، وما تعمله خمس مرات اعمله فى مرة واحدة ، وما ستنفقه فى هذه المرات الخمس انفقه فى مرة واحدة ، ليخلو سماطك من كل العيوب ، وتنكف عنك ألسنة اللامزين . وإذا جاء الضيوف إلى بيتك فاستقبل كل واحد منهم وكرمه وابذل من العناية ما يليق بهم كما يقول أبو شكور البلخى :

بيت

كل من يكون له ضيف صديقا كان أو غير صديق ، فعليه العناية بالضيف ليل نهار

* *

وإذا كان أوان الفاكهة ، فقدم فاكهتك قبل الأكل ليأكلوها ، وتوقف ساعة ، ثم احضر للناس الطعام ، ولا تجلس أنت ما لم يقل لك الضيوف اجلس ، ولكن ساعدهم وقل دعونى أخدمكم ، فإذا كرروا فاجلس وكل معهم ، ولكن اجلس أدنى الجميع ، وإذا كان الضيف عظيما جدا فلا ينبغى الجلوس ، ولا تلتمس المعذرة من الضيف فإن الاعتذار شأن أهل السوق ، ولا تقل كل ساعة كل جيدا ، وأنت لا تأكل شيئا ، بحياتك لا تخجل ، وإننى لا أستطيع عمل شىء يليق بك ، فلعله يمكن عمل هذا مرة أخرى ، فليس هذا كلام ذوى الهمم ، إنما يقول هذا من يضيف مرة فى أعوام ، والناس يخجلون من مثل هذه

الأقوال ، ولا يستطيعون تناول شيء ويقومون عن سماطك قبل الشبع ، ولنا بكيلان عادة طيبة جدا وهي أنه عندما يأخذون الضيف إلى الخوان ، يضعون كيزان شرب الماء وسط المائدة ، ويخرج صاحب الدعوة وأهله من هناك ويقف شخص من بعيد لأجل وضع الآنية ، ليأكلوا برغبتهم كما يشتهون . ومر بماء الورد والعطر بعد غسل الأيدى ، وتعهد جيدا خدم الضيف وغلمانه لأنهم يذيعون فى الخارج السمعة الطيبة ، ومر فى المجلس بالورد والرياحين الكثيرة ، واحضر المطربين الحسنى الصوت الماهرين ، ولا تقدم النبيذ للضيف ما لم يكن جيدا ، فإن الناس أنفسهم يأكلون كل يوم ، ويجب أن يكون السماع والشراب طيبين لطيفين حتى إذا ما وقع تقصير فى الخوان والآنية يستر ذلك العيب بذاك . والشراب كذلك إثم ، فإذا أردت أن تأثم فلا تقترف إثما لا لذة فيه ، إذا شربت الشراب فاشرب أحسنه وإذا سمعت السماع فاسمع أعذبه ، وإذا ارتكبت الحرام فارتكبه مع شخص لطيف ، حتى إذا ما أخذت بذلك فى الآخرة لا تكون مذموما ومعيبا فى هذه الدنيا ، فإذا ما فعلت كل ما قلته فلا تر لنفسك أى حق على الضيف ، واعرف بأن لهم عليك حقوقا جمة .

حكايـــة

هكذا سمعت أن ابن مقلة استعمل نصر ابن منصور التميمى على البصرة وفى السنة التالية استقدمه وحاسبه ، وكان نصر رجلا ثريا فصار للخليفة فيه مطمع ، فحوسب وتجمع عليه مال كثير ، فقال ابن مقلة : سلم هذا المال أو امض إلى السجن ، فقال نصر : أى مولانا ! إن لى مالا ولكنه غير حاضر هنا ، فامهلنى شهرا ، اذ لا ينبغى الذهاب إلى السجن بهذا المقدار ! وعرف ابن مقلة أن تسليم هذا المال ليس بصعب على نصر ، وأنه يقول صدقا ، فقال : ليس لدى أمر من أمير المؤمنين بأن تعود إلى مكانك ما لم تسلم هذا المال . فأقم بحجرة هنا فى دارى وكن ضيفى هذا الشهر ، فقال نصر : إنى مطيع ، وأقام محبوسا فى دار ابن مقلة ، واتفق أن كان أول شهر رمضان ، فلما أقبل الليل قال ابن مقلة : احضروا فلان ليفطر معنا كل ليلة

فأفطر معه نصر شهرا ، ولما عيدوا وانقضت بضعة أيام ، أرسل إليه ابن مقلة شخصا يقول : إنهم يتأخرون فى إحضار ذلك المال فما تدبير هذا الأمر ؟ فقال نصر : إنى سلمت المال ، فقال ابن مقلة: لمن أعطيته ؟ قال أعطيته لك ؛ فغضب ابن مقلة وقال : أيها السيد ؟ متى أعطيتنى مالا ؟ قال : ؟ إننى لم أعطك ذهبا لكنى أكلت طعامك دون مقابل فى شهر رمضان هذا وأفطرت على مائدتك ، والآن وقد أقبل العيد ، فإن من حقى أن لا تطلب منى مالا ، فضحك ابن مقلة وقال : خذ البراءة وامض ، فقد أعطيتك ذاك المال أجر سن[1] وأؤديه عنك . فنجا نصر من المصادرة بهذا السبب .

فتقبل منه الضيف وكن مشرق الوجه ، ولكن أقل شرب النبيذ ولا تسكر أمام الضيف ، فإذا عرفت أن القوم صاروا نصف سكارى ، فاشرع عندئذ فى السكر من تلقاء نفسك، ولا تنس الأصدقاء . وعليك بحسن الخلق وبشاشة الوجه ، اشرب واسق ، ولكن لا تكن ضحوكا عبثاً ، فإن الضحك عبثا هو الجنون الثانى كما أن قلة الضحك سياسة ثانية ، وإذا سكر الضيف وأراد أن ينصرف فارجه مرة وثانية وتواضع ولا تدعه ليذهب ولا تتشبث به فى المرة الثالثة ودعه بلطف ، وإذا أخطأ خدمك فتغاض ولا تعبس أمام الضيف ولا تبدأ الشغب معهم ، ولا تقل بأن هذا جيد وذاك ردىء ، وإذا لم يعجبك شىء ، فلا تأمر بعمل مثل ذلك مرة أخرى واصبر هذه المرة ، وإذا قال ضيفك وفعل ألف محال ، فلا تأخذ عليه محالا ، وعظم حرمته .

حكاية

سمعت أن المعتصم أمر مرة بضرب عنق مجرم بحضرته فقال ذلك المجرم :

---

(١) أجر السن تقابل فى الفارسية دندان مزد أومزد دندان ، فقد كانت عادة المولمين الكبار أن يقفوا بالباب بعد الوليمة ويمنحوا كل ضيف عند خروجه مبلغ يقال له مزد دندان أو دندان مزد ، ومعناها أجر السن .

يا أمير المؤمنين بحق الله ورسوله ، ضيفنى بشربة ماء ثم مر بما تشاء ، فإنى ظمآن جدا ، فأمر المعتصم - بحكم القسم - فأعطوه الماء ليشرب ، وقال على عادة العرب (كثر الله خيرك يا أمير المؤمنين) بشربة الماء هذه كنت ضيفك ، فإذا كان طريق المروءة يوجب قتل الضيف فمر بأن يقتلونى ، وإلا فاعف حتى أتوب على يدك ، فقال المعتصم : تقول حقا ، إن حق الضيف عظيم ، عفوت عنك ، فتب على أن لا تقترف إثما بعد هذا ، فتاب الرجل وأطلق سراحه .

أما فاعلم بأن رعاية حق الضيف واجبة، ولكن حق الضيف الذى يستحق التقدير ، لا بحيث تأخذ كل ساقط إلى بيتك ثم تتواضع كثيرا قائلا إن هذا ضيفى ، ينبغى أن تعرف مع من يجب عمل هذه المروءة والتقرب .

موعظة

إذا ذهبت ضيفا فلا تكن ضيفا لكل أحد فإن ذلك يضير الكرامة ، وإذا ذهبت فلا تذهب وأنت جائع جدا ، أو شبع جدا أيضا ، لأنك إذا لم تأكل شيئا تأذى المضيف ، وإذا أكلت بإفراط يكون قبيحاً ، وإذا ذهبت إلى بيت المضيف فاجلس حيث يجلسونك ويكون مكانك، ومهما يكن البيت بيت صديقك وكان لك فيه شأن ، فلا تأمر وأنت على الطعام والشراب فى ذلك البيت ، ولا تقل لخدم المضيف : أى فلان ! ضع هذا الطبق فى المكان الفلانى ، واحمل هذه الآنية إلى المكان الفلانى ، يعنى إننى من ذلك البيت ، لا تكن ضيف الفضول ، ولا تتقرب بطعام الناس وآنيتهم ، ولا تعط خادمك طعاما ولا تكن ثملا فاقد الوعى ، وقم بحيث لا يبدو عليك أثر السكر فى الطريق أو يستولى عليك فتتحول عن صورة الآدميين . وأتم السكر بدارك ، وإذا كنت مثلا قد شربت قدحا من النبيذ وارتكب من هم دونك مائة ذنب ، فلا تزجرن أحدا أبدا وإن يكن مستحقا للزجر ، فإن أحدا قط لا يعد ذلك من قبيل التأديب ، ويقولون إنه يعربد . واعمل كل ما تريد عمله قبل شربك

النبيذ ، ليعلم أن ذلك قصد لا عربدة ، لأنهم فى ذلك الوقت يعدون كل شيء عربدة ، كما قالوا (الجنون فنون) أى الجنون أنواع ، والسكر أيضا نوع من الجنون ، وكثرة الكلام فى السكر عربدة ، وكثرة التصفيق والدبيب والتقرب الكثير بلا موجب عربدة ، فى السكر والصحو ، فاحذر من كل ما قلت إنه عربدة أو جنون ولا تصر ثملا فاقد الوعى أمام أى شخص غريب ، اللهم إلا أمام عيالك وغلمانك ، ولا تطلب من المطربين سماع الألحان الخفيفة حتى لا تنسب إلى الرعونة والطيش ، ولو أن أكثر الشبان يطلبون الألحان الخفيفة والحزينة .

الباب الثالث عشر

فى المزاح ولعب النرد والشطرنج

اعلم يا بنى أنهم قالوا فى العربية (المزاح مقدمة الشر) [1] فتجنب المزاح ما استطعت ، ولا سيما المزاح البارد ، وإذا مزحت فلا تمزح فى السكر لأن الشر يحدث على الأكثر فى السكر ، واستح من المزاح القبيح والفحش فى السكر والصحو وخاصة فى لعب النرد والشطرنج ، لأن المرء فى أثناء هذين العملين يكون أكثر ضجرا وأقل احتمالا للمزاح . ولا تتعود كثرة لعب النرد والشطرنج ، وإذا لعبت فالعب بين حين وآخر ، ولا تلعب بالرهان اللهم إلا بطير أو ضيافة ومثل هذا ، وحذار أن تلعب بالذهب والفضة . لأن اللعب بغير دراهم أدب واللعب بالذهب والفضة مقامرة .

ومهما تكن تستطيع اللعب جيدا ، فلا تلعب مع شخص معروف بالمقامرة ، لأنك أيضا تعرف بالمقامرة ، وإذا لعبت مع شخص أكثر منك احتشاما ، فإن الأدب فى النرد والشطرنج كليهما أن لا تبدأ بتناول قطع اللعب مالم يلعب ذلك الشخص أولا . ولا تلعب قط بالرهان مع السكارى والمعربدين والثقلاء حتى لا تقع خصومة ، ولا تلعب بغير رهان أيضا إذا أمكن . ولا تتشاجر مع غريمك على نقش الكعبتين [2] . ولا تحلف أنك ضربت الضربة الفلانية ، لأنك مهما تكن صادقا قد يقول شخص إنه يكذب . واعلم أن أصل جميع الشرور والعربدة من المزاح . واحترز من الممازحة وإن تكن الممازحة ليست بعيب ولا إثم ، إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد مزح ، فقد جاء فى الخبر أن عجوزا كانت فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فسألت الرسول عليه الصلاة والسلام

---

(١) ورد فى الأصل الفارسى بعد هذه العبارة العربية (يعنى مزاح پيش روشراست) ، وهى ترجمة للعبارة العربية إلى الفارسية .

(٢) الزهر .

يوما قائلة : يا رسول الله ! أوجهى وجه أهل الجنة أم أهل النار ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام بطريق المزاح : « لا يدخل الجنة عجوز قط » فاغتمت تلك العجوز وبكت ، فعندئذ قال الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تبكى ؛ فليس فى قولى خلاف وأقول صدقا إنه لا يدخل الجنة عجوز قط ، لأنه فى يوم القيامة يبعث كل الخلق من القبور شبانا . ففرحت تلك العجوز .

ويجوز المزاح ، أما الفحش فلا يجوز ، فإذا قلت وفعلت فلا تقل ولا تفعل مع من هو أقل منك ، حتى لا تجعل هيبتك فى ترس جوابه[1] ، وإذا كان ولا بد فقل ما تقوله لأقرانك ، حتى إذا أجابوك لا يكون عيباً وقبيحاً ، وامزج كل هزل تقوله بالجد ، وتجنب الفحش ، ومهما يكن ، فالمزاح لا يكون بغير هزل ، وهو مهين لجميع الأقدار ، كل ما تقوله تسمعه لا محالة ، وتوقع من الناس عين ما يصل إلى الناس منك ، ولكن لا تخاصم إنساناً قط ، لأن الخصام ليس شأن المحتشمين ، بل هو عمل النساء والأطفال الصغار ، فإذا اتفق لك أن تخاصم أحداً فلا تقل كل ما تعرفه وتستطيع قوله ، وخاصم بحيث يكون هناك مجال للصلح ، ولا تكن عديم الحياء لجوجاً كلية ، واعلم أن عدم الحياء واللجاج من عادات اللئام ، وأن خير العادات التواضع ، لأن التواضع نعمة الله التى لا يحسد عليها أحد ، ولا تقل فى كل كلمة « يا رجل » فإن قولك « يارجل » هذه بغير حجة تسقط المرء من المروءه .

أما المزاح والشراب فهما عمل الشبان ، فإذا راعيت الحد والمقدار ، فإنه يمكن فعلهما على خير وجه ، وكذلك يمكن الاحتراز ، وإذا أعملت العقل فى شرب السيكى والممازحة ، تنسد عليك هـذه كلها ، وما دمت قد قلت شيئاً فى هذا المعنى ، فإنى أقول الآن شيئاً مما أعرفه فى باب العشق لأن محاكمة القلب شاقة .

---

(١) أى حتى لا يرد عليك رداً يذهب بهيبتك .

الباب الرابع عشر

فى العشق

اعلم يابنى أن الإنسان مالم يكن لطيف الطبع لا يعشق، لأن العشق ينشأ من لطافة الطبع ، وكل ماينشأ من لطافة الطبع فهو لطيف ، ولما كان لطيفا فإنه يتعلق بالطبع اللطيف ، ألا ترى أن الشبان أكثر عشقا من الشيوخ ، لأن طبع الشبان ألطف من طبع الشيوخ ؟ وكذلك لا يكون غليظ الطبع ثقيل الروح عاشقا قط ، لأن هذه علة تصيب خفاف الروح على الأكثر ، ولكن اجتهد أن لا تعشق وتجنب العشق ، لأن أمر العشق أمر ذو بلاء ، وخاصة إبان الإفلاس ، إذ كل عاشق مفلس لا يبلغ المراد ، وخاصة إذا كان شيخا ، لأن الغرض لا يتحقق بغير المال ، فيكون قد سعى فى سفح دمه ، كما قلت فى هذا المعنى :

نظم

كنت مفلسا فحل بى الألم لذلك ، وبقيت محروما من وجهك لإفلاسى ولى مثل يليق بحالى ، المفلس يأتى من السوق صفر اليدين .

* * *

فإذا اتفق أن طاب لك الوقت يوما مع شخص ، فلا تكن أسير القلب ولا تشغل قلبك بالعشق باستمرار ، ولا تكن دائما متابعا للشهوة ، فإن هذا ليس شأن العقلاء ، لأن الرجل العاشق إما أن يكون فى الوصال أو الفراق ، وسنة من راحة الوصل لا تساوى يوما من ألم الفراق ، إذ أن رأس مال

العشق العناء وألم القلب والمحنة ، ومهما يكن ألما لذيذا فإنك إذا كنت فى الفراق تكون فى العذاب ، وإذا كنت فى الوصال وعرف المعشوق ما فى قلبك ، فإنك لا تعرف لذة الوصال عندما ترى دلاله ووقاحته وسوء طبعه ، وإذا كان ثمت وصال يعقبه فراق ؛ فذاك الوصال أسوأ من الفراق .
وإذا كانت معشوقتك ملاكا فى المثل ، فإنك لا تخلو فى أى وقت من ملامة الخلق ، لأن عادة الناس قد جرت هكذا ، فاحفظ نفسك ما استطعت وجانب العشق ، إذ لا يستطيع الاحتراز من العشق سوى العقلاء . لأنه لا يمكن أن يصير شخص عاشقا بنظرة واحدة فالعين ترى أولا ثم القلب ، فإذا أعجب القلب ، مال إليه الطبع وعندئذ يطلب اللقاء . وإذا جعلت شهوتك طوع قلبك وصيرت قلبك متابعا للشهوة فإنك تدبر ثانيا أن تراه[1] مرة أخرى ، وإذا حصل اللقاء مرة ثانية يزداد ميل الطبع إليه ، ويصير هوى القلب أكثر تغلبا فتقصد اللقاء مرة ثالثة ، وتدخل فى الحديث ، وإذا تكلمت وسمعت جوابا ، يصير كل عقلك وفطنتك فى قيده ، مثل العجلة والرسن ، وتتخلف عن كل الأمور ، فإذا أردت أن تحفظ نفسك من بعد ذلك لا تستطيع ، لأن الأمر يكون قد خرج من يدك ، ويزداد العشق كل يوم ، فيتحتم بعد ذلك ضرورة أن تكون متابعا للقلب ، ولكن إذا حفظت نفسك فى اللقاء الأول فإنه عندما يطلب القلب، توكل به العقل حتى لا يكثر من ذكر اسمه ، وتشغل قلبك بشيء ، وتستفرغ شهوتك فى مكان آخر وتغض الطرف عن رؤيته ، فيكون كل ألم القلب أسبوعا ، ولا يذكر بعد ذلك ويمكنك تخليص نفسك من البلاء سريعا ، ولكن عملا مثل هذا لا يتأتى من كل أحد ، إذ يلزم رجل عاقل كامل العقل حتى يستطيع مداواة هذه العلة ، لأن العشق علة ، كما أن محمد بن زكريا الرازى قد أورد فى تقاسيم العلل سبب علة العشق وذكر علاجها ، مثل الصوم على الدوام ، وحمل الحمل الثقيل ، والسفر الطويل ، وما أشبه ذلك .
أما إذا أحببت شخصا ترضى برؤيته وخدمته ، فجائز عندى ، كما قال أبو سعيد

---

(١) أى المعشوق .

ابن أبى الخير : لا مفر للآدمى من أربعة أشياء : الأول خبز والثانى خرقة والثالث خربة [1] والرابع جبيب ، لكل شخص بحده ومقداره من وجه الحلال ، ولكن المحبة شىء والعشق شىء آخر ، وفى العشق لا يطيب الوقت لأى إنسان ، ويقول ذلك الرجل العاشق بيتا مترجما عن نفسه .

بيـــت

نار عشقك هذه لذيذة أيها الحبيب ، أرأيت قط نارا محرقة ولذيذة ؟

* * *

واعلم بأن الرجل يكون فى المحبة مبتهج القلب دائما ، ويكون فى العشق فى محنة على الدوام ، ثم إنك إذا عشقت فى الشباب فثمت عذر على أى حال ويعذرك الناس أيضا ويقولون إنه شاب ، فاجتهد أن لا تكون عاشقا فى الشيخوخة فليس للشيوخ عذر قط ، وإذا كنت من عامة الناس فإن الأمر يكون أهون ، فإذا كنت ملكا وشيخا فحذار أن تفكر فى هذا المعنى ، ولا تعلق قلبك بأحد فى الظاهر ، فإن العشق للملك الشيخ أمر شاق .

حكايـــة

فى أيام جدى شمس المعالى كانوا يتناقلون أن ببخارى تاجرا له غلام ثمنه ألفا دينار ، فحكى أحمد بن سعد هذه الحكاية عند الأمير قائلا : ينبغى لنا إرسال شخص يشترى ذلك الغلام ، فقال الأمير ينبغى أن تذهب أنت . فجاء أحمد بن سعد إلى بخارى وقابل النخاس وأحضروا الغلام واشتراه بألف ومائتى دينار وأتى به إلى جرجان ، فرآه الأمير وأعجب به ، وعهد إلى الغلام بالدستاريه [2] فعندما كان يغسل يديه ، كان يقدم له منشفة ليجفف يده

---

(١) أى بيت متواضع يأوى إليه .

(٢) تعريب (دستار دارى) أى وظيفة حمل المناشف والمناديل فى خدمة الأمراء والملوك .

وانقضت مدة، وذات يوم غسل الأمير يديه فقدم له الغلام منشفة، فجفف الأمير يده وهو يتأمل الغلام، فأعجبته رؤيته، ورد إليه المنشفة، ومر على هذا برهة، فقال لأبى العباس العالم قد أعتقت هذا الغلام، ووهبت له القرية الفلانية، لتعلم ذلك، فاكتب منشوره واخطب له ابنة أحد الرؤساء بالمدينة، ومره بأن يقيم فى البيت حتى ينبت شعر وجهه وعندئذ يأتى إلى.

وكان أبو العباس العالم وزيرا فقال: الأمر للملك، ولكن إذا اقتضى رأى الملك فليقل لعبده ما المقصود من هذا؟ فقال الأمير: اليوم جرى كذا وكذا وقبيح جدا أن يعشق الملك بعد سن السبعين، ويجب على بعد السبعين أن أكون مشغولا برعاية عباد الله وبصلاح رعيتى وجندى ومملكتى فإذا انشغلت بالعشق لا أكون معذورا عند الله ولا عند الخلق.

أما الشاب فيكون معذورا مهما فعل، ولكن يجب أن لا يظهر العشق دفعة، ومهما تكن شابا فالزم طريق الحكمة والحشمة والسياسة حتى لا يتطرق الخلل إلى عملك، فقد سمعت هكذا من عظيم أنه:

حكاية

كان للسلطان مسعود عشرة غلمان كانوا حفظة ثيابه الخواص، وكان منهم واحد يقال له نوشتكين، وكان مسعود يحبه، وانقضت بضع سنوات ولم يعرف أحد قط من يحبه السلطان، لأن كل الأعطية التى كان يعطيها لهم كانت سواء، حتى انقضى على هذا خمس سنوات، وذات يوم قال فى سكره: كل ما أمر به أبى لإياز اكتبوه لنوشتكين! فعندئذ صار معلوما أن مقصوده كان نوشتكين.

والآن يا بنى، مع أنى قصصت عليك هذه القصة، أعلم أنك لا تعمل بقولى إذا اتفقت لك، إذ أننى كذلك أقول بلسان الحال[1].

---

(١) الترجمة الحرفية « من قبيل حسب الحال ».

رباعی

كل آدمى حى ناطق يجب أن يكون مثل عذرا ومثل وامق [1]
وكل من ليس كذلك فهو منافق ، وليس بآدمى من يكن غير عاشق

* * *

ورغم أنى قلت هذا فلا تعمل ببيتى هذين ، واجتهد أن لا تكون عاشقاً ، فإذا أحببت إنساناً فاحبب شخصاً يستأهل الحب ، ولو أن المعشوق لا يكون كلية بطليموس وأفلاطون ، ولكن يجب أن يكون على شيء من الحكمة ، وأعرف كذلك أنه لا يكون يوسف بن يعقوب ، ولكن يجب أيضاً أن تكون فيه ملاحة لتنعقل ألسنة بعض الناس ويقبلوا عذرك ، فإن الخلق لا يفرغون من أن يعيبوا ويتلمسوا عيوب الناس ، كما قيل لشخص : أفيك عيب ؟ قال لا ! قالوا ألك عائب ؟ قال كثيرون ، فقالوا اعلم أنك أكثر الخلق عيباً ، وإذا ذهبت ضيفاً فلا تصحب المعشوق معك ، وإذا صحبته فلا تنشغل به أمام الغرباء ولا تشغل القلب به ، فإن أحداً لا يستطيع أن يأكله ، ولا تظن أنه يبدو فى عين كل إنسان مثلما يبدو فى عينك ، كما قال الشاعر :

بيت

الويل لى إذا كنت فى عين الخلائق ، تبدو بهذا الشكل الذى تبدو به فى عينى أنا المسكين .

* * *

وكما يبدو لعينك أحسن من كل الخلائق ، فقد يبدو لأعين الآخرين أقبح ، ولا تعطه الفاكهة أيضاً فى كل آونة ، ولا تتفقده ولا تناده فى كل ساعة ولا تسر إليه فى أذنه ، فإنى أكرر القول فى نفعك وضرك ، وينبغى أن تجتهد حتى لا يأخذ الناس عليك عيباً .

---

(١) إشارة إلى عذرا ووامق بطلى قصة غرامية مشهورة فى الأدب الفارسى .

الباب الخامس عشر

فى الاستمتاع

اعلم يابنى أنه إذا أحببت أحداً فلا تنشغل دائماً بمجامعته فى السكر والصحو ، لأنه معلوم أن تلك النطفة التى تنفصل عنك بذرة روح وشخص ، فإذا فعلت فلا تفعل فى السكر لأنه فى السكر أشد إضراراً ، ولكنه فى وقت الخمار يكون أصوب وأحسن ، ولا تكن مشغولا به فى كل وقت تتذكره ، فإن ذلك فعل البهائم التى لا تعرف وقت كل عمل فتعمل وقتما تجد ، ولكن ينبغى أن يكون للإنسان وقت معلوم حتى يكون فرق بينه وبين البهائم ، وأما عن النساء والغلمان ، فلا تجعل ميلك لجنس واحد ، لتكون ذا حظ من كلا الجنسين ، ولا يكون واحد منهما عدواً لك ، وكما قلت إن المجامعة الكثيرة تضر ، فعدم الجماع أيضاً يضر ، فكل ما تعمله ينبغى أن تعمله باشتهاء ، ولا تعمله بتكلف ليكون أقل ضرراً ، ولكن تجنب الاشتهاء وعدم الاشتهاء فى الحر الحار والبرد القار ، فإن المجامعة أشد ضرراً فى هذين الفصلين ، وخاصة للشيوخ . وفصل الربيع أوفق الأوقات ، لأن الهواء يكون معتدلا ، وتفيض عيون الماء ، وتتجه الدنيا إلى البهجة والسرور ، فكما يصير العالم الكبير شاباً ، وتصير كذلك قوة أجسامنا التى هى العالم الصغير ، فإن الطبائع المختلفة فى الجسد تعتدل ، ويزداد الدم فى العروق ويكثر المنى فى الأصلاب ، فيصير الرجل بغير قصد محتاجاً المعاشرة والتمتع ، فعندما يكون اشتهاء الطبيعة صادقاً ، يكون عندئذ أقل ضرراً ، وكذلك الفصد ، فلا تفصد ما استطعت فى الحر الحار والبرد القار ، وإذا رأيت الدم زائداً فسكنه بالأشربة الباردة . ومل فى الصيف إلى الغلمان ، وفى الشتاء إلى النسوان ، وينبغى فى هذا الباب اختصار الكلام فإنه يثقل .

الباب السادس عشر

فى أدب الذهاب إلى الحمام

اعلم يابنى أنه إذا ذهبت إلى الحمـــام فلا تذهب على شبع ، فإنه يضر ، ولا تنشغل فى الحمام أيضاً بالجماع ، وخاصة فى الحمام الساخن ، ويقول محمد بن زكرياء الرازى : إنى لأعجب من شخص شبعان يجامع فى الحمام ولا يموت فجأة . ولـكن الحمام شيء حسن جداً ، ومذ أقام الحكماء الأبنية لم يعملوا شيئاً أفضل من الحمام ، ولكنه مع كل حسنه ، فإن الذهاب إليه يومياً لا يفيد بل يضر ، لأنه يلين الأعصـاب والمفاصل ويذهب بصلابتها ، وتعتاد الطبيعة الذهاب كل يوم إلى الحمام ، وإذا لم تذهب يوماً تكون ذلك اليوم كالمريض ، ولا تـكون أعضاؤك قوية ؛ فعليه ينبغى أن تذهب كل يومين ، وتوقف أولا فى القسم البارد زمناً بقدر ماينال منه الطبع حظاً ، ثم امض إلى القسم الأوسط واجلس هناك زمناً لتنال قسطاً من ذلك القسم أيضاً ، ثم اذهب إلى القسم الساخن وامكث ساعة لتحظى بالقسم الساخن كذلك ، فإذا أثرت فيك حرارة الحمام ، فاذهب إلى الخلوة واغسل رأسك هنالك ، ويجب أن لا تقيم كثيراً بالحمام ولا تصب على نفسك المـاء الشديد الحرارة أو الشديد البرودة ، بل ينبغى أن يكون معتدلا ، وإذا كان الحمام خالياً فعد ذلك غنيمة كبرى ، لأن الحكماء يعدون الحمام الخالى غنيمة من جملة الغنائم ، وإذا خرجت من الحمام فتعال على نفس الترتيب الذى كنت عليه فى الذهاب ، ويجب تجفيف الشعر جيداً ، ثم الخروج فإنه عمل العقلاء ومن شـأن المحتشمين ، وكذلك لا يليق الخروج من الحمام بالشعر المبلل والذهاب إلى الأكابر لأنه من سوء الأدب . ونفع وضرر الحمام هو ما قلته ، ولـكن تجنب شرب الماء والفقاع فى الحمام لأن فيه ضرراً بالغاً ويؤدى إلى الاستسقاء ، إلا أن تـكون مخموراً ؛ فيجوز عندئذ أن تشرب قليلا تسكيناً للخمار ليقل الضرر .

الباب السابع عشر

فى النوم والراحة

اعلم يابنى أن رسم حكماء الروم هو أنهم إذا خرجوا من الحمام يناموں زمنا فى مسلخ الحمام ، ثم يخرجون ، وليس لأى قوم آخرين مثل هذا الرسم ، ولكن الحكماء يسمون النوم الموت الأصغر ، لأن النائم والميت على السواء لا خبر لكليهما بالعالم ، وليس الأمر أكثر من أن أحدهما ميت بلا نفس والآخر ميت له نفس ، والنوم الكثير عادة غير ممدوحة ، تخمل البدن ، وتذهل الطبع ، وتحول صورة الوجه من حال إلى حال ، وهناك ستة أشياء إذا أصابت الناس حولت فى التو صورة الوجه وغيرته ، أحدها السرور الفجائى ، وثانيها الغم المفاجىء ، وثالثها الغضب ، ورابعها النوم ، وخامسها السكر ، وسادسها الشيخوخة ، فإذا شاخ الناس تحولوا عن صورتهم ، وذلك نفسه نوع آخر ، أما النائمون فليسوا فى حكم الأحياء ولا فى حكم الأموات ، فكما أنه لا يكون على الميت حساب فكذلك لا يكون على النائم أيضا وقد قيل :

رباعى

مهما حنيت ظهرى بالجفاء فإنى لا أقلل حبك فى قلبى .

لا أنقطع عنك أيها المعشوق المشهور ، لأنك نائم ولا يجرى على النائم قلم[1]

* * *

---

(١) أى لا حساب على النائم .

وكما أن النوم الكثير ضار ، فإن عدم النوم يضر أيضا ، إذ أن الآدمى إذا لم يترك لينام اثنتين وسبعين ساعة عمدا وأجبر على السهر ، فإنه يخشى عليه من الموت المفاجىء ، ولكن لكل أمر حدا ، وهكذا قال الحكماء : إن اليوم أربع وعشرون ساعة ، تصحو شطريه وتنام شطرا ، يجب الاشتغال ثمانى ساعات بطاعة الله تعالى وتدبير شأنك ، وثمانى ساعات بالاستمتاع والمؤانسة وإنعاش الروح ، وثمانى ساعات بالراحة حتى تستريح الأعضاء التى تعبت ست عشرة ساعة . وينام الجهلاء من هذه الأربع وعشرين ساعة نصفا ويستيقظون نصفا ، وينام العقلاء شطرا ويستيقظون شطرين على الوجه الذى ذكرناه . ينبغى أن يكون الإنسان كل ثمانى ساعات بلون آخر ، واعلم أن الحق تعالى قد خلق الليل من أجل راحة العباد كما قال فى كلامه (وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا) واعلم حقا أن الحياة كلها بالروح ، والجسد هو المكان ، والروح هى المتمكنة ، وللروح ثلاث خاصيات ، كالحياة والخفة والحركة ، وللجسد ثلاث خاصيات ، هى الموت والسكون والثقل ، وما دام الجسد والروح فى حين واحد ، فإن الروح تحفظه بخاصيتها وتحمله على العمل حينا وترده بخاصيتها عن الأعمال حينا آخر ، وتجره إلى الغفلة ، وعندما يظهر الجسد خاصيته يستغرق الموت والثقل والسكون فى ثبات ويكون ذلك بمثابة انهيار[1] بيت يسقط ، فإذا سقط البيت ، أطبق على كل من يكون فيه ، فعندما يستغرق الجسد فى ثباته ، يطبق على كل حواس[2] الإنسان بحيث لا يسمع السمع ، ولا يبصر البصر ، ولا يتذوق الذوق ، ولا يدرك اللمس الثقل والخفة والنعومة والخشونة ، ولا تتكلم الناطقة فيستولى على كل ما يكون نائما فى مكانه ، ويكون الحفظ والفكرة خارج مكانهما ، فلا يستطيع الاستيلاء عليهما ، ألا ترى أنه عندما ينام الجسد ، ترى الفكرة الرؤى المنوعة وتذكرها الحافظة حتى إذا ما استيقظ يقول رأيت كذا وكذا ؟ ولو كان هذان

---

(١) الترجمة الحرفية — نوم .
(٢) « « — أرواح .

أيضا فى مكانهما ، لكان قد استولى عليهما ، فلم تكن الفكرة تستطيع الرؤية ولا كانت الحافظة تستطيع الحفظ ، ولو كان النطق أيضا فى مكانه ، لما كان الجسد يستطيع المضى فى النوم ، ولو مضى فى النوم وتكلم ، لما كان النوم نفسه ، ولما كانت الراحة والاستجمام ، لأن كل راحة الأحياء فى النوم ، فالحق تعالى لم يخلق أى شىء بغير حكمة ، ولكن تكلف أن تبعد عن نفسك نوم النهار ، وإذا لم تستطع ، فليكن نومك قليلا ، لأنه ليس من الحكمة تحويل النهار إلى ليل . ولكن رسم المحتشمين والمنعمين هو أن يستريحوا فى الصيف ظهرا وقت القيلولة . أما طريق التنعم فهو أن يستريحوا ساعة حسب العادة ، ويخلوا بشخص يطيب وقتهم معه إلى أن تنحدر الشمس وينكسر الحر ، وعندئذ يخرجون ، وفى الجملة يجب أن تجتهد فى قضاء أكثر العمر يقظا ، لأن أمامك نوم طويل ، ولكن إذا أردت النوم ليلا أو نهارا ، فينبغى أن لا تنام وحدك ، بل يجب النوم مع شخص ينعش روحك ، لأن النائم والميت كليهما فى القياس سواء ، ليس لهما خبر عن العالم ، بيد أن أحدهما نائم حيا ، والآخر نائم ميتا ، فالآن يجب أن يكون فرق بين هذين النائمين ، إذ يتحتم على ذاك أن يكون وحيدا بعذر العجز ، وهذا النائم الذى لا اضطرار له ، لم ينام مثل ذلك العاجز المضطر ؟ فيجب أن يكون مؤنس فراش هذا الحى منعشا للروح ، حيث لا مؤنس فى ذلك الفراش ، ليتميز نوم الأحياء من نوم الأموات ، ولكن يجب التعود على الاستيقاظ مبكرا بحيث تنهض قبل شروق الشمس ، حتى تكون قد أديت فريضة الحق تعالى قبل الشروق ، وكل من ينهض وقت طلوع الشمس يصير ضيق الرزق ، لأن وقت الصلاة يكون قد فاته ، فيدركه شؤم ذلك ، فانهض فى البكور وأد فريضة الله ، ثم ابدأ فى أشغالك ، وإن لم يكن لك شغل فى الصباح وأردت أن تذهب للتنزه فيجوز أن تشتغل بالصيد واللهو .

الباب الثامن عشر

فى الصيد والطرد

اعلم يابنى أن ركوب الخيل والطرد عمل المحتشمين ، وخاصة فى الشباب ، ولكن ينبغى أن يكون لكل أمر حد ومقدار ، ولا يمكن الصيد كل يوم ؛ والأسبوع سبعة أيام ، فاخرج يومين للصيد ، واشتغل ثلاثة أيام بالطاعة ، ويومين بتدبير شأنك ، أما إذاركبت فلاتركب الجواد الضئيل لأن الرجل وإن كان منظرانيا فإنه يبدوحقيرافوق الجوادالصغير، وإذا كان «هنالك»[1] رجل حقير وركب جوادا فارها بدا عظيما . ولا تركب الجواد الذلول إلا فى السفر ، لأنه إذا كان الجواد ذلولا حط الرجل بنفسه عليه ، وامتط الجواد السريع الوثاب فى المدينة والحى ، كيلا تغفل عن نفسك لسرعة الجواد ، واجلس منتصبا دائما حتى لا تبدو قبيح الركاب ، ولا تركض الجواد فى الصيد عبثا ، فإن إركاض الجواد عبثا عمل الصبيان والغلمان ، ولا تطارد السباع المفترسة ، إذ لا فائدة قط فى صيدها ، ولا يتأتى منه أبدا سوى الخطر على النفس ، كما قد هلك ملكان عظيمان من أرومتنا فى صيد السباع ، أحدهما جد أبى الأمير وشمكير ، والآخر ابن عمى الأمير شرف المعالى ، فدع أتباعك ليطاردوها اللهم إلا أمام الملوك العظام فهنالك يجوز لطلب الشهرة والظهور ، فإذا كنت تحب الصيد فاشتغل بالصيد بالباز والصقر والشاهين والفهد والكلب ، حتى تكون قد اصطدت ولا تكون أيضا مخاطرة ، ويفيدك ما تصطاده ، لا كلحم السباع ، فهى لا تصلح للأكل ولا يصلح جلدها للارتداء ، فإذا اصطدت بالباز فإن الملوك يقومون به على وجهين ، فملوك خراسان لا يطيرون الباز بأيديهم ، ورسم ملوك العراق أن يطيروه بأيديهم ، وكلا الوجهين يجوز ، وإذا لم تكن ملكا فاعمل كما تشاء ،

(١) ليست فى الأصل

وإذا كنت ملكا وأردت أن تطيره بنفسك فجائز ولكن لا تطير أى باز أكثر من مرة . فإنه لا يجوز للملوك أن يطيروا بازيا مرتين ، فطيره مرة ، وانظر ، فإذا قنص صيدا فحسنا ، وإلا فخذ بازيا آخر وطيره .

مطلب

ويجب أن يكون مقصود الملك من الصيد النزهة لا الطعمة ، وإذا كان الملك يتصيد بالكلب فلا يليق به أن يمسك الكلب بل يجب أن يطلقه العبيد أمامه وهو يشاهد ، ولا تركض الجواد خلف الصيد ، وإذا كنت تصطاد بالفهد فلا تجعل الفهد على الجواد وراء ظهرك ، لأنه قبيح بالملك أن يحرس الفهد كما لا يشترط أن يحمل السبع وراء الظهر — وخاصة للملوك — وهذا هو شرط تمام الصيد .

الباب التاسع عشر

فى لعب الصولجان[1]

اعلم يابنى أنك إذا كنت تنشط للعب الصولجان فلا تجعله عادة دائمة ، فقد حل البلاء بأشخاص كثيرين من لعب الصولجان ..

حكاية

هكذا يحكى أن عمراً بن الليث كان أعور ، ولما صار أمير خراسان ذهب يوماً إلى الميدان ليضرب الكرة ، وكان له اسفهسالار[2] يقال له «أزهر خر»[3] ويقال إن هذا قد جاء وأمسك بعنانه وقال : لا أدعك تضرب الكرة وتلعب الصولجان ، فقال له عمرو بن الليث : كيف تضربون أنتم الكرة ولا تجيزون أن ألعب أنا الصولجان ؟ قال : لأن لنا عينين ، فإذا أصابت الكرة أعيننا[4] عمينا بعين واحدة وتبقى عين نرى بها الدنيا ، ولك عين واحدة ، فإذا اتفق أن وقعت الكرة فجأة على عينك ، وجب توديع إمارة خراسان ، فقال عمرو بن الليث : — مع كل الحمارية[5] التى فيك فقد أصبت ، وقبلت أن لا أضرب الكرة مابقيت .

---

(١) الترجمة الحرفية — ضرب الصولجان .

(٢) قائد الجيش .

(٣) أى أزهر الحمار .

(٤) الترجمة الحرفية : وقعت الكرة فى عيننا .

(٥) يلاحظ أن ترجمة اسم القائد (أزهر الحمار) .

أما إذا نشطت إلى الصولجان مرة أو مرتين فى السنة ، فأجز ذلك ، ولكن لا ينبغى كثرة الركوب فإنه مخاطرة،ويجب جملة أن لا يزيد جمع الفرسان عن ثمانية أشخاص ، فيجوز أن تقف أنت على رأس الميدان ، ويقف آخر فى آخر الميدان ، وستة أشخاص فى الوسط يضربون الكرة ، وعندما تأتى الكرة نحوك تعيدها أنت ، واحمل الجواد على التقريب[٦] ، ولا تكن فى الكر والفر ، لتأمن الصدمة ، ويحصل مقصودك من التنزه أيضاً ، وهذا هو طريق لعب الصولجان للمحتشمين .

---

(٦) نوع من العدو.

الباب العشرون

فى قتال الأعـــداء

حينما تكون فى ميدان القتال لا يجوز التراخى والتريث هنالك ، بل يجب قبل أن يتعشى بك العدو أن تكون أنت قد تغديت به ، وإذا وقعت فى وسط المعركة فلا تقصر قط ، ولا ترحم نفسك ، فإن من قدر له أن ينام فى القبر لا ينام فى البيت بأية حال ، كما قلت أناد وبيتاً [1] فى هذا المعنى :

رباعى

إذا صار الأسد عدوا ، سواء أكان ظاهرا أم خفيا ،
فإنى سأخاطب الأسد بالسيف .
فمن قدر له أن ينام فى القبر بغير زوج ،
لا يستطيع أن ينام فى بيته مع الزوج.

* * *

ولا تتراجع خطوة فى المعركة ما دمت تستطيع أن تتقدم خطوة ، وإذا ابتليت فى وسط الأعداء فلا تتقاعس عن الحرب ، لأنه بالحرب يمكن القبض على الأعداء ، وما داموا يرون دلائل التوفيق معك فإنهم يهابونك أيضا ،

---

(١)الدو بيت اصطلاح يطلق على نوع من الشعر يعرف بالرباعى .

واجعل المـوت شهيا إلى القلب فى ذلك المـكان ، ولا تخش البتة ، وكن مقداما ، فإن السيف القصير يصير بيد الشجعان طويلا . ولا تقصر فى المجاهدة بأى حال ، لأنه إذا ظهر منك خوف وضعف ، وكان لك ألف روح ، فإنك لا تستطيـع النجاة بواحدة منها ، ويتغلب عليك أقل شخص ، وعندئذ إما أن تقتل ، وإما أن تسوء سمعتك ، وإذا عرفت بين الرجال بالجـبن وتراخيت وتهاونت فى مثل ذلك الموقف وتخلفت عن قرينك ، تخجل بين إخـوانك ورفاقك ، ولا يبقى لك اسم ودلال ، وتبقى خجلا بين الأقران والخلان ، ويكون الموت خيرا من تلك الحيـاة ، والموت بالسمعة الطيبة أولى من حيـاة شائنة كتلك ، ولـكن لا تـكن جريئاً على الدم الحرام ، ولا تستحل دم أى مسلم ، إلا دماء الصعاليك ، واللصوص ، والنباشين ، ودم شخص يكون سفك دمه واجباً فى الشريعـة ، لأن بلاء الدارين منوط بالدم الحرام ، فتلقى أولا جزاء ذلك يوم القيامة ، وتصير فى الدنيا سيء السمعة ، ولا يأمنك أى شخص دونك ، وينقطع منك أمل خدمك ، وينفر منك الخلق ، ويضمرون لك العداء ، ولا تـكون كل العقوبة على الدم الحرام فى الآخرة ، فقد قرأت فى الـكتب وصار معلوما بالتجربة أن جزاء السوء يصـل إلى المرء فى الدنيا أيضا ، فإذا كان قد اتفق لهذا الشخص طالع حسن ، فلا بد وأن يصل لأولاده ، فارحم نفسك وأبناءك ، ولا ترق الدم الحرام ، ولـكن لا تقصر فى دم الحق المنوط به الصلاح ، لأن الفساد يتولد من التقصير .

حـكاية

كما يحكى عن جدى شمس المعالى ، أنه كان رجلا مسرفا فى القتل ، ولم يكن يطيق العفو عن جرم أى أحد ، لأنه كان رجلا شريرا ، وحقد عليه الجند لشره ، واتحدوا مع عمى فلك المعالى ، فجـاء وقبض على أبيـــه شمس المعالى اضطرارا ، لأن الجند قالوا له : إذا لم تتحد معنا فى هذا الأمر ، فإننا نسلم هذا الملك لغريب ، فلما علـم أن الملك سيخرج من أسرتهم قام بهـذا العمل

ضرورة من أجل الملك ، والمقصود أنه لما قام بهذا الأمر ، وقبضوا عليه وقيدوه ، ووضعوه فى مهد ، ووكلوا به الموكلين ، وبعثوا به إلى قلعة چناشك ، كان من جملة الموكلين به رجل يقال له عبد الله الجازى ، وبينما كانوا يسيرون فى ذلك الطريق ، قال شمس المعالى لهذا الرجل : يا عبدالله ! ألا تعرف من عمل هذا العمل ، وكيف كان هذا التدبير ، فجرى أمر بهذه الخطورة ، ولم أستطع أن أعرف ؟ فقال عبد الله : قام بهذا العمل فلان وفلان — وذكر أسماء خمسة قواد قاموا بهذا العمل وخدعوا الجند — وكنت أنا نفسى عبدالله فى هذا الشأن ، وحلفت الجميع ، وقد بلغت أنا بهذا الأمر إلى هذه الغاية ، ولكن لا تر هذا الأمر منى ، بل ره من نفسك ، فقد وقع لك هذا الأمر من القتل الكثير ، لا من انقلاب العسكر ، فقال شمس المعالى : لقد أخطأت ! فقد وقع لى هذا الأمر من عدم قتل الناس ، فلو سار هذا الأمر على مقتضى العقل لكان ينبغى قتلك مع هؤلاء الخمسة ، ولو كنت فعلت هذا لصار أمرى إلى الصلاح ، وكنت فى السلامة .

وذكرت هذا لكيلا تقصر فى العدل والسياسة ، ولا تستسهل مالا مفر منه . ولا تتعود الجبن كذلك ، فإن هذا مساو للقتل ، لأنك تنقص من العالم نسل مسلم من أجل شهوتك ، ولا يكون جور أكبر من هذا ، وإذا لزمك مجبوب فاحصل على مجبوب أصلا ، ليكون نفعه لك ووزره فى عنق شخص آخر ، وتكون قد كففت نفسك عن هذا الذنب .

أما فى حديث القتال ، فكن كما أمرت ، ولا ترحم نفسك ، إذ كيف تجعل اسمك اسم الأسود مالم تجعل جسمك طعمة للكلاب ؟ فجد حتى يتأتى لك الصيت والعيش ، فإذا حصلت عليهما فاجتهد أن تجمع المال ، وإذا جمعته فاحفظه وانفقه بمقدار .

فى جمع المـال

أى بنى ! لا تغفل عن جمع المـال ، ولـكن لا تلق بنفسك فى الخطر من أجله ، واجتهد فى أن يكون كل ما تحصله من خير وجه ليـكون هنيئا لك ، وإذا حصلت عليه فاحفظه ، ولا تدعه من يدك بكل باطل ، فإن حفظه أصعب من جمعه ، وحينما تضطر للإنفاق فاجتهد حتى تضع عوضه سريعاً فى مكانه ، لأنك إذا أخذت ولم تضع فى مكانه العوض ثانيا ، فإنه ينفد وإن يكن كنز قارون ، وكذلك لا تعلق به قلبك بحيث تعده أبديا ، حتى لا تبتئس وتغتم إذا ما نفد وقتاما ، وإذا كان المـال كثيرا فانفق منه بقدر ومقدار ، لأن القليل بالتدبير خير من الـكثير بغير توفير ، وإذا تبقى بعدك مال كثير ، فإنه أحب إلى من أن تـكون محتاجا ، فقد قيل : بقاء المال للأعداء خير من الاحتياج إلى الأصدقاء ، وصعوبة حفظه خير من صعوبة طلبه . ومهما يكن المال زهيدا فاعلم أن المحافظة عليه واجبة ، لأن كل من يحافظ على القليل يستطيع المحافظة على الـكثير أيضا ، واعلم أن عمل المرء لنفسه خير من عمل الناس له ، وأنف من الـكسل فإن الـكسل تلميذ التعاسة ، وكن حمولا للتعب ، لأن المال يتجمع بالتعب ، وكما يزداد بالتعب يذهب من اليد بالـكسل ، فقد قال الحـكماء : كن ساعياً لتـكون عامرا ، وكن راضيا لتـكون غنيا ، وكن متواضعاً لتـكون كثير الأصدقاء ، فـكل ما يحصل عليه بالتعب والجهد ، لا يـكون التفريط فيه بالـكسل والغفلة من عمل العقلاء ، لأنك تندم فى وقت الحاجة دون جدوى ، ولـكن بمـا أنك تتعب نفسك فاجتهـد أن تأكله بنفسك أيضا ،

ومهما يكن المال عزيزا فلا تضن به على المستحقين ، لأن الإنسان ـ على كل حال ـ لا يحمل المال إلى القبر ، ولكن يجب أن يكون الإنفاق على قدر الدخل ، حتى لا تصير محتاجاً ، لأن الاحتياج لا يكون فى بيوت الفقراء فحسب ، بل يكون فى كل البيوت ، فإذا كان الدخل درهما مثلا ، وأنفقت درهما وحبة تظل محتاجا دائما ، فينبغى إذا كان الدخل درهما أن تنفق درهما إلا حبة ، حتى لا يكون فى البيت عوز أبدا ، واقنع بما عندك فإن القناعة هى الغنى الثانى ؛ والرزق المقسوم لك يصل إليك ، وكل عمل يتم بكلام الناس وشفاعتهم لا تبذل فيه المال ، حتى لا يضيع درهمك عبثا ، لأنه لا قدر لعمل الرجل المعدم ، واعلم أن العامة جميعا يحبون الأغنياء لغير نفع ويعادون جميع الفقراء لغير ضر لأن الفاقة أسوأ حالات المرء ، وكل خصلة تكون مدحا للأغنياء ، تكون بعينها ذما للفقراء ، واعلم أن زينة المرء فى بذله المال ، واعرف قدر كل امرىء بمقدار تجمله ، ولكن اعلم أن الإسراف عدو الله ، وكل ما يعاديه الله فهو شؤم على العباد ، كما قال الله تعالى فى كلامه المجيد (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) فالشيء الذى لا يحبه الله تعالى لا تحببه أيضا ، ولكل آفة سبب ، واعرف أن الإسراف سبب للفقر ، وليس الإسراف كله فى الإنفاق ، بل لا ينبغى الإسراف فى الأكل والقول والعمل وفى كل شغل يكون ، لأن الإسراف يوهن البدن وينهك النفس ويميت العقل الحى ، ألا ترى أن حياة السراج من الزيت ، فإذا جعلته فى السراج بغير حد ومقدار بحيث يسرى من طرف المسرجة إلى رأس الفتيلة فإنه يميت [1] السراج فى الحال ويكون نفس ذلك الزيت سبب الموت ، ولو كان باعتدال لكان سبب حياته ، فلما أسرف صار سبب مماته ؟ ، فصار معلوما أن السراج يحيا بالزيت وحينما يجاوز الاعتدال ويبدو الإسراف ، يموت كذلك بذاك الزيت الذى يحيا به ، والله تعالى لا يحب الإسراف لهذا السبب ، والحكماء أيضا لم يرتضوا الإسراف فى أى شأن لأن عاقبة الإسراف كله الضرر .

---

(١) اى يطفىء . واستعمل المؤلف كلمة يميت وكلمة الموت فى مقابل كلمة الحياة

ولكن لا تجعل حياتك مرة ، ولا تسد على نفسك باب الرزق ، وتعهد نفسك جيدا ، ولا تقصر فيما يجب، لأن كل من يقصر فى شأن نفسه ، لا يجد الوفر من السعادة و يبقى محروما من الأغراض ، وانفق على نفسك ما تملكه ويكون لا زما لك ، لأن المال وإن يكن عزيزا فليس أعز من النفس على أى حال ، وفى الجملة اجتهد فى أن تستعمل كل ما تحصله فى الصلاح ، ولا تودع ما لك إلا بأيدى البخلاء ، ولا تعتمد قط على المقامر وشارب الخمر ، وظن كل شخص لصا ، ليكون مالك فى أمان من اللصوص. ولا تقصر فى جمع المال لأن راحة البدن أولا هى الألم آخرا ، والألم أولا هو راحة البدن آخرا بحيث تكون راحة اليوم تعب الغد ، وتعب اليوم راحة الغد ، وإذا حصل بيدك بعناء أو بغير عناء ، فاجتهد حتى تجعل نفقة بيتك وعيالك دانقين من درهم ، ولا تنفق أكثر من هذا ولو كان لازما وكنت محتاجا ، وإذا انفقت هذين الدانقين ، فادخر دانقين من أجل الضرورة وولها ظهرك ، ولا تذكرهما فى كل خلل ، واتركهما للورثة ، ليكونا عونك لأيام الضعف وأوان الشيخوخة ، واصرف ذينك الدانقين الآخرين الباقيين فى تجمل نفسك ، وتجمل بمالا يفنى [1] ويبلى ، مثل الجواهر والأدوات الذهبية والفضية والفولاذية والبرنزية ، والنحاسية وأشباه هذه ، وإذا زاد فاودعه التراب لأن كل ما تودعه التراب تجده ثانيا ، ويكون المال دائما فى مكانه ، وإذا تجملت فلا تبع تجمل البيت فى كل حاجة وضرورة تعرض لك ، ولا تقل : ـ الآن ضرورة ، فأبيع واشترى ثانيا فى وقت آخر لأنه لا يجوز بيع تجمل البيت من أجل كل خلل بأمل الشراء عوضه ثانيا ، فإنه لا يشترى ويخرج ذاك من اليد ويبقى البيت خاليا ، فلا يمضى طويل حتى تكون أفلس المفلسين ، ولا تقترض من أجل كل ضرورة تعرض لك ولا ترهن متاعك ، ولا تعط البتة المال أو تأخذه بالربى ، واعلم أن الاستدانة ذل كبير ، ولا تقرض ما استطعت درهم فضة لأى إنسان وخاصة لأصدقائك ، لأن مطالبة الصديق بالدين أكبر

(١) الترجمة الحرفية : يموت

ألم ، فإذا أقرضت فلا تعد ذلك الدرهم من مالك ، واعتبره كذلك فى نفسك قائلا : إنى وهبت هذا الدرهم لهذا الصديق ، ولا تطلبه منه ما لم يرده ، لأن الصداقة تنقطع بسبب المطالبة ، فسرعان ما يمكن جعل الصديق عدوا أما جعل العدو صديقا فصعب جدا ، ذاك عمل الصبيان وهذا عمل الشيوخ. واجعل من كل مايكون لك نصيبا للمستحق ، ولا تطمع فى مال الناس ، لتكون خير الناس ، واعتبر مالك من متاعك ومال الناس من متاع الناس ، لتعرف بالأمانة ويعتمد الناس عليك . وتكون بهذا العمل غنيا دائما .

الباب الثاني والعشرون

فى إيداع الأمانة

إذا استودعك شخص أمانة فلا تقبلها بأى حال ، وإذا قبلتها فاحفظها لأن قبول الأمانة قبول للبلاء إذ أن عاقبة ذلك لا تخرج عن ثلاثة أشياء إما أن ترد إليه هذه الأمانة ، كما أمر الله عز وعلا فى محكم تنزيله (وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فإن طريق المروءة والإنسانية والشهامة هى أن لا تقبل الأمانة وإذا قبلتها تحافظ عليها وتعيدها إلى صاحبها سالمة .

حكايـــة

سمعت أن رجلا خرج من بيته فى الظلام وقت السحر ليذهب إلى الحمام ورأى فى الطريق صديقا من أصدقائه فقال : ـ أتوافقنى على أن نذهب معا إلى الحمام ؟ فقال صديقه أرافقك حتى باب الحمام ، ولكن لا أستطيع الدخول لأن عندى عملا ، وسار معه إلى قرب الحمام ، فوصلا إلى مفترق [1] طريقين وعاد قبل أن يخبر ذلك الصديق ، وسار فى طريق آخر ، واتفق أن كان طرار [2] يسير وراء هذا الرجل ليذهب إلى الحمام للنشل ، والتفت الرجل مصادفة فرأى الطرار ، وكانت الدنيا ما تزال مظلمة فظن أنه صديقه ، وكان معه فى كمه مائة دينار مصرورة فى منديل ، فأخرجها من كمه وأعطاها لذلك الطرار وقال : أى أخى ! خذ هذه الأمانة حتى أخرج من الحمام فتردها إلى ، فأخذ الطرار منه المال وأقام هنالك ، ولما خرج من الحمام ، كانت الدنيا قد أضاءت ، فارتدى ثيابه وذهب ، فناداه الطرار وقال : أيها الفتى ! استرد

---

(١) الترجمة الحرفية ـ رأس

(٢) نشال

مالك وأمض ، فإنى قد تخلفت اليوم عن شغلى بسبب أمانتك ، فقال : ما هذه الأمانة ؟ . ومن أنت ؟ فقال الطرار : أنا طرار ، وأنت أعطيتنى هذا الذهب حتى تخرج من الحمام ، فقال الرجل : إذا كنت طرارا فلم لم تسلبه منى ؟ فقال الطرار : لو كنت سلبت هذا بصناعتى لأخذته ولو كان ألف دينار ولما كنت أرد منه شعيرة ، ولكنك سلمته لى واستودعته مستأمنا ، وليس من المروءة أن أخونك وقد جئت مستأمنا .

أما ما ذكرت من أن طرارا يرعى حرمة الأمانة لهذا الحد فهو من أجل أن تعلم أن قبول الأمانة أمر عظيم الخطر، لأنها إذا تلفت على يدك بغير إرادتك فإنه يحسن أن تشترى عوضها ثانيا وتؤديه ،وإذا أضلك الشيطان الطريق وطمعت فيها ، فإن ذلك سواد الوجه فى الدنيا والآخرة ، وإذا رددتها إلى صاحب الحق بعد أن تكون قد احتملت كل ذلك التعب لحفظها ، فإن صاحب الأمانة لا يرى لك أية منة ويقول : إنه كان مالى ورده إلى ، ويبقى كل تعبك ذاك غير مشكور ، ويكون أجرك هو ذاك الصنيع الذى يبيض ثوبك .

أما إذا تلفت ولم تكن أنت قد فكرت ثمت فى خيانة قط ، فإن أحدا لا يقبل ذلك وتصبح خائناً عند كل الناس ، وتذهب حرمتك بين أمثالك وأقرانك ، ولا يعتمد عليك شخص آخر كذلك ، وإذا بقيت معك حبة من ذلك المال تكون حراما ويبقى فى عنقك وبال عظيم ، ولا تكون منعما فى هذه الدنيا وتحل بك عقوبة الحق تعالى فى الآخرة .

فصـــل

أما إذا استودعت شخصا وديعة فلا تستودعها خفية ، بل تأخذ شاهدين عدلين ، وخذ منه حجة بمـا تعطى لتستريح من التقاضى ، فإذا أدى الأمر إلى التقاضى ، فلا تجترىء عليه ، لأن التجـــاوز علامة الظلم ، ولا تقسم

ما استطعت كذبا أو صدقا أبدا ، ولا تجعل نفسك معروفا بالحلف قط حتى إذا لزمك مرة أن تحلف وكانت هناك ضرورة ، يعتبرك الناس صادقا فى ذلك القسم ، ومهما تكن غنيا ، فإنك إذا لم تكن حسن السمعة وصادقا تكون من جملة الفقراء ، إذ ليس لسيء السمعة والكذاب عاقبة غير الفقر ، والتزم الأمانة فقد قيل الأمانة كيمياء [1] الذهب .وعش غنيا دائما ، يعنى كن أمينا وصادقا ، لأن مال كل العالم للأمناء والصادقين ، واجتهد أن لا تكون خادعا واحذر أن تكون مخدوعا وخاصة فى المعاملات [2] المرتبطة بالشهوة .

(١) علم تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة.
(٢) الترجمة الحرفية . العطاء والأخذ .

الباب الثالث والعشرون

فى شراء الرقيق

إذا أردت أن تشترى الرقيق فكن فطنا ، لأن شراء الآدمى علم صعب ، فكثيرا ما يكون العبد مليحا ، فإذا نظرت إليه عن علم يكون خلاف ذلك ، وأكثر الخلق يظنون أن شراء الرقيق من جملة التجارات الأخرى ، ولا يعرفون أن شراء الرقيق وعلم ذلك من علوم الفلسفة ، وكل من يشترى شيئا لا يعرفه حق المعرفة يغبن فيه ، وأصعب المعارف معرفة الآدمى ، لأن عيوب الآدمى وفضائله كثيرة ، فقد يكون عيب واحد يستر مائة ألف فضيلة ، وتكون فضيلة واحدة تستر مائة ألف عيب ، ولا يمكن معرفة الآدمى إلا بعلم الفراسة والتجربة ، وتمام علم الفراسة علم النبوة ، إذ لا يصل أحد إلى كماله إلا نبى مرسل يستطيع بالفراسة أن يعرف محاسن ومساوىء بواطن الناس ، ولكنى أذكر بقدر طاقتى ما يكون شرطا فى شراء المماليك والعبيد ، وما يكون من فضائلهم وعيوبهم حتى يصير معلوما .

اعلم أن هنالك ثلاثة شروط فى شراء المماليك :

أحدها معرفة عيوب وفضائل ظاهرهم وباطنهم بالفراسة والوقوف على العلل الخفية والظاهرة بالعلامات ثم معرفة الأجناس وعيوب وفضائل كل جنس .

أما أول شرط الفراسة فهو أنك إذا اشتريت عبدا ينبغى التأمل جيدا ، لأن للعبيد مشترين من كل نوع ، فقد ينظر شخص إلى الوجه ولا ينظر إلى الجسم والأطراف ، وقد ينظر شخص إلى الشحم واللحم ، أما كل من ينظر

إلى العبد فيجب أولا أن ينظر إلى الوجه ، لأنه يمكنك أن ترى وجهه دائما ، وترى جسمه أحيانا ، فانظر إلى العين والحاجب ، ثم إلى الأنف والشفة والأسنان وبعد ذلك انظر إلى شعره ، لأن الله عز وجل أودع حسن كل الآدميين فى العين والحاجب ، والملاحة فى الأنف ، والحلاوة فى الشفة والأسنان ، والطراوة فى الجلد ، وصير شعر الرأس مزينا لهذه كلها ، لأنه خلق الشعر من أجل الزينة ، فينبغى كذلك أن تنظر فيها جميعا فإذا كان فى العين والحاجب حسن وفى الأنف ملاحة وفى الشفة والأسنان حلاوة وفى الجلد طراوة فاشتر ذلك العبد ولا تنشغل بأطراف جسده ، فإذا لم تكن هذه كلها ، فيجب أن يكون مليحا ، لأن مليحا بغير حسن خير فى مذهبى من حسن بغير ملاحة ، وقد قيل :

العبد يصلح لكل عمل ، فينبغى أن يعرف بأية فراسة يجب أن يشترى وبأية علامة :

كل عبد تشتريه من أجل الخلوة والمعاشرة ، يجب أن يكون معتدلا فى الطول والقصر ، وفى السمن والنحافة ، والبياض والحمرة ، والغلظة والرقة ، وجعودة الشعر واسترساله ، فإذا رأيت غلاما ناعم اللحم ، ورقيق الجلد ، ومستوى العظام ، وخمرى الشعر ، وأسود الهدب ، وأشهل العين ، وفاحم الحاجب ، وواسع العين ، ومسحوب الأنف ، ودقيق الخصر ، ومدور الذقن وأحمر الشفة ، وأبيض الأسنان ، ومستوى الثنايا ، وكل أعضائه متناسبة مع ما ذكرت ، كل غلام يكون هكذا يكون جميلا ومعاشرا وحسن الخلق ووفيا ولطيف الطبع ولائقا .

وعلامة الغلام العاقل الموفق هى أن يكون منتصب القامة ومعتدل الشعر ومعتدل اللحم وعريض الكف وواسع ما بين الأصابع ، عريض الجبهة ، أحمر

اللون ، أشهل العين منبسط الوجه من غير ابتسام ، مثل هذا الغلام يكون أهلا لتعلم العلم وتعهد الخزانة وكل عمل .

وعلامة الغلام الذي يليق للملاهي هي أن يكون ناعم اللحم وقليله وخاصة على الظهر ، ودقيق الأصابع لا بالنحيل ولا بالسمين ، وكل غلام مكلثم الوجه[1] لا يمكن أن يتعلم شيئا ، فينبغي أن يكون ناعم الكف وواسع ما بين الأصابع ووضيء الوجه ، وضيق الإهاب لا يكون شعره طويلا جدا ولا قصيرا جدا ولا أسود جدا ، والأفضل أن يكون باطن كف قدمه مستوياء مثل هذا الغلام يتعلم سريعا كل حرفة دقيقة وخاصة الغناء .

وعلامة الغلام اللائق لحمل السلاح هي أن يكون غزير الشعر وتام القوام منتصب القامة ، وقوى التركيب ، ومكتنز اللحم وغليظ العظم وخشن الجلد ، وقويم الجسم ، شديد المفاصل مشدود العروق وجميع الأوردة والأعصاب ظاهرة على جسده ونافرة ، وعريض الكتف وواسع الصدر ، وغليظ العنق ومستدير الرأس ، وإذا كان أصلع فهو أفضل، وضامر البطن ومجتمع العجيزة وتكون ساق رجله مبسوطة حين يمشى ، ويجب أن يكون أسود العين، وكل غلام كهذا ، يكون مبارزاً وشجاعا وموفقاً .

وعلامة الغلام الذى يليق لخدمة الحريم[2] أن يكون أسود البشرة وعابس الوجه وفظاغليظاويابس الجسم وخفيف الشعر ورقيق الصوت ونحيل القدم وغليظ الشفة وأفطس الأنف ، وقصير الأصابع ، منحنى القامة ونحيل العنق ، مثل هذا الغلام يليق لخدمة الحريم ، ولكن لايجوز أن يكون أبيض البشرة وأحمر الوجنة ، واحترز من الأشقر وخاصة من المتهدل الشعر ، ولا يليق أن يكون فى عينه رعونة وطراوة ، فإن مثل هذا يكون إما ولوعا بالنساء أو قوادا .

---

(١) الترجمة الحرفية — على وجهه لحم كثير .

(٢) الترجمة الحرفية — بيت النساء .

وعلامة الغلام الوقح الذى يليق للعونة[1] وسياسة الدواب هى أن يكون مفتوح الحاجبين وواسع العينين وأجفان عينيه منقطة بالحمرة وطويل الشفة والأسنان وواسع الفم ، مثل هذا الغلام يكون وقحاً جداً وجسورا وغير مؤدب .

وعلامة الغلام الذى يليق للفراشة والطبخ هى أن يكون صافى الوجه ونقى البدن ومستدير الوجه ودقيق اليد والقدم وأشهل العين بحيث تضرب إلى الزرقة ، وتام القوام وصموتا وشعر رأسه خمريا ومسبلا ، مثل هذا الغلام يليق لمثل هذه الأعمال. أما الشرط الذى قلنا إنه يجب توافره وعيوب ومحاسن كل جنس التى يلزم معرفتها فسأذكرها :

اعلم أن الترك ليسوا جنساً واحدا ، ولكل جنس منهم طبع وجوهر ، والغز والقبچاق من بينهم أسوأ الجميع أخلاقا، وأحسن الجميع خلقا وأطوعهم الختنى والخلخى والتبتى ، وأجرأ الجميع وأشجعهم هو الترقائى، وأكثر الجميع احتمالا للتعب ومقاساة للبلاء وأوفقهم التاتارى واليغمائى ، وأضعف الجميع الچگلى ، وحسنهم وقبحهم يتضح جملة والهنود على النقيض ، بحيث إذا نظرت إلى التركى تفصيلا فالرأس كبير والوجه والعينان ضيقتان والأنف مفرطح والشفة والأسنان غير جميلة ، فإذا نظرت إلى هذه تفصيلا فإنه لا يكون جميلا أما إذا نظرت إليها كلها وجمعت بينها فهو جميل .

وصورة الهندى بخلاف هذا ، إذا نظرت إليها عضوا عضوا[2] يبدو كل عضو منها جميلا بذاته ، ولكن إذا نظرت إليها جملة لا تبدو كصورة الأتراك، فللتركى قبل كل شىء[3] رطوبة ذاتية وصفاء ليسا للهندى، وقد أحرز الأتراك فى الطراوة السبق على جميع الأجناس، فلاجرم أن يكون كل ما هو حسن فى الترك فى غاية الحسن

---

(١) السخرة (عوانى)

(٢) الترجمة الحرفية : واحدا واحدا يبدو جميلا بذاته

(٣) الترجمة الحرفية — أولا .

وما هو قبيح فى غاية القبح ، وأكثر عيوبهم إنهم بليدوا الذهن وجهلاء ومتكبرون ومشاغبون وغير راضين ، وغير منصفين ومثيرون للفتن بلا سبب، وبذيئو اللسان ، وهم فى الليل جبناء ، وتلك الشجاعة التى يبدونها نهارا لا يستطيعون إبداءها ليلا ، أما ميزتهم فهى إنهم شجعان وغير مرائين ظاهرو العداوة ومتعصبون لكل عمل تكله إليهم ، ولا يوجد من أجل التجمل جنس أحسن منهم .

والصقلبي والروسى والألانى قريبون إلى طبع الأتراك ، ولكنهم أكثر احتمالا من الترك ، أما الألانيون فأكثر شجاعة من الترك فى الليل ، وأكثر حبا لسيدهم ، ولئن كانوا فى الفعل أقرب إلى الرومى فإنهم ممتازون كالأتراك ولكن فيهم عدة عيوب مثل ، السرقة والعصيان والتكلم خفية ، وعدم الصبر والتباطؤ فى العمل ورخاوة الطبع ومعاداة سيدهم والفرار ، أما فضائلهم فهى إنهم لينوا الطباع ومطبوعون وسريعو الفهم ومتروون فى العمل، وقويمو اللسان وشجعان وأدلاء ، وصالحون للتعلم، وعيب الرومى هو إنه بذىء اللسان وسيىء الطوية وضعيف الطبع وكسلان وسريع الغضب وحريص ومحب للدنيا، وفضائلهم هى إنهم صابرون وأوداء وحسنوا الخلق وميالون للرئاسه وموفقون ، وحافظون لألسنتهم ، أما عيب الأرمنى فهو إنه سيىء الفعل ونتن الفم ولص ووقح وشرود وغير مطيع ومهذار وكذاب ومحب للكفر وعدو لسيده وهو من رأسه إلى قدمه أقرب إلى العيب ولكنه حاد الفهم وسريع التعلم، وأما عيب الهندى فهو إنه بذىء اللسان، ولا تأمن منه جارية فى البيت ، أما أجناس الهنود فليسوا كسائر الأقوام ، لأن كل الخلق يختلطون ببعضهم البعض إلا الهنود فإنهم من عهد آدم عليه السلام ماتزال عادتهم على أن لا يتصل أصحاب حرفة قط بخلاف بعضهم البعض ، فيعطى البقالون بناتهم للبقالين والقصابون للقصابين والخبازون للخبازين والجندى للجندى ، فهم كل جنس منهم له طبع آخر ، ولا أستطيع شرح كل على حدة فيتحول الكتاب عن وضعه [1] .

(١) الترجمة الحرفية — حاله .

أما خيرهم الذى يكون عطوفا وشجاعا وسيدا أيضا ، فهو البرهمى أوالراوت أوالكرار ؛ فالبرهمى عاقل والراوت شجاع والكرار سيد ، وكل جنس خير من جنس ، أما النوبى والحبشى فأقل عيبا ، والحبشى خيرمن النوبى ، لأن فى مدح الحبشى شيئا كثيرا عن النبى صلى الله عليه وسلم .

هذا ماكان من معرفة الأجناس وفضل وعيب كل جنس ، والشرط الثالث الآن هو أن تحيط كلية بالعيوب الظاهرة والباطنة بواسطة العلامات . وذلك بأن لاتغفل وقت الشراء ولا ترض بنظرة واحـــدة فقد يكون حسنا جدا فى النظرة الأولى مايتضح أنه قبيح ، ويكون قبيحا جدا مايتضح أنه حسن ، وفضـلا عن ذلك فإن بشرة الآدمى لاتكون دائما بلونها الأصلى فتميل حينا إلى الحسن وحينا إلى القبح ، ويجب التأمل جيدا فى كل أعضائه حتى لايخفى عليك شىء ، فقد تكون علل كثيرة خفية تماثل للظهور [1] وما تزال غير ماثلة فتظهر فى بضعة أيام ، ولها علامات :

فإذا كانت فى وجنتيه صفرة وكان لون شفتيه متغيرا وكانتا ذابلتين فذلك دليل البواسير ، وإذا كانت جفون العينين متورمة دائما فهو دليل الاستسقاء ، واحمرار العين وامتلاء عروق الجبهة دليل الصرع ، ونتف الشعر وتحريك الأهداب وعض الشفة دليل الماليخوليا ، واعوجاج عظم الأنف وعدم إستوائه دليل الناسور ، والشعر الشديد السواد بحيث يكون أشد سوادا فى موضع دون آخر دليل على أن شعره مصبوغ ، وإذا رأيت كيا على الجسد فى موضع لا يكون موضع كى ، فانظر حتى لا يكون تحته برص ، وصفار العين وامتقاع لون الوجه دليل اليرقان ولا بد للغلام وقت الشراء من أن تأخذه وتنيمه وتدلك كلا جانبيه وتنظر عن كثب أن لا يكون به أى ألم وورم ، فإذا وجد فهو فى الكبد والطحال ، فإذا تجسست هذه العلل الخفية ، فتلمس الظاهرة أيضا ،

---

(١) الترجمة الحرفية — تقصد المجىء .

من رائحة الفم والأنف وثقل السمع ، وضعف النطق ، وعدم استواء الكلام والانحراف عن الجادة ، وتضخم المفاصل ، وصلابة أصول الأسنان ، حتى لا يغدر بك، ثم إذا كنت قد رأيت كل هذا الذى ذكرناه ، وصار معلوما لك ، فاشتر من رجل صالح إذا إشتريت ، ليكون فى بيتك صالحاً كذلك، ولا تشتر ناطقا بالعربية ما وجدت أعجميا ، لأنك تستطيع أن تربى الأعجى على خلقك ، ولا تستطيع ذلك مع الناطق بالعربية ، ولا تأت بجارية أمامك وقتما تكون الشهوة غالبة عليك ، لأن غلبة الشهوة تحسن القبيح فى عينك ، فسكن الشهوة أولا ثم باشر الشراء ، ولا تشتر العبد الذى كان معززا فى مكان آخر ، لأنك إذا لم تعزه لا يرى لك منة عليه ، أو يأبق ، أو يطلب البيع ، أو يضمر لك العداوة ، وإذا أعززته لا يعد ذلك منة منك ، لأنه قد رأى مثل ذلك فى مكان آخر ، واشتر العبد من مكان قد أسىء إليه فيه[1]، حتى يشكرك على القليل من حسن رعايتك ويحبك ، وهب للعبيد شيئا من وقت لآخر ولا تدعهم محتاجين دائما للدراهم فيذهبوا فى طلب الدرهم بالضرورة ، واشتر العبد القيم ، لأن جوهر كل شخص بمقدار قيمته ، ولا تشتر ذلك العبد الذى كان له سادة كثيرون ، لأن المرأة الكثيرة الأزواج والعبد الكثير السادة لا يحمدان واشتر ما تشتريه مطرد النماء ، وإذا طلب العبد بيعه حقيقة فلا تعاند وبعه ، بل بع وطلق كل عبد يطلب البيع وكل إمرأة تطلب الطلاق ، لأنك لا تهنأ بكليهما . وإذا تكاسل العبد وقصر فى الخدمة عمداً لا سهوا وخطأ فلا تصلحه قهرا ولا تتوقع أن يصير نشطا وصالحا بأى حال ، بعه سريعاً فإنه يمكن إيقاظ النائم بصيحة ، ولا يمكن إيقاظ الميت بصوت مائة بوق وطبل ، ولا تجمع حولك العيال غير الصالحين . فإن قلة العيال هى الغنى الثانى ، وتعهد الخادم بحيث لا يهرب ، واحسن تعهد من تملك كما ينبغى ، لأنك إذا كفيت شخصا واحدا فإنه يكون خيرا من شخصين محتاجين، ولا تدع عبدك يتآخى فى البيت والجوارى يتآخين مع العبيد، لأن آفة ذلك تكون

(١) الترجمة الحرفية — فى ذلك البيت .

عظيمة ، وضع العبء على العبد والحر بقدر طاقتهما ، حتى لا يعصيان من عدم الطاقة ، وجمل نفسك بالإنصاف لتكون من المتجملين ، ويجب أن يعتبر العبد سيده أخاه وأخته وأمه وأباه ، ولا تشتر عبد النخاس الهرم ، لأن العبد يخشى النخاس كما يخشى الحمار البيطار[1] ، ولا تعول على العبد الذى يطلب البيع فى كل وقت وحال ولا يخشى من بيعه وشرائه ، لأنك لا تلق منه فلاحا فاستبدله سريعاً بآخر ، واطلب كما ذكرت ، ليحصل المراد ولا تقع فى العناء .

---

(١) فى نسختى نفيسى وهدايت (لأن العبد يجب أن يخشى .. . . الخ
ولعل المقصود : إن العبد لا يخشى النخاس الهرم فيكون متمردا غير مطيع .

الباب الرابع والعشرون

فى شراء البيت والضياع

أى بنى ! اعلم أنه ينبغى أن تراعى حد الشرع إذا أردت أن تشترى ضيعة أو بيتا أو أى شىء تريد ، واشتر كل ما تشتريه فى وقت الكساد وبع كل ما تبيع فى وقت الرواج ، واطلب الربح ولا تأنف فقد قيل ، يجب التدلل إذا أردت الشراء . ولا تنس المماكسة فإن المكاس نصف التجارة ، أما ما تشتريه فيجب شراؤه بمقياس الربح والخسارة ، وإذا أردت أن لا تفلس فلا تنفق من الربح غير الحاصل ، وإن شئت أن لا تضر بمالك فاحترز من الربح الذى عاقبته الخسران ، وإذا رغبت فى أن تكون ذا مال وفير وأن لا تفتقر فلا تكن حسودا ، واصبر فى كل الأمور ، فإن الاصطبار هو العقل الثانى ، ولا تغفل عن صلاح نفسك فى كل الأمور ، فإن الغفلة هى الحماقة الثانية ، وإذا خفى عليك الأمر وانسد عليك باب العمل ، فسارع إلى الأخذ بالأسباب واصبر حتى يتبين وجه العمل ، لأنه لا يجود عمل قط بالتسرع ، وإذا حضرت البيع والشراء وأردت أن تشترى بيتا فاشتره فى حى صالح أهله ، ولا تشتره على حافة المدينة ولا تحت سورها ، ولا تبتع بيتا خربا لرخصه ، وانظر أولا إلى الجار ، فقد قيل (الجار ثم الدار) ويقول بزر جمهر ، أربعة أشياء هى البلاء الكبير : الجار السوء ، والعيال الكثير ، والمرأة المخالفة ، وضيق ذات اليد . ولا تشتر بيتا فى جوار العلويين والفقهاء لأن رعاية حق حرمتهم شاقة ، ولا تشتر فى جيرة الخدم ، واجتهد فى أن تبتاع الدار فى حى لا يكونون أغنى منك ، ولكن تخير الجار الصالح . وإذا اشتريت الدار فارع حق الجار وحرمته ،

فقد قيل (الجار أحق) واحسن العيش مع أهل الحى فى محلتك ، واذهب للسؤال عن المرضى ، وعز أرباب العزاء ، واحضر جنازة الناس ، ووافق فى كل شغل يكون للجار ، فإذا كان فرح فافرح معه وارسل هدية على قدر طاقتك لتكن أجل أهل الحى ، واسأل عن صغار الحى ولاطفهم ، وسل عن شيوخ الحى واحترمهم ، وأقم الجماعة فى مسجد الناحية ، ولا تقصر فى إرسال الشمع والقنديل فى شهر رمضان ، فإن الناس يرعون مع كل شخص ذلك المسلك الذى يراعيه مع الناس[1] ، واعلم أن كل ما ينبغى للمرء من خير وشر يلقاه من فعله ، فلا تعمل ما لا يليق عمله ، ولا تقل ما لا يليق قوله ، لأن كل من يعمل ما لا ينبغى عمله يرى ما لا تنبغى رؤياه ، واجعل موطنك ما استطعت فى المدن الكبرى ، وأقم فى تلك المدينة التى تكون أكثر ملاءمة لك ، واشتر البيت بحيث يكون سطحك أعلى من سطح الآخرين حتى لا تقع عيون الناس على بيتك ، ولكن جنب الناس أذى نظراتك ، وإذا اشتريت ضيعة فلا تشترها بغير جار ومعدن ، واشتر كل ما تشتريه فى عام الرخاء ولا تشتر الضيعة ما لم تكن مقومة وبغير شبهة ، واعتبر الضيعة مالا أمينا ، أما إذا اشتريت الضيعة فكن دائما فى فكر عمارتها ، واعمل فى كل يوم عمارة جديدة ، لتجد دخلا جديدا فى كل وقت ، ولا تن البتة عن تعمير الضياع والعقار ، لأن الضياع عزيزة بالدخل وإذا جاز أن تكون بغير دخل فاعتبر جميع البرارى ضياعك لأن قيمة رب القرية بالقرية والضياع ، وقيمة الضياع بالدخل ولا يمكن تحصيل الدخل بغير العمارة .

(١) الترجمة الحرفية : فإن الناس يرعون مع كل شخص ذلك المسلك الذى يرعونه مع الناس والجملة بهذا الوضع غير واضحة ولا تتسق مع ما قبلها ولعل هذا راجع إلى خطأ فى النسخ .

الباب الخامس والعشرون

فى شراء الخيل

أى بنى ! إذا اشتريت جوادا فكن فطنا حتى لايجوز عليك الخطأ ، فإن جوهر الخيل والإنسان سواء لأن كل قيمة تقدرها للجواد الكريم والرجل الكريم جائزة ، كما وأنك تستطيع أن تذم ماشئت الحصان الردىء والرجل الردىء ، وقد قيل : إن الدنيا قائمة بالناس والناس بالحيوان ، وأكرم حيوان من الحيوانات هو الجواد لأن تعهده من الرياسة ومن المروءة أيضا ، وفى المثل : احسن رعاية الجواد والثوب ، ليحسنا رعايتك ، ومعرفة جيد الخيل ورديئها أصعب من معرفة جيد الناس ورديئهم ، لأن معنى المرء موجود مع دعواه ، ودعوى الحصان رؤيته ، ولأجل أن تعرف المعنى انظر أولا إلى منظره، لأن للجواد الكريم غالبا صورة حسنة ، وللردىء صورة رديئة ،فينبغى أن تكون الأسنان متصلة ودقيقة وبيضاء والشفة السفلى أطول من الشفة العليا والأنف عاليا وواسعاومسحوبا وأن يكون عريض الجبهة وأملس العذار وطويل الأذن وطرف أذنه مدببا ومرتفعا ، ومابين الأذنين واسعا ومنتصب الرقبة ودقيق الخصر وأصل العنق والأذن،غليظ أعلاالقوائم،والقصبةالعلياأقصر من السفلى ، قصير الشعر ، طويل الحافر وأسوده ، مدور العقب ، ومرتفع الظهر،قصير الخاصرة واسع الصدر مفتوح مابين اليدين والرجلين،وذنبه كثيفاً وطويلا ، وطرف ذنبه دقيقا وقصيرا ، وأسود الخصية ، والهدب والعين ، فطنا فى السير ، صقيل المضرب ، معلق العجيزة ، عريض الكفل والجانبان الداخليان للفخذ بمتلئ اللحم وناميين معا ، وإذا تحرك الرجل عليه فلا بد أن يتنبه لحركة الرجل ، وهذه المزايا التى ذكرتها ينبغى أن تكون فى

كل حصان [1] على الإطلاق ، وما يكون فى حصان لايكون فى آخر ، ويقال إن الكميت أفضل الألوان ، والبلحى أيضاً جيد وصبور فى الحر والقر ، وحمول للتعب ، وإذا كانت الخصية ، وبين الفخذين والدبر والذيل والقوائم والصدر والناصية سوداء فهو حسن ، والجواد الأصفر أيضاً يستحسن أن يكون أصفر للغاية وبوجهه دويرات كالدراهم ، وصدره وناصيته وذنبه وخصيته ودبره وما بين فخذيه وعينه وشفته ، هذه كلها تكون سوداء ، والجواد الضارب إلى الصفرة [2] يجب أن يكون هكذا ، والوردى اللون يجب أن يكون لونا واحدا ، ولا يضرب إلى البلقة أبدا ، ويجب أن يكون الأدهم أسود وبراقا ، ولا يجوز أن يكون أحمر العين لأن أكثر الجياد الحمراء العين معيبة ومجنونة ، والجواد الرمادى القاتم [3] الأسود القوائم يحسن أن يكون بتلك الصفة التى ذكرتها للأصفر، والجواد الأبلق غير محمود وخيرأن لا يقتنى ، ويكون فى الأغلب سيء الطبع ، وما دمت عرفت محاسن الخيل فاعرف أيضا عيوبها :

قديكون (بالحصان) [4] عيب يضر بالعمل ، ويقبح فى النظر، ولكنه يكون صاحب نزو، ومن العيوب [5] علل وخصال قبيحة يمكن إزالة بعض منها ولا يمكن إزالة البعض الآخر ولكل عيب وعلة اسم يمكن معرفتها به كما سنذكر :

اعلم أن إحدى علل الخيل هى أن يكون أبكم ، والجواد الأبكم ثمنه زهيد جدا ، وعلامته أنه إذا رأى فرسا لا يصهل ولو أدلى بذكره ، والجوادالأعشى يعنى الأعمى ليلا — وعلامته أنه لا يخاف ليلا من الشيء الذى تخاف منه الخيل ولا يجفل ، ويذهب إلى كل مكان ردىء تسوقه إليه ولا يحترز ، والجواد الأصم

---

(١) الترجمة الحرفية — واحد .
(٢) سمند .
(٣) ديزة .
(٤) ليست بالأصل .
(٥) الترجمة الحرفية — يكون عيب .

ردیء ، وعلامته أنه لا يسمع صهيل الخيل ولا يرد الجواب و يهدل أذنيه دائما، والجواد الأحول رديء ويخطيء كثيرا ، وعلامته أنه إذا سحبته بدهليز يقدم رجله الأمامية اليسرى ولا يعرف السباحة .

والجواد الأعمش رديء ، لأنه لا يرى نهارا ، وعلامته أن حدقة عينه سوداء تضرب إلى الخضرة ، وعينه مفتوحة دائما بحيث لا تطرف أهدابه ويكون هذا فى عين واحدة ويجوز أن يكون فى العينين ، ومهما يكن معيبا فى الظاهر فإن العرب والعجم قد اتفقوا على أنه مبارك ، وهكذا سمعت أن أن دلدل[1] كان أحول يعنى مزور العين ، والأرجل ما تكون رجل واحدة أو يد واحدة منه بيضاء فإذا كانت الرجل واليد اليسرى بيضاوين كان شؤما ، والأزرق إذا كان أزرق العينين فلا ضير وإذا كان أزرق بعين واحدة فهو معيب خاصة إذا كانت اليسرى ، والمغرب يعنى الأبيض العين رديء ، والحصان الكميت الأبلق[2] رديء كذلك والأقود — يعنى المستقيم الرقبة — رديء أيضا ولا ينظر إلى مثل هذا الحصان ، والحصان الحارى اللون أيضا رديء لأن كلا رجليه معوجتان ويسمى بالفارسية - كمان پايه - أى مقوس الرجل ويقع كثيرا . والحصان القالع وهو الذى له شعر بأعلى كفله وحول حافره شؤم ، وكذلك المهقوع وهو الذى يكون حول حافرة وتحت إبطه شعر وإذا كان فى كلا جنبيه فهو أشأم ، ويكون شؤما أيضا أن يكون له شعر حول الرجل أعلى الحافر ، أما بالجانب الداخلى والخارجى فلا بأس ، والأسدق — يعنى ملتوى الحافر — ويقال له أيضا أحنف ،رديء كذلك ، والذى تكون يده أو رجله طويلة رديء أيضا فى الانحدار والصعود ، ويقال له الأفرق ، والأعزل أيضا رديء ، والمعقوف الذنب ويقال له أيضا الأكشف ، يعنى عورته ظاهرة ، والكلبي الذنب رديئان[3] كذلك ، والحصان الأفجح وهو الذى لا يستطيع وضع رجله على موضع يده رديء أيضا ، والأشهق

(١) بغلة على كرم الله وجهه

(٢) بوزه

(٣) فى الأصل بالمفرد .

وهو الذى له علة فى مفاصل يده ردىء كذلك لأنه يعرج دائما ، وإذا كانت فى مفاصل رجله يسمى الأفرن وهو ردىء كذلك ، ومانع الركاب والجموح والعاض وكثير الصهيل والضراط والرامح الذى يبطىء فى تبرز الروث والذى يدلى بذكره، كلها رديئة ، والحصان الغرابى العين يكون أعشى .

حكاية

سمعت أن راعى قطيع أحمد فريغون ذهب إليه يوم النوروز بغير هدية نوروزية وقال : أطال الله حياة مولاى لم آت بهدية النوروز لأن عندى بشارة خيرا من الهدية ، فقال أحمد فريغون قل ! فقال الراعى : لقد ولد قطيعك ليلة أمس ألف مهر غرابى العين ، فأمر أحمد بضربة ماية عصا ، وقال : أية بشارة هذه التى أتيت بها إلى قائلا إنه ولد لى ألف مهر أعشى !

والآن ما دمت قلت هذا وعرفت علل الخيل فاعلم أن لكل منها اسم مثل أسار ، وكفان ، ودجلس، وفتق ، وعدن ، وسقيق، وجهر ، وحمع ، ونامورہ ، وحلام ، وبرص ، وسرطان ، ونملة ، وملح ، ونفخة ، وقندان ، ونقاق، وتبق، ومهبا ، وجان ، ورنوم ، ومقل ، وعضاض ، وسمل سفتنى ، وريوم ، وسمار ، وسمه ، وبره . وهذه العلل التى ذكرتها ، إذا فسرتها كلها تطول ، وكل هذا الذى ذكرته عيب ، وأسوأ هذه العيوب كلها الهرم ، لأنه مع هذه العيوب التى ذكرتها يمكن إنجاز عمل ، وأما مع الهرم فلا يمكن العمل ، فاشتر الجواد الهيكل لأن الرجل وإن كان بدينا ومنظرانيا يبدو ضئيلا فوق الحصان الحقير ، واعلم أن عظام الأضلاع تكون فى الجانب الأيسر أكثر من الجانب الأيمن فى العدد وإذا كان كل منهما متساويا مع الآخر فاشتره بأكثر مما يساوى فإنه لايكون حصان قط خيرا منه ، وكل ما تشترى من ذوات الأربع والضياع فاشتره بحيث تصل إليك منافعه مادمت حيا ، وتأول من بعدك إلى أقرانك ووارثيك ، وسيكون لك أخيرا من غير شك زوجة وأولاد ، كما يقولون :

كل رجل زوجه امرأة .

الباب السادس والعشرون

فى الزواج

أى بنى إذا تزوجت المرأة فاحسن رعاية حرمتها ، وإن يكن المال عزيزا فليس بأعز من المرأة والولد ، ولا تضن بالمال على امرأتك وولد لك ، ولكن عن المرأة الصالحة والولد المطيع ، وهذا أمر بيدك ، كما قلت فى بيت :

بيت

لم تربى الولد ولم تقتنى المرأة ، إذا لم يكن الك من كليهما نفع ؟

أما إذا تزوجت فلا تطلب مال المرأة وانظر فى أمرها ولا تكن فى قيد جمال وجهها ، فإنما تتخذ المعشوقة بسبب جمال الوجه ، أما المرأة فيجب أن تكون طاهرة متدينة وربة بيت ، ومحبة لزوجها وحيية وتقية وقصيرة اللسان واليد ومحافظة على المال لتكون صالحة ، فقد قيل إن المرأة الصالحة هى التى تكون متدبرة العواقب ، ومهما تكن المرأة عطوفة وحسناء الوجه ومحمودة ، فلا تسلم نفسك لها كلية ، ولا تكن تحت سلطانها ، فقد قيل للإسكندر لم لا تتزوج ابنة دارا وهى حسناء جدا ؟ فقال : إنه لقبيح أن تتغلب علينا امرأة وقد تغلبنا على أهل الدنيا . ولكن لا تتزوج امرأة أعلى منك شأنا ، وينبغى أن تتزوج العذراء ، حتى لا يكون فى قلبها حب شخص آخر غير حبك وتتخيل أن كل الرجال على نمط واحد ، فلا يقع طمعها على رجل آخر ، وفر من يد المرأة السليطة فقد قيل : يفر العروس سريعا إذا لم تكن المرأة أمينة . ولا ينبغى أن تستولى على مالك ولا تترك لك أن تكون مالكا له ، فتصير أنت المرأة وهى الرجل ، وتزوج المرأة من أسرة صالحة ، فالمرأة

يتزوجونها من أجل تدبير البيت لا من أجل التمتع ، إذ يمكن شراء الجوارى بالسوق من أجل الشهوة حيث لا إنفاق ولا كثير عناء ، ويجب أن تكون الزوجة كاملة وبالغة وعاقلة ، وقد رأت السيادة فى بيت أمها وأبيها ، فإذا وجدت امرأة كهذه فلا تقصر فى طلبها وابذل الجهد حتى تتزوجها واجتهد أن لا تغيرها بأى وجه ، فإن تغرها فخير أن لا تتزوج، لأن إغارة النساء تعليمهن الغواية ، واعلم أن النساء كثيرا ما يهلكن الرجال غيرة ويقدمن أنفسهن فداء لأقل شخص ولا يخشين الغيرة والحمية ، أما إذا لم تغر المرأة وأحسنت رعايتها ولم تضن عليها بما رزقك الحق تعالى فإنها تكون أشفق عليك من الأم والأب ، فلا تحب نفسك أكثر منها ، وإذا أغرتها فإنها تكون أعدى من ألف عدو ، ويمكن الحذر من العدو الأجنبى ولا يمكن ذلك منها ، وإذا تزوجت المرأة وشغفت بها فلا تضاجعها كل ليلة مهما كنت مولعا بها ، وضاجعها بين حين وآخر لتتخيل أن كل شخص هكذا، حتى إذا ما كان لك عذر وقتا ما أو اتفق لك سفر تصبر هذه المرأة من أجلك ، لأنك إذا اعتدت كل ليلة مثل هذه العادة فإنها ترغب كذلك ويعز عليها الصبر ، ولا تأمن المرأة على أى رجل مهما كان مسنا ودميما ، ولا تجعل لأى خادم سبيلا إلى الحريم وإن يكن أسود وعجوزا وقبيحا ، وارع شرط الغيرة ولا تعد الرجل الذى لا يغار رجلا ، لأن من لا غيرة له لا دين له ، وإذا رعيت امرأتك على هذا النحو ، إن رزقك الله عز وجل ولدا فاهتم بتربيته .

الباب السابع والعشرون

فى تربية الولد

أى بنى ! إذا رزقت ولدا فيجب أولا أن تضع له اسما حسنا ، لأن من جملة حق الأبناء على الآباء أن يسموهم بأسماء حسنة . وثانيا أن تستودع الولد المرضعات العاقلات العطوفات ، وأن تختنه فى وقت الختان ، ويلزم أن تولم بحسب طاقتك وليمة ذات رونق وبهجة فى ذلك الختان ، ثم تعلمه القرآن ليكون حافظا ، وإذا كبر تعلمه علم السلاح والفروسية ، وحفظ السلاح وطريقة ذلك ليعرف كيف ينبغى استعمال كل سلاح وإذا فرغ من السلاح فعلمه السباحة ، كما أنى عند ما بلغت العاشرة كان لنا حاجب يقال له منظر وكان يعرف ترويض الخيل والفروسية جيدا وكان لنا خادم حبشى اسمه ريحان وهو أيضا كان يعرف الفنون جيدا ، فاستودعنى أبى إياهما حتى علمانى الفروسية ورمى الحربة والرماية والطعان وعلمانى ضرب الصولجان والطبطاب والرمى بالقوس وكل ما كان من أدب وفن ، فذهب منظر الحاجب وريحان إلى الأمير وقال : أى مولانا ! إن ابن مولانا تعلم كل ما كنا نعرف ، فليأمر مولانا كى يعرضه عليه غدا فى ساحة الصيد ، فقال أبى ، حسنا فليأت ، فذهبت فى اليوم التالى وعرضت عليه كل ما عرفت ، فخلع أبى عليهما وقال : ــ إن كل ما تعلمه ولدى هذا حسن ، ولكن يوجد فن خير من هذا لم يتعلمه ، قالا : ــ أى فن ذاك ؟ فقال أبى : كل ما يعرفه من هذه من معنى العلم والفضل ، هذا كله مما إذا لم يستطعه يقوم به شخص آخر من أجله ، أما ذلك الفن الذى يلزمه القيام به من أجل نفسه ولا يقوم به أى شخص من أجله ولا يستطيع عمله فلم تعلموه إياه ، وذلك هو السباحة التى لا يستطيع أحد غيره القيام بها من

أجله ، فأمر بإحضار ملاحين نشطين ، وعهد بى إليهما حتى علمانى السباحة كرها لا طبعا ، ولكنى تعلمتها جيدا ، إلى أن اتفق فى تلك السنة التى كنت أذهب فيها للحج عن طريق الشام ، أن قطع علينا الطريق على باب الموصل وسلبت القافلة ، ولما كان العرب كثيرين لم تكن لنا بهم طاقة ، وفى الجملة ، جئت إلى الموصل عاريا ، ولم أعرف أية وسيلة وركبت فى سفينة بدجلة وذهبت إلى بغداد وحسن حالى هناك وأكرمنى الله تعالى بالتوفيق للحج ، وغرضى أنه قبل الوصول إلى بغداد يوجد مكان مخوف ودوامة صعبة ، ويلزم ملاح خبير ليعبر من هنالك ، وإذا لم يكن يعرف كيف يعبر هنالك وكيف يجب العمل تودى السفينة ، وكنا نحن بضعة أشخاص فى تلك السفينة ، فوصلنا هنالك ولم يكن الملاح ماهرا [1] ولم يعرف كيف يجب المسير ، فألقى بالسفينة فى وسط الدوامة خطأ ، وأشرفت السفينة على الغرق ، فألقينا أنا ونفر من البصريين وعبد لى اسمه زيرك ، بأنفسنا من السفينة فى الماء ، وخرجنا سابحين ، وهلك الآخرون جميعا ، فازداد حب أبى فى قلبى من بعد ذلك ، وتصدقت من أجله ، وترحمت عليه كثيرا . وعلمت أن ذلك الشيخ كان يرى مثل هذا اليوم من قبل فعلمنى السباحة .

فينبغى أن تعلم أبناءك ما يكون جديرا بالتعلم من الفضل والفن ، لتكون قد أديت حق الأبوة وشفقة الآباء ، لأنه لا يمكن الأمان من حوادث الأيام ، ولا يمكن معرفة ما يجرى على رءوس العباد من خير وشر ، وكل فن وفضل ينفعه يوما ما ، فلا ينبغى أن يقصر المرء فى فضل نفسه وتأديب أولاده ، ويجب أن تكون حريصا فى تعلم العلم وكل علم تعلمه ، وإذا ضرب المعلمون ابنك من أجل التعليم فلا تشفق عليه ، ودعهم ليضربوه لأن الصبى يتعلم العلم والفضل والأدب بالعصا لا بالطبع ، أما إذا تأتى من الصبى سوء أدب وغضبت منه فلا تضربه بيدك ، وخوفه بالمعلمين ومرهم ليؤدبوه ، حتى لا يبقى فى قلبه بغضك ، أما أنت فكن دائما مهابا عنده لكيلا

(1) الترجمة الحرفية « استاذ »

يحتقرك ويخشاك دائما ، ولا تضن عليه بالقدر الذى يلزمه من المال حتى لا يطلب موتك من أجل المال ، ولا تقصر فى تعليمه الأدب بأنواعه.
وإذا كان الولد تعسا وسيء الحظ — نعوذ بالله — تكون أنت قد أديت واجب الأبوة ولا تكون العهدة فى عنقك ، وإذا كان رشيدا سعيدا فيجب أن يتعلم ويجرب ويصل إلى الكمال بنفسه بنظر الفطانة وتجربة الأيام ، فقد قيل (من لم يؤدبه والده أدبه الليل والنهار) ويقول آخر (من لم يؤدبه الأبوان أدبه الملوان) أما أنت فارغ شرط الأبوة ، ويعيش هو كما يكون قد قدر عليه ، لأن المرء حينما يأتى من العدم إلى الوجود ، يوجد معه خلقه وسيرته .
وإذ ينشأ وينمو يوما فيوما يتربى أيضا خلقه وسيرته كلما كبر حتى يصل إلى الكمال فيكون قد ظهر تمام إقباله وإدباره ، ولكن لاتضن عليه أنت بنصيبك ، وليس لأبناء الخاصة ميراث خير من الفضل والأدب ، وليس لأبناء العوام خير من الحرفة والأدب، ولو أن الحرفة أيضا من عمل أبناء المحتشمين إلا أن الأدب شيء والحرفة شيء آخر ، أما الحرفة عندنا فهى خير فضيلة على وجه التحقيق ، وإذا كان لأبناء الخواص وذوى الأصل ماية حرفة ولا يتكسبون منها لايكون ذلك عيبا ، بل يكون فضلا ، والصنعة وممارسة الفن يثمران يوما ما ولا يضيعان .

حكاية

لما غادر گشتاسف مقره ، — وتلك قصة طويلة — أما المقصود فهو إنه نزل ببلاد الروم وذهب إلى مدينة القسطنطينية ، ولم يكن معه من حطام الدنيا شيء وكان يأنف من السؤال وطلب الطعام من أحد ويعد ذلك عارا، بيد أنه فى صغره كان قد رأى فى دار أبيه الحدادين يعملون السكاكين والسيوف والسنان ، وبحكم الطالع كان قد وقع نظره على تلك الصناعة ، فكان يحوم حولها كل يوم ويرى ويتعلم شيئا منها . واليوم الذى دخل فيه بلاد الروم ، لم يكن يعرف حيلة قط، فذهب إلى دكان حداد وقال إننى أعرف شيئا فى هذه الصناعة

فاستأجروه وأجروه بقدر ما كان يعرف فيها وكان ينفق ذلك فى معاشه ولم يمد يد السؤال لإنسان حتى ذلك الوقت الذى وصل فيه إلى وطنه، وعاد على رأس مملكته وعندئذ أمر بأن ينادى بأن لا يمنع شخص قط ابنه من تعلم الصناعة ولا يرى ذلك عيبا، ففى أوقات كثيرة لا ينفع الرجل الأبوة والشجاعة، وكل علم تتعلمه ينفع يوما ما، وجرى بعد ذلك هذا الرسم فى العجم، ولم يكن ثمت محتشم قط لا يعرف صنعة، فكان يعمل ذلك بالعادة ولو لم تكن له بها حاجة.

فتعلم كل ما يمكنك تعلمه، فإن منافعه تعود عليك، أما إذا بلغ الصبي فتأمله، فإذا كان صالحا وله ميل للزواج وتعرف أنه يستطيع القيام بعمل ويمكنه الحصول منه على شيء وتتوسم فيه الإقبال فدبر زواجه وزوجه لتكون قد أديت هذا الحق أيضا، ولا تصاهر الأقارب واخطب من الغرباء، فإذا صاهرت أقرباءك فهم مثل لحمك، فاخطب من قبيلة أخرى حتى تكون قد جعلت الغريب قريبا، وتصير القوة الواحدة قوتين، ويكون لك أعوان من كلا الجانبين، وإذا عرفت أن ابنك لا يرغب فى الزواج والسعادة فلا تلق بابنة مسلم فى البلاء لأن كلا منهما يرى من الآخر العناء، فدعه حتى يكبر ويفعل ما يشاء، وإن تكن لك بنت فاعهد بها إلى المرضعات المشفقات، واحسن تربيتها، وعندما تكبر سلمها للمعلم ليعلمها أحكام الشريعة وشرط الفرائض ولكن لا تعلمها الكتابة فتكون الآفة الكبرى، وإذا كبرت فاجتهد أن تزوجها سريعا لأن البنت من الخير أن لا تكون، وإذا كانت فمن الخير أن تكون مع الزوج أو فى القبر، كما قال صاحب الشريعة محمد المصطفى صلعم (دفن البنات من المكرمات) أما مادامت فى بيتك فكن رحيما بها لان البنات أسيرات الآباء والأمهات، وإذا لم يكن للبنين أم وأب فإنهم ماداموا بنين يستطيعون رعاية أنفسهم والقيام بعمل من أى وجه يكون، أما البنت فمسكينة ولا تستطيع القيام بأى عمل فكل ما تستطيعه اجعله جهاز ابنتك وانجز عملها، واربطها فى عنق شخص لتتخلص من غمها، أما إذا

كانت ابنتك بكرا فاطلب لها عروسا بكرا كذلك حتى يقيد الزوج قلبه بالزو.
كما تقيد الزوجة قلبها بالزوج ولا يرغب فى أحد سواها ، لأنه لايكون :
عرف غيرها .

حكاية

هكذا سمعت أنهم أتوا بابنة ملك العجم أسيرة من بلاد العجم إلى بلا
العرب ، فأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن تباع ، فلما حملوها إلى السوق
وصل هنالك أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وقال (قال النبى صلعم ليس
البيع على أبناء الملوك) فلما ذكر هـــذا الخبر سقط البيع عن « شهر بانو
وأقاموها عند سلمان الفارسى ليزوجوها ، فلما عرضوا عليها حديث الزوا
قالت « شهر بانو » مالم أر الرجل بعينى فلا أريده ، فاجلسونى على منظ
ومرروا على سادات العرب، فمن يكن موضع اختيارى فهو زوجى ، فأجلسو
على منظر بدار سلمان الفارسى وجلس سلمان عندها وكأن يعرفها بهؤلا
القوم ويقول : هذا فلان وذاك فلان ، وكانت هى تقول عن كل شخص
شيئا ولا تقبله حتى مر عليها أمير المؤمنين وإمام المتقين على بن أبى طالب
رضى الله عنه فسألت من هذا ؟ فقالوا أمير المؤمنين على بن عم حضرة المصطف
صلعم، فقالت شهر بانو : ماأحسنه سيدا وكفء الى ولكن يعرونى الخجل ف
الآخرة من فاطمة الزهراء فلا أريده من هذا الوجه . ثم مر الحسن بن على
فلما علمت بنسبه وسيرته كذلك قالت إنه يليق بى ، ولكنى سمعت أنه مزوا
إلى أن مر الحسين بن على فلما سألت عن حاله قالت ينبغى أن يكون هو زوجى
لأنى لم أتزوج أبدا وهو لما يتزوج أيضا فنحن يليق كل منا بالآخر ، وفى الجا
زوجوها من الحسين بن على .

ولكن يجب أن يكون العروس حسن الوجه لأن البنت الحسناء لا تعطى
قلبها للزوج الدميم ، ومن هنالك تحصل الفضيحة لأنها تعشق شخصا آخر

يكون وسيما ، ويحدث العار ، فينبغي أن يكون العروس جميل الوجه دينا ومن أصل طاهر وصالحا ومن سلالة الأكابر ويجب أن يكون صهرك أقل منك ، ليفخر هو بك لا أنت به ، وحتى تعيش ابنتك فى راحة وجاه وفير ، وإذا كان كما ذكرت ، فلا تطلب منه شيئا ، ولا تكن بائع البنت فإنه هو نفسه لا يتخلى عن مروءته ، فابذل ماتملك واجتهد أن لا تبقى البنت فى بيتك وزوجها سريعا ، وخلص نفسك من المحنة بأسرع مايكون ، واسد إلى جميع أصدقائك عين هذه النصيحة فإن فيها فوائد جمة .

الباب الثامن والعشرون

فى الصداقة واتخاذ الأصدقاء

اعلم يابنى أنه لا بد للناس من الأصدقاء ماداموا أحياء ، لأنه إذا لم يكن للمرء أخ فذلك خير من أن يكون بغير صديق . سئل حكيم : الصديق خير أم الأخ ؟ فقال : الأفضل أن يكون الأخ صديقا أيضا . فتدبر أمر الأصدقاء بتجديد رسم المهاداة وإسداء المروءة،لأن كل من لا يبالى بالأصدقاء يبقى دائما بغير صديق ، فتعود أن تصادق كل إنسان ، إذ بالأصدقاء الكثيرين تستتر عيوب المرء وتظهر فضائله ، وإذا اتخذت أصدقاء جددا فلا تول الأصدقاء القدامى ظهرك لتكون دائما كثير الأصدقاء ، فقد قيل : إن الصديق الكريم كنزعظيم. وفكر أيضافى الناس الذين يسلكون معك طريق الصداقة ويكونون نصف أصدقاء ، فعاملهم بالحسنى والوفاق ، واتفق معهم وانسجم فى كل سراء وضراء حتى إذا مارأوا جميعاً منك المروءة صاروا أصدقاء مخلصين ، لأنه لما سئل الإسكندر : بأية خصلة امتلكت هذه الممالك العديدة فى هذه الأيام القليلة ؟ قال : بامتلاك الأعداء بالتلطف ، وبجمع الأصدقاء بالتعهد . واحبب الأصدقاء الذين يحبون أصدقاءك ، واحذر من الأصدقاء الذين يحبون عدوك، لأنه يحتمل أن تزيد صداقتهم لعدوك ذاك عن صداقتهم لك ، فلا يخشون من الإساءة إليك من قبل عدوك،واحترز من الصديق الذى يجتنبك بغير عذر وحجة ، فلا تعتمد على صداقته. ولا تحسبن فى الدنيا شخصا لاعيب فيه ، ولكن التزم صداقة الصديق الفاضل لأن الفاضل قليل العيب ، ولا تتخذ صديقا غير فاضل فإن الفلاح لا يتأتى من الصديق غير الفاضل. وعد أصدقاء الكأس من جملة الندماء لا من جملة الأصدقاء فإنهم أصدقاء

كأسك لا أصدقاؤك ، وصادق الأخيار والأشرار ، وكن صديقا لكلا الفريقين ، فكن مع فريق الأخيار صديقاً بقلبك واظهر الصداقة للأشرار بلسانك ، لتحصل لك صداقة الفريقين ، لأن حاجات الناس كلها ليست دائما إلى الأخيار ، فقد تقضى حينا حاجة بواسطة الأشرار كذلك ، إذ أن كل عمل لا يتأتى من يد كل شخص [1] ولو أن اتصالك بالأشرار لا يروق الأخيار ، ولا يروق الأشرار اتصالك بالأخيار ، ولكن عش مع كلا الفريقين بحيث لا تتأذى منك قلوب الفريق الآخر ولا تتصل اتصالا كليا بفريق واحد بحيث يعاديك الفريق الثانى واسلك طريق الحكمة والعلم وارع الجانب لتسلم ، ولكن لا تصادق الحمق أبدا ، لأن الصديق الأحمق يعمل بجهله مالا يعمله العدو العاقل. وصادق القوم الأفاضل طيبي العهد حسنى المحضر ، لتكون أنت أيضا معروفا وممدوحا بتلك الفضائل التى يعرف ويمدح بها أولئك الأصدقاء . واعلم أن الوحدة خير من جليس السوء ، كما قيل :

رباعى

أيها القلب ذهبت كما يذهب الوحش فى الصحراء ، ما اغتممت من أجلى ولا من أجل نفسك .

كنت جليس السوء وذهابك خير ، الوحدة خير بكثير من جليس السوء .

* * *

وينبغى أن لا تضيع حق الإخوان وحرمتهم عندك ، لكيلا تستحق الملامة ، فقد قيل : فريقان من الناس يستحقان الملامة : أحدهما مضيع حق الإخوان والآخر الناكر للجميل .

واعلم أنه يمكن معرفة أن المرء يليق بالصداقة أولا بشيئين : أحدهما

---

(١) الترجمة الحرفية « آخر » .

إذا صار صديقه ذاعسرة لا يضن عليه بماله ، ولا يتحول عنه قدر الطاقة فى وقت العسر ، وإذا ارتحل أحد أصدقائه عن الدنيا يتفقد أبناءه ويسأل عنهم ويكثر من الإشفاق عليهم ويذهب فى كل وقت لزيارة تربة ذلك الصديق ولو أنها ليست تربة صديقه ، لأن التربة قالب صديقه .

حكايـــة

هكذاسمعت أنهم كانوا قد ذهبوا بسقراط ليقتلوه ، وكانوا يعذبونه قائلين : اعبد الصنم ، فكان سقراط يقول : معاذ الله أن أعبد صنع الصانع ، وكان جماعة من تلاميذه يسيرون معه وينوحون ، وسألوه قائلين : أيها الحكيم ! الآن وقد وطنت قلبك على القتل فاوصنا أين ندفنك ، فابتسم وقال : إذا كان الأمر بحيث تجدوننى ثانيا فادفنونى حيث شئتم . يعنى أنه لست أنا بل هو قالبى .

وفضلا عن ذلك الزم القصد فى صداقة الناس ولا تعلق أملا على الأصدقاء . ولا تقل إن لى أصدقاء ، وكن الصديق الخاص لنفسك ، وانظر إلى خلفك وأمامك ، ولا تغفل عن نفسك اعتمادا على الأصدقاء لأنه إذاكان لك ألف صديق فإنه لا يكون شخص أكثر صداقة منك لنفسك ، وجرب الصديق فى وقت الضيق لأن كل شخص يحبك وقت السعة ، وكن مع الأصدقاء وقت العتاب كما تكون فى وقت الرضا. وفى الجملة احبب من يحبك ، ولا تفش للصديق شيئا من أسرارك ، لأنه إذا حدث بينكما فى وقت ما خصام وانتهى بالعداوة فإنه يضرك ولا يفيد الندم بعد ذلك ، وإذا كنت فقيرا فلا تطلب الصديق الغنى ، لأنه لا يصادق الفقير أحد ، وخاصة الأغنياء ، فاختر الصديق فى درجتك ، وإذا كنت غنيا ولك صديق فقير فجائز . أمافى صداقة الناس فثبت قلبك وكن مستقيما فى ذلك لتستقيم أمورك ، وإذا انتزع صديق قلبه منك بغير جريرة وآذاك ، فلا تنشغل باسترجاعه فإنه لا يستأهل هذا ، ولا تعول على

من هذه عادته، وابتعد عن الصديق الطامع لأنه يصادقك طمعا ، ولا تصادق الرجل الحقود أبدا فإنه لا يليق بالصداقة ، لأن الحقد لا يفارق قلب الحقود أبدا ولما كان دائما مؤذيا وحقودا فإن صداقتك لا تحل بقلبه . ومادمت عرفت حال وحكم اتخاذ الصديق فاعرف الآن حال العدو وأمره، واستمع جيدا وتذكر واعمل بذلك لتفلح .

الباب التاسع والعشرون

فى الحذر من العدو

اجتهد يابنى أن لا تعادى ، فإن يكن هنالك عدو فلا تخف ، ولا تكن حرج القلب ، فكل من ليس له عدو يكون كما يشتهى العدو ، ولكن لا تغفل عن عمله فى الخفاء والعلن ، ولا تأمن شره ، واشتغل دائما بتدبير المكر به والإساءة إليه ولا تأمن بأى حال من حيلته ومكره ، واستطلع حال العدو ورأيه ونبه إليه سمعك وعقلك ، لتكون قد سددت عليك باب الآفة والبلاء ، ولا تظهر العداوة للعدو ما لم يتبين وجه الأمر تماما ، واظهر نفسك للعدو كبيرا والتزم الغيرة والحمية مهما تكن عاجزا ولا تظهر نفسك من العاجزين . ولا تعتمد على كلام العدو الطيب وصنيعه الجميل ولا تثق بالعدو ولا تنزل البئر بر سنه ، وإذا لقيت السكر من العدو فعده سما ، واخش العدو القوى دائما فقد قيل: يجب الحذر من شخصين ، أحدهما العدو القوى والآخر الصديق الغدار. ولا تحتقر فى الظاهر العدو الحقير ولا تقل من يكون هو ؟ وعاد العدو الضعيف كما تعادى العدو القوى .

حكاية

سمعت أنه كان بخراسان عيار اسمه مهذب ، وكان محتشما ورجلا طيبا ومعروفا ، وذات يوم كان يسير فى الطريق فوطئت رجله قشرة شمام فزلقت قدمه ووقع، فسل المدية وطعن بها قشرة الشمام ، فقال له خدمه : أيها الرئيس ! أنت رجل محتشم وعيار، ألا يخجلك أن تطعن قشرة الشمام بالسكين ؟ فأجاب مهذب : إن قشرة الشمام أوقعتنى فهى عدو ولا يجوز احتقار العدو ، وإن

يكن حقيرا ، فكل من يحتقر العدو سرعان مايصير حقيرا .

فكن دائما فى تدبير هلاك العدو ، من قبل أن يجتهد فى هلاكك ، أما الشخص الذى تعاديه فلا تحقره إذا قهرته ، وحذار أن تظهر عدوك عاجزا فلا يكون لك فخر كثير ، ألا ترى أنه عندما يقوم ملك بفتح فإنه وإن لم يكن الخصم عظيما كما يتصور فإن الكتاب عندما يكتبون كتاب الفتح يسمون الخصم أولا قادرا ويشبهونه بأسد وتنين ، ويطرون عساكر الخصم كثيرا ، ويمدحون بكل ما يمكن من المدح فرسانه ومشاته ، ونضال الجند وقلب وجناح قادة جيش العدو ثم يقولون : إن جيشا بهذه العظمة عندماوصل الملك فلان هزمه كله بحملة واحدة وأباده، ليكونوا قد وصفوا مخدومهم وأظهروا قوة جيشه ؟

حكاية

سمعت يابنى أنه كان بمدينة الرى فى وقت ما امرأة عجوز ، وكانت ابنة ملك وعفيفة وزاهدة وابنة عم أمى وزوجة فخر الدولة ، ولما توفى فخر الدولة بقى له ولد صغير لقبوه بمجد الدولة ، ونادوا به ملكا وكانت أمه تسوس الملك، ولما كبر مجد الدولة ، جاء بئس الخلف ولم يكن أهلا للملك ، وكان يلهو فى البيت مع الجوارى ، وملكت أمه تسعا وثلاثين سنة ، ومقصودى من هذه الحكاية هو إن جدك السلطان محمودا أرسل إليها رسولا وقال : يجب أن تجعلى الخطبة والسكة باسمى وإلا فأجىء وآخذ الرى وأبيدك ، فلماجاء الرسول وأدى الرسالة ، قالت السيدة : قل للسلطان محمود إنى كنت أفكر أنه مادام زوجى فخر الدولة حيا يتراءى لك أن تقصد الرى ، فلما تلقى أمر ربه ، وصار إلى الأمر زال من خاطرى هذا الفكر ، وقلت إن السلطان محمودا ملك عاقل ويعرف أنه لا ينبغى لملك مثله المجىء لحرب امرأة ، لأن الأسد يكون ذكرا ويكون أنثى أيضا ، وإن يأت فإن الحق تعالى عالم بأنى لن أفر ، وإنى لصامدة للحرب ، لأن الأمر لا يخرج عن وجهين ، إما أن يكون لى الظفر أو تقع على الهزيمة ، فإن يكن لى الظفر وأهزمك فإنى أكتب لجميع العالم أنى كسرت السلطان محمودا ، ويكون لى الفخر ، وتكون

أنت السلطان الذى كسر أكثر من مائة ملك وأهزمك أنا الآن ، ويشيع فى العالم إن امرأة قهرت السلطان محمودا وكسرته ويبطل اسمك ، ولا يكون عار قط أسوأ لك من ذلك ، إذ يقولون إن امرأة كسرت السلطان محمودا ، وإن يكن لك الظفر وتكسرنى لن يكون لك فخر وصيت قط ، ولا ينشدون شعر الفتح فى هذا ، لأنه لا يحصل صيت وفخر من كسر امرأة ، فلما أبلغوا السلطان محمودا هذا الكلام وهذه الرسالة ، لم يقصد الرى مرة أخرى طول عمره ، وتعطل ذلك العزم بهذه الكلمة الواحدة .

فلا تحقر عدوك كثيرا ، ولا تكن آمنا منه بأى حال ، وخف على الأكثر العدو الداخلى لأنه لا يتفق للأجنبى فى أمرك ذلك الاطلاع والنظر اللذان يتفقان له ، وعندما ينقطع عنك لا يخلو قلبه أبدا من الحقد عليك ويستفسر عن أحوالك ، ولا يعرف العدو الخارجى ما يعرفه هو ، فلا تصادق أى عدو صداقة خالصة ، ولكن تظاهر بصداقة مجازية ، فلعل المجازى يصير حقيقة ، لأن الصداقة تنشأ من العداوة والعداوة تنشأ من الصداقة ، واجتهد أن يكون أصدقاؤك أضعاف أعدائك ، وكن كثير الصديق قليل العدو ،ولا تغفل أيضا عن عدو واحد بأمل ألف صديق ، لأن الألف صديق يغفلون عن رعايتك ولا يغفل ذلك العدو عن عدواتك ، ولا تبدأ العدو الأقوى منك بالعداوة ولا تتوان عن أن تشتد على من هو أضعف منك ، ولكن إذا طلب عدو منك الأمان فأمنه ولو كان عدوا قاسيا وكان مسيئا إليك ، وعد ذلك غنيمة كبرى فقد قيل : إن العدو المستأمن والعدو الهارب والعدو الميت سواء ،ولكن إذا وجدته ذليلا فلا تقعد عنه كلية . وإذا هلك عدو على يديك يحق لك إذا ابتهجت، أما إذا مات حتف أنفه فلا تسر كثيرا ، وابتهج حين تتحقق أنك لن تموت ، ولو أن الحكماء قالوا : إن كل من يعيش أكثر من عدوه بنفس واحد ينبغى أن يعتبر ذلك غنيمة . أما إذا عرفنا أننا جميعاً سنموت فلا ينبغى أن نسر كثيرا، كما قلت :

رباعى

إن يكن الموت أصعد من شانئك الدخان[1] ، فلم سررت سريعاً بذاك الدخان ؟ ولما كان الموت سيبليك أيضا ، فلم يلزم أن تبتهج بموت الناس ؟

* * *

حكايـــة

سمعت أن ذا القرنين طاف حول العالم وسخره كله له ورجع وقصد دياره. فلما بلغ دامغان أوصى قائلا : ضعونى فى تابوت واجعلوا للتابوت ثقبا واخرجوا يدى من ذلك الثقب مبسوطتى الكفين واحملونى هكذا ليرى الناس أنى امتلكت كل العالم وها أنذا أذهب صفر اليدين . ثم قال : قولوا لأمى إذا أردت أن ترضى عنك روحى فاحزنى على مع من لم يكن مات له عزيز .

فيابنى اكل من ترميه بيدك اسحبه بقدمك[2] ، لأن الحبل مادمت تفتله بحد ومقدار تندمج طياته الواحدة فى الأخرى وعندما تزيد فتله يتقطع بعضه من بعض ، فراع حد الأمور سواء أكان فى الصداقة أو العداوة لأن الاعتدال جزء من العقل الكلى ، وكن حمولا مع السفهاء ولكن كن متمردا مع المتمردين وراع طريق المروءة فى كل أمر تكون ، وأوجب على نفسك كظم الغيظ فى وقت الغضب ، واعرف قدر نفسك ، واعتبر تحمل البارد والحار من الناس عارا ، لأن من لا يعرف قدر نفسه يكون فى رجولته نقصان ، وتحدث بأناة مع الصديق والعدو ، وكن حلو الكلام فإن الكلام الحلو سحر ثان . وتوقع جواب كل ما تقول من خير وشر ، ولا تسمع أحدا كل ما لاتريد أن تسمعه ، وكل ما لاتستطيع قوله أمام الناس لا تقله من ورائهم ، ولا تهدد الناس جزافا ، ولا تفاخر بعمل لم يعمل ولا تقل إنى أعمل هكذا ، فقد قلت :

---

(١) أى أحرقه

(٢) أى كل من أسأت إليه من ناحية أحسن إليه من ناحية أخرى .

رباعی

أيها الصنم! أخرجت حبك من قلبي، وجعلت جبل غمك ذاك كالصحراء[1]
لا أقول لك اليوم كيف سأعمل ، فغدا تعرف إذ أقول لك كيف فعلت .

* * *

واعرف العمل أكثر من الكلام ، ولا تطيلن لسانك على من يستطيع أن يطلق عليك لسانه إذا أراد ، ولا تكن أبدا ذا وجهين ، وابتعد عن ذوى الوجهين ، ولا تخف من التنين النافث ، وخف من النمام ، لأن ما يفتقه فى ساعة لا يمكن رتقه فى سنة ، يقول الحكيم :ـ اعمل بعشر خصال لتنجو من بلايا كثيرة ، أولا لا تحارب شخصا أقوى منك ولو كنت محتشما وعظيما ولا تلج مع من يكون حاد الطبع ولا تصحب البخلاء ولا تناظر الجهلاء ولا تشرب الخمر مع الغيور والمعربد كذلك ، ولا تجالس النساء كثيرا ، ولا تفش سرك لأحد حتى لا تذهب بماء كبريائك وحشمتك ، وإذا أخذ عليك شخص عيبا ، فاجتهد أن تبعده عن نفسك ، ولا تحمل نفسك على التكلف حتى لا تهبط بغير تكلف ، ولا تثن كثيرا على أى شخص بحيث إذا ما اقتضت حاجة أن تذمه وقتا ما لا تستطيع الذم ، ولا تذمه كثيرا أيضا بحيث إذا اقتضت الحاجة أن تمدحه لا تستطيع المدح وكل من يتم له أمر بدونك لا تخوفه بغضبك وعتابك ، لأن كل من يستغنى عنك لا يخاف من غضبك وعتبك ، وإذا خوفت من لا يخاف منك تكون قد هجوت نفسك ، وكل من لا يتم له أمر بدونك لا تستذله كلية ولا تتجبر عليه ولا تضطهد الحسود ، ولا تستعد عليه غضب الآخرين ، وإذا أذنب فاصفح عنه ولا تتلمس الأخطاء لمن هم دونك ، لتسود عليهم ولا ينفروا منك ، واصلح من شأن أتباعك لأنهم

---

(١) يعنى : أيها الحبيب ! أخرجت حبك من قلبى وهدمت ما كان مترا كما فيه من تباريح العشق كالجبل وسويته بالأرض .

ضياعك ، فإذا عمرت ضياعك ، صلح شأنك ، وإذا خربت الضياع تصير مملقا معدما ، والخادم المطيع المخطىء خير من المصيب العاصى . وإذا أمرت بشغل ، فلا تأمر به شخصين ليبتعد عنه الخلل ، فقد قيل : لا يغلى القدر بشخصين كما أن البيت لا يكنس بسيدتين ، وقد قال الفرخى :

بيت

البيت الذى فيه سيدتان ، ترى فيه التراب دائما إلى الركبتين .

* * *

وإذا كنت فى عمل فلا تطلب مساعدا وشريكا حتى لا يدخله خلل ويحمر وجهك خجلا أمام سيدك دائما ، وكن كريما مع الصديق والعدو ولا تغضب بشدة لأخطاء الناس ، ولا تلف كل كلمة على أصبعك [1] ، ولا تصمم على العقوبة بكل حق وباطل وارع طريق الكرم لتكون ممدوحا فى كل زمان .

---

(١) أى لا تأبه بكل ما يقال وتجعل لكل كلمة أهمية .

الباب الثلاثون

فى العفو والعقوبة

أى بنى ! لا توجب على التماس العقوبة فى كل ذنب ، وإذا أذنب إنسان فالتمس لذنبه عذرا فى قرارة نفسك ، لأنه آدمى كذلك وأول ذنب ظهر فى الوجود كان من أبينا آدم عليه السلام .

رباعى

إذا أقصيت يوما عن حضرتك ندم قلبى على ذلك مائة مرة

أيها الحبيب لا تعرض عن عبدك لذنب واحد ، فإنى آدمى وأول من أذنب آدم .

* * *

ولا تعاقب بالباطل حتى لا تصير مستوجب العقوبة بغير جريرة ، ولا تغضب لكل شىء . وتعود كظم الغيظ وقت الضجر ، وإذا طلب منك العفو عن ذنب فاعف واوجب على نفسك العفو وإن يكن ذنباً فاحشا ، لأنه إذا لم يذنب العبد لا يظهر عفو الله ، وإذا جازيت على جرم فأين فضلك حينذاك ؟ وإذا أوجبت العفو فإنك لا تخلو من الشرف والعظمة ، وإذا عفوت عن أحد فلا تؤنبه ولا تذكر ذلك الذنب لأن ذلك يكون بمثابة عدم العفو ، أما أنت فاجتهد أن لا تذنب فتدعوك الحاجة إلى طلب العفو ، وإذا فعلت فلا تأنف من الاعتذار ، لتنقطع الخصومة ، أما إذا ارتكب شخص ذنباً يستوجب العقوبة فانظر إلى حد ذنبه وزن بالعقوبة على قدر الذنب ، فإن أرباب الإنصاف قالوا : يجب توقيع العقوبة على قدر الذنب أما أنا فأقول :

إذا ارتكب شخص ذنبا وصار بذاك الذنب مستوجب العقوبة فلا تعاقبه على ذلك ، واعف عنه لتكون قد سلكت طريق الحلم والمرحمة ، وإذا عاقبت ولم تر العفو لازماً ، فاعمل على أى حال بحيث تأمر بنصف درهم من العقوبة لدرهم من الذنب لتكون من الكرام ومن الساسة أيضاً ، ولا يليق أن يعمل الكرماء عمل غير الرحماء .

حكاية

سمعت أن قوما كانوا قد أجرموا فى أيام معاوية جرما أوجب عليهم القتل ، فأمر معاوية بضرب رقابهم أمامه ، ففى تلك الساعة التى كانوا يقتلون فيها أتوا برجل أمامه ليقتلوه ، فقال الرجل : كل ما تريد أن تفعل بنا فهو جزاؤنا ونحن مقرون بجرمنا ، ولكن اسمع منى كلمتين لوجه الله تعالى وأجب ، فقال معاوية قل ، فقال ذلك الرجل المجرم: لقد عرف كل العالم حلمك وكرمك ، إذا كنا قد ارتكبنا هذا الجرم مع ملك لم يكن كريما وحليما مثلك فماذا كان يفعل بنا ؟ فقال : كان يفعل ما أفعله ، فقال الرجل : إذاً فما يفيدنا حلمك وكرمك وأنت تفعل عين ما يفعله ذلك الغاشم ؟ فقال معاوية لو قال الرجل الأول هذا الكلام لعفوت عن الجميع ، والآن قد عفوت عن هؤلاء الذين تبقوا جميعاً .

فإذا طلب المجرم المعذرة فيجب أن تجيبه ولا تر ذنباً قط يجل عن المعذرة ، وإذا وقعت لمحتاج إليك حاجة من الممكنات التى لا تضر بالدين ولا ينجم عنها خلل فى المهمات الدنيوية فلا تؤيس قلبه من أجل عرض الدنيا ولا ترده دون قضاء حاجته ولا تخيب ظنه فيك ، لأن ذاك الرجل لا يطلب إليك حاجة ما لم يظن بك خيرا ، وهو أسيرك وقت عرض حاجته فقد ، قيل : الاحتياج أسر ثان . ويجب الرفق بالأسرى فإن قتل الأسير ليس محمودا بل مذموما ، فلا تجز التقصير فى هذا المعنى لتلاقى محمدة كلا الدارين ، وإن تكن بك حاجة إلى شخص فانظر أولا ، هل ذلك الرجل كريم أو لئيم ، فإن يكن رجلا

كريماً فاسأل حاجتك ولكن ارتقب الفرصة ، فلا تسأله وقتما يكون مهموما ولا تسأله كذلك قبل الطعام على جوع ليكون هناك أمل فى الإجابة، ولا تطلب غير الممكنات ، وفكر جيدا فى الكلام عند طلب الحاجة واحسن التمهيد له أولا ، ثم تحدث إليه بإيجاز وانصرف ، وتلطف كثيرا فى الحديث لأن التلطف فى طلب الحاجة هو الشفيع الثانى ، وإذا عرفت كيف تطلب الحاجة فإنك لا تعود بأى حال دون قضائها ، كما قلت دوبيتا :

رباعى

إذا أردت أيها القلب الوصول إلى الحبيب وأن تصل بغير عناء إلى ذلك البدر التمام ، فعش على مراده بأى حال أيها القلب ، لأنك إذا عرفت طلب المراد بلغت المراد .

* * *

وكن لكل من تحتاج إليه كأسيره وخادمه، إذ أننا نتعبد لله تعالى لأن بنا حاجة إليه ، ولو لم تكن الحاجة لما اتجه أى إنسان نحو الطاعة ، وإذا نلت الإجابة فاشكر على كل حال لأن الله تعالى يقول : (لئن شكرتم لأزيدنكم) والله تعالى يحب الشاكرين ، والشكر على الحاجة أولا وأمل إجابة الحاجة ثانياً ، وإذا لم يقض حاجتك فاشك بختك ولا تشك منه ،لأنه لو كان يخشى شكواك لقضى حاجتك ، وإذا كان الرجل بخيلا ولئيما فلا تطلب منه أى شىء فى حالة الصحو فإنه لا يعطيك ، واسأله وقت السكر لأن اللئام والبخلاء يسخون وقت السكر ولو أنهم يندمون فى اليوم التالى ، وإذا وقعت لك حاجة إلى لئيم فاعرف أنك فى موضع الرحمة، فقد قيل : ثلاثة أشخاص فى موضع الرحمة ، أحدهم عاقل تحت يد أحمق ، والآخر عظيم قد استولى عليه ضعيف ، وكريم محتاج إلى لئيم . واعلم أنه لما انتهيت من هذه الكلمات التى ذكرتها فى المقدمة أوردت فصلا من كل نوع حسب طاقتى وأردت أن أؤدى حق الكلام تماما وأتكلم عن الحرف كذلك لتقرأها وتعرفها أيضاً ، فلعله تمس الحاجة إليها ،

ولو كنت أعرف علم الأولين والآخرين لعلمته إياك وصيرته معلوما لديك لكى أرحل عن هذه الدنيا وقت الموت أقل غماً ، ولكن ماذا أعمل وأنا راجل فى العلم ، وإذا كنت أعرف شيئاً أيضا فماذا يفيد قولى ؟ وإذا سمعت منى كما سمعت أنا من أبى فلا لوم عليك لأنى أنصف من نفسى ، أما إذا سمعت أو لم تسمع فإنى سأقول بضع كلمات فى كل باب حتى لا أكون قد بخلت بالكلام وحتى أكون قد قلت ما يكون قد تجلى فى طبعى .

الباب الحادى والثلاثون

فى طلب علم الدين والقضاء وغير ذلك

اعلم يابنى أنى قلت فى أول الكلام إنى سأتحدث عن الحرف أيضا وليس الغرض من الحرفة عمل الدكان بل إن كل عمل يباشره المرء يكون من قبيل الحرفة، إلا أنه يجب أن يعرف ممارسة ذلك العمل جيدا حتى يمكنه أن يطعم منه الثمرة، والآن كما أرى لا توجد أية حرفة أو عمل يطلبه ابن آدم وتكون تلك الحرفة مستغنية عن الشهرة والنظام والصدق . فلا بد لها جميعا من الترتيب .

والحرف كثيرة ولا يمكن شرح كل واحدة على حدة لأن الكتاب يطول ويخرج عن طبيعة أصله، ولكنها مهما تكن لا تخرج عن ثلاثة وجوه : فهى إما علم يتعلق بالحرفة وإما حرفة تتعلق بالعلم، وإما حرفة بذاتها[1].

أما العلم الذى يتعلق بالحرفة فمثل الهندسة والطب والمساحة والشعر وما أشبه هذا، والحرفة التى تتعلق بالعلم مثل الغناء والبيطرة والبناية وحفر القنوات وغير ذلك، ولكل منها أسباب ووسائل ، وإذا لم تعرف رسمها وأسبابها فإنك تكون فى ذلك الباب كالأسير مهما تكن أستاذا . والحرف الخالصة معروفة بذاتها ولا حاجة لشرحها، ولكى أطلعك على أسباب كل واحدة بقدر ما يستطاع لأنها لاتخرج عن اثنتين : فإذا وقعت لك حاجة من اتفاق الأيام وحوادث الزمان تكون عارفا بأسرار كل منها فى وقت الحاجة، وإذا لم تكن ثمت حاجة وكنت من السراة فإنه لابد للسراة من معرفة علم

---

(١) الترجمة الحرفية : برأسها .

الحرف . واعلم يابنى بأنه لا يمكنك أن تطعم ثمرة من أى علم إلا علم الآخرة وإذا أردت أن تطعم ثمرة من العلم الدنيوى فإنك لا تستطيع إلا بالحرفة التى تمزجها به مثل علم الشرع والقضاء والقسمة والخطابة والوعظ، ولا يصل إليها كل إنسان، ومن يصل إليهافإن فائدة ذلك تكون كثيرة. وفى النجوم والتقويم والعرافة لا يصل إلى المنجم نفع دنيوى مالم يدخل فيها زخرف الجد والهزل، وما لم يدخل فى الطب الجس والفحص والتمويه وإعطاء الإهليج بالصواب وغير الصواب ،لا يحصل مرادالطبيب الدنيوى. فأجل علم هو علم الدين لأن أصوله على الدوام التوحيد وفروعه أحكام الشرع وحرفته نفع الدنيا والآخرة . فيابنى درما استطعت حول علم الدين لتظفر بالدنيا والآخرة ، وإذا وفقت فقوم أولا أصول الدين ثم الفروع ، لأن الفروع بغير الأصول تقليد . فإذا كنت طالب علم من الحرف التى ذكرتهافكن متعففا وقانعاً ومحباً للعلم وعدوا للدنيا وحمولا وخفيف الروح وساهرا ومبكرا وحريصا فى الكتابة والدراسة ومتواضعا وغير ملول من العمل وحافظا ومكررا للكلام ومتفحصاً للسير ومتجسسا الأسرار ومحبا للعلماء ووقورا ومحترما ، وكن فى التعلم حريصا وغير خجول وعارفا لحق الأستاذ ، وينبغى أن يكون معك دائما الكتب الوافرة والقلم والمبراة والمقلمة والمحبرة والسكين والفرجار وقلم الجدول والمسطرة وما أشبه هذه الأشياء ، ولا ينشغل قلبك بشىء آخر غير هذه ، وتعلم كل ما تسمعه وكن قابل الكلام بعيد التفكير ولا ترض بالتقليد وكل طالب علم بهذه الصفة سرعان ما يصير فريد العصر .

فصل

إذا كنت عالم فتوى فكن دينا وكثير الدرس والحفظ ومتعبدا ومصليا وصائما ولا تتجاوز عن ذلك، وكن ورعا وطاهر الثوب وحاضر الجواب، ولا تفت فى أية مسألة بغير حجة وما لم تفكر جيدا، ولا تقنع بتقليد أحد، واعتز برأيك ولا تقنع بالوجهين والقولين ، ولا تعمل بغير قول الثقات ولا تعتبر كل كتاب وجزء ، وإذا سمعت رواية فانظر إلى رواة الحديث ، ولا تسمع

الحديث المجهول من الراوى المعروف ولا تعتمد على خبر الآحاد اللهم إلا الرواة الثقات ، ولا تتهرب من الخبر المتواتر وكن مجتهدا ولا تتعصب كثيراً ولا تتكلم عن تعصب ، وإذا ناظرت فانظر إلى الخصم ، فإذا كانت لك قوته وعرفت أنك ترجحه فى الكلام فتداخل فى المسائل وإلا فتوقف عن الكلام. ولا تقنع بمثال واحد ولا تقل بالحجة الواحدة طردا وعكسا ، واحفظ الكلام الأول حتى لا تفسد الكلام الأخير، وإذا كانت المناظرة فقهية فقدم الآية على الخبر والخبر على القياس وتكلم بالممكنات ، ولا يكون عيبا فى المناظرة الأصولية جمع الموجبات وغير الموجبات والممكنات ، واجتهد أن تصير الفرض معلوماً وقل الكلام مرتبا ولا تقله أبتر وكذلك لا تتكلم طويلا وبغير جدوى .

فصـــل

إذا كنت مذكرا فكن حافظا واحفظ كثيراً ولا تجادل وأنت على الكرسى ولا تناظر ولو كنت تعرف أن الخصم ضعيف ، وادع ماتشاء على الكرسى وإن يكن هنالك سائل فلا خوف ، واجعل لسانك فصيحاً واعتبر كذلك أن هؤلاء القوم الذين فى مجلسك بهائم كلهم وقل كيفما تريد حتى لا تعجز فى الكلام، ولكن اجعل بدنك وثوبك نظيفين واستحضر المريدين والمهللين بحيث يكونون جالسين دائما فى المجلس ليهللوا لكل نكتة تقولها ويجعلوا المجلس حامياً ، وإذا بكى الناس فابك أنت أيضا من وقت لآخر ، وإذا عجزت فى القول فلا تخف ، واشتغل بالصلوات والتهليل ولا تكن عابس الوجه حتى لا يكون أولئك الذين فى مجلسك ثقال الروح عابسى الوجوه مثلك، لأنهم قالوا (كل شىء من الثقيل ثقيل) وكن متحركا فى وقت الحديث ولا تكن سريع الوهن فى أثناء الحماس ، وانظر دائما إلى المستمع فإذا أراد المستمع المضحكة فاضحكه وإذا أراد الخرافة فقص عليه الخرافة وقل كل مايرغب فيه العامة [1] وإذا

(١) الترجمة الحرفية — كل مايكون العامة مشترين له .

وقع القبول فلا تخف وبع أسوأ الكلام كأحسن شيء ، إذ أنهم يشترونه فى وقت القبول ولكن كن حذرا فى القبول، لأن خصم المذكرين يظهر فى القبول، ولا تقر فى مكان لا تلق فيه قبولا، وكل سؤال يسألونه وأنت على الكرسى أجب عما تعرفه والذى لا تعرفه قل إن مثل هذه المسألة لا تسأل على الكرسى، تعال إلى البيت لأجيبك ، فإنه لا يأتى إلى البيت أحد ، وإذا تعنتوا وأكثروا الكتابة فمزق الرقعة وقل إن هذه مسألة الملاحدة والزنادقة وسائل هذه المسألة زنديق، فيقول الجميع لتكن اللعنة على الزنديق والملحد، فلا يجرؤ أحد أن يسأل منك مسألة بعد ذلك ، وتذكر الكلام الذى قلته مرة فى المجلس حتى لا يتكرر مرة أخرى وكن ناضر الوجه فى كل وقت. ولا تقم كثيرا بالمدن لأن أرزاق المذكرين والعرافين فى أقدامهم وقبولهم فى وجوههم. وحافظ على نضارة التذكير وناموسه واجعل جسدك وثوبك نظيفين دائما وحافظ جيدا كذلك على المعاملة الشرعية فى الظاهر والباطن ، واكثر من نوافل الصلاة والصوم وكن ذلق اللسان، ولا تكثر المقام فى السوق لأن العوام يمرون به كثيرا، لتكون عزيزا فى أعين العامة ، واحترز من قرين السوء وراع أدب الكرسى ، وقد ذكرنا هذا الشرط فى مكان آخر . وابتعد عن التكبر والكذب والرشوه ومر الخلق بعمل ما تعمله أنت لتكون عالما منصفا ، واعرف العلم جيدا ، واستعمل ما عرفته بعبارة حسنة لئلا تخجل بالادعاء الباطل ، وقل كل ما تقوله فى الحديث والوعظ بالخوف والرجاء ، ولا تؤيس الخلق كلية من رحمة الله تعالى ، ولا ترسل الناس كذلك بغير طاعة إلى الجنة جملة ، وتحدث على الأكثر بما تكون ماهرا فيه ويكون معلوما لك جيدا لأن ثمرة الدعوى بغير حجة الخجل ، وإذا بلغت فى العلم درجة كبيرة وصرت قاضيا، فكن إذا نلت القضاء حمولا ومترويا وحاد الفهم وبارعا وصاحب تدبير وبعيد النظر وعارفا بالناس وصاحب سياسة وعالما بعلم الدين وعارفا طريقة كل طائفة، وكن خبيرا باحتيال كل جماعة وترتيب كل قوم وكل مذهب، وينبغى أن تكون حيل القضاة معلومة لك حتى إذا ماجاء مظلوم للحكم وليس له شاهد وسيجرى عليه ظلم ويبطل ،

حق من حقوقه تغيث ذلك المظلوم وتبلغ بالتدبير والحيلة ذلك المستحق إلى حقه .

حكاية

كذلك كان بطبرستان قاضى القضاة، وكان يقال له أبو العباس الرويانى وكان رجلا مشهورا وعالما وورعا وبعيد النظر ومدبرا ، فجاء مرة رجل إلى مجلسه وادعى على شخص مائة دينار ، فسأل القاضى الخصم فأنكر ، فقال القاضى للمدعى أعندك شاهد ؟ قال لا ، فقال القاضى: إذا أحلف الخصم ، فبكى المدعى ضارعا وقال : أيها القاضى ! لا تحلفه لأنه يقسم كذبا ولا يخاف ، فقال القاضى! أنا لا أستطيع الخروج عن الشريعة ، فإما أن تلزمك البينة وإما أن أحلفه ، فتمرغ المدعى أمام القاضى فى التراب وقال : حذار ! ليست لى بينة وهو يقسم كذبا وأبقى أنا مظلوما فدبر أمرى ، فلما رأى القاضى توسل ذلك الرجل على هذه الجملة ، عرف أنه يقول الصدق فقال : أيها السيد ! قص على قصة ذلك الدين بالحق لأعرف كيف كان أصل ذلك الأمر ، فقال : أيها القاضى! لقد كان هذا الرجل صديقى عدة سنوات ، فاتفق أن عشق جارية ، وكانت قيمة تلك الجارية مائة وخمسين دينارا ولم يكن معه مال قط وكان يبكى ليل نهار كالواهين وينوح ، وذات يوم ذهبنا للتنزه ، وكنت أنا وهو نتجول وحدنا بالصحراء وجلسنا زمنا ، وكان هذا الرجل يتحدث عن الجارية ويبكى بحرقة ، فرق له قلبي [1] لأنه كان صديقى عشرين سنة ، فقلت أيها الصديق ! ليس لك مال وليس لدى ثمنها كاملا وأنت لا تعرف أى شخص يغيثك فى هذا المعنى ، أما أنا فلى فى كل ما أملك مائة دينار جمعتها فى سنوات طوال ، فأعطيك هذه المائة دينار ودبر أنت الباقى حتى تشترى الجارية وتنال منها مرادك شهراً وتبيعها بعد شهر وترد إلى مالى ذاك . فتمرغ هذا الرجل

---

(١) الترجمة الحرفية : احترق قلبى عليه .

أمامى فى التراب وأقسم قائلا : أملكها شهراً و أبيعها بعد ذلك إذا اشتروها بالخسارة أو الربح وأرد لك مالك ، فحللت الذهب عن وسطى وأعطيته له وكنت أنا وهو والحق تعالى ، والآن مر على ذلك أربعة شهور فلا أنا أرى المال ولا هو يبيع الجارية ، فقال القاضى : وأين كنت جالسا فى ذلك الوقت ، الذى أعطيته فيه المال ؟ قال : تحت شجرة ، فقال القاضى ، ما دمت كنت تحت شجرة فلم قلت ليس عندى شاهد ؟ ثم قال للخصم اجلس لدى ، وقال للمدعى : لا تشغل قلبك واذهب تحت تلك الشجرة وصل ركعتين أولا وصل على النبى مائة مرة ، ثم قل لتلك الشجرة إن القاضى يقول أن تعالى واشهدى ، فتبسم الخصم ، فلمحه القاضى وتغاضى وتغافل ، فقال المدعى : أيها القاضى ، إنى لأخشى أن لا تأتى الشجرة بأمرى ، فقال القاضى : هذا خاتمى فاحمله وقل للشجرة إن هذا خاتم القاضى ويقول أن تعالى وأدى الشهادة التى عليك أمامى ، فأخذ المدعى خاتم القاضى وذهب وجلس الخصم هناك عند القاضى ، وانشغل القاضى بالأحكام الأخرى ولم يلتفت إلى هذا الرجل إلى أن التفت مرة بغتة إلى ذلك الرجل فى أثناء حكم كان يحكم به وقال : أيكون فلان قد وصل هناك ؟ فقال : لم يصل بعد أيها القاضى ، وانشغل القاضى بالحكم . فعرض الرجل خاتم القاضى على الشجرة وقال : القاضى يدعوك ، فلما جلس زمنا عرف أنه لن يسمع جوابا من الشجرة ، فعاد مغموما وجاء أمام القاضى وقال : أيها القاضى ! ذهبت وعرضت الخاتم فلم تأت ، فقال القاضى : أنت مخطىء فقد جاءت الشجرة وشهدت ، والتفت إلى الخصم وقال : أد مال هذا الرجل ! فقال الرجل : مذ جلست هنا لم تأت شجرة قط ولم تشهد ، فقال القاضى : إذا كنت لم تأخذ هذا المال منه تحت تلك الشجرة فلم قلت حينما سألتك أيكون هذا الرجل قد وصل إلى الشجرة « لا بعد » ، لأن المسافة من هنا إلى هناك بعيدة ؟ ولم لم تقل أية شجرة ؟ وأنا لا أعرف شجرة قط أخذت منه تحتها مالا وأنا لا أعلم أين ذهب ؟ فألزم ذلك الرجل الحجة وأخذ منه المال وأعطاه لصاحبه .

فالأحكام لا تؤخذ كلها من الكتاب ويجب أن يستنبطوا بأنفسهم مثل هذه الاستنباطات ويدبروا التدابير، وكذلك ينبغى أن تكون فى بيتك متواضعا جدا، أما فى مجلس الحكم فكلما كنت أكثر هيبة وعبوسا وأقل ابتساما كان أفضل لتكون ذا جاه وحشمة، وكن وقورا قليل الكلام ولا تمل البتة استماع الكلام والحكم، ولا تبد من نفسك الضجر واصبر ولا تعتمد على رأيك فى مسألة تعرض واستشر المفتين أيضا ونور رأيك على الدوام ولا تخل أبدا من درس المسائل والمذهب واحفظ التجارب كذلك كما ذكرت، لأن رأى القاضى فى الشريعة مساو لرأى الشرع، وكثيرا ما يكون إذا جاء الحكم ثقيلا على رأى الشرع أن يخففه القاضى، ويجوز ذلك عند ما يكون القاضى مجتهدا، فيجب أن يكون القاضى زاهدا ومتقيا وورعا ومجتهدا وأن لا يحكم فى عدة أوقات: أحدها عند الجوع والعطش وثانيها وقت الخروج من الحمام وثالثها وقت الكدر والمشاغل الدنيوية التى تعرض له، ويجب أن يكون له وكلاء نشطون ولا يسمح فى وقت الحكم بأن تقص لديه القصص والحكايات وتشرح الأحوال، لأن على القاضى إجراء الحكم لا التفحص، إذ كثيرا ما يكون عدم التفحص خيرا من التفحص، وأن يوجز الكلام ويحيل فورا على الشاهد واليمين، وحيثما يعرف أن المال كثير والناس غير متقين يجرى كل تجربة وتجسس يعرفهما ولا يقصر قط ولا يتساهل ويجعل معه على الدوام المعدلين الأخيار، ولا ينقض الحكم المبرم أبدا ويجعل أمره قويا ومحكما ولا يكتب بيده قبالة ومنشورا أبدا إلا ان تكون ضرورة، ويجعل خطه عزيزا ويسجل كلامه، وخير فضيلة للقاضى العلم والورع، فإذا لم تزاول هذه الصناعة أيضا ولم تجد هذا التوفيق ولم تحترف الجندية كذلك فاسلك عندئذ طريق التجارة فلعلك تلقى منها النفع، لأن ما يكون من التجارة حلال ومستحسن عند كل إنسان كذلك.

الباب الثاني والثلاثون

في التجارة

أى بنى ! ولو أن التجارة ليست بحرفة يمكن أن يقال لها صناعة مطلقة إلا أنه إذا نظرت إليها بعين الحقيقه فإن رسومها مثل رسوم المحترفين ، ويقول الأذكياء إن أصل التجارة مبنى على الجهل وفروعها على العقل ، كما قالوا : (لولا الجهال لهلك الرجال) يعنى لو لم يكن الجهال لفسدت الدنيا ، والمقصود من هذا الكلام إن التجار طمعا فى زيادة المال ، يحملون الأشياء من الشرق إلى الغرب ، ويخاطرون بأرواحهم فى الجبال والبحار ولا يخشون اللص والصعلوك ، ولا يخافون الحيوان المفترس للناس ، ولا عدم أمن الطريق ، ويوصلون لأهل المغرب نعمة المشرق ، ولأهل المشرق نعمة المغرب ، ليكون بهم تدبير عمران الدنيا ، وهذا لا يكون بغير التجارة ويقوم بمثل هذه الأعمال الخطرة من كانت عين عقلة مغمضة .

والتجارة نوعان ، وكلاهما مخاطرة ، أحدهما المعاملة والآخر المسافرة ، والمعاملة للمقيمين الذين يشترون المتاع الكاسد طمعا فى الزيادة ، وهذه مخاطرة بالمال ويلزم لذلك رجل جرىء وبعيد النظر يخوله قلبه أن يشترى شيئاً كاسدا طمعا فى الزيادة ، وقد ذكرت ماهى المسافرة ، وعلى كلا الوجهين يجب أن يكون التاجر جريئا غير وجل على المال والنفس وينبغى أن يكون أمينا ، ولا يرغب فى إضرار الناس من أجل نفعه ولا يعرض نفسه لملامة الخلق طمعا فى ربحه؛ ويعامل من هم دونه ، فإذا تعامل مع أكبر منه فليتعامل مع شخص ذي أمانة وديانة ومروءة ، ويحترز من المخادعين ، ولا يتعامل مع من لا خبرة

له فى البضاعة حتى يأمن دق الباب ، ولا يتعامل مع قليلى البضاعة والسفيه ولا يعامل الأصدقاء الحميمين ؛ وإذا فعل فليقطع الطمع من الربح حتى لا تفسد الصداقة ، فما أكثر ما فسدت الصداقة بسبب قليل من الربح والخسارة ، ولا يتعامل بالنسيئة طمعا فى الزيادة ، إذ كثيرا ما تثمر الزيادة النقصان ، ولا يدقق فى التوافه لأن التدقيق فى التوافه ضرر بليغ ، كما أقول :

رباعى

قلت إذا ابتعدت عنه ، فلعل قلبي لا يقاسى بعد ذلك صداعه .

فمنذ ابتعدت عنه وأنا بعيد عن النوم والطعام ، وكثيرا ما يكون الضرر من التدقيق فى التوافه .

* * *

وأصل فساد التجارة فى التبذير ، فما لم يتحصل شيء من الربح لا ينبغى الأكل من رأس المال ، لأن أكبر ضرر للتاجر يتأتى من أكل رأس المال ، واعلم أن خير المتاع ما يشترى بالمن والرطل ويباع بوزن الدرهم، وأسوأ المتاع ما يكون على خلاف هذا ؛ واحترز من شراء الغلة بأمل الربح ، لأن كل من يبيع الغلة يكون دائما سيء السمعة والنية ؛ وأكمل الناس دينا من لا يكذب على المبيع [1] لأن الكذب على المبيع [1] غير مستحسن عند الكافر والمسلم ، كما قلت بيتين فى هذا المعنى .

نظم

يامن ألقى عشقك فى قلبي النور وألقى اهتمامى بك على عنق النير !

لقد ابتعت عشقك بروحى وقلبي ، وأنت تعرف أنه لا يكذب على المبيع [1] .

* * *

(١) فى الأصل (المشترى) واخترنا كلمة المبيع للمناسبة . وباع من الأضداد كذلك وتؤدى معنى البيع والشراء

ويجب أن لا يسلم شيئا قط قبل إتمام البيع، وأن لا يخجل فى المعاملة ، فقد قال الأذكياء : الحياء يقل الرزق . ولا يعتاد الحيطة من الزيادة ولكن لا يقل المروءة كذلك فى طريقته. فقد قال متصرفو هذه الصناعة : إن أصل التجارة التصرف والمروءة ، التصرف يحفظ المال والمروءة تحفظ الجاه .

حكاية

كذلك سمعت فى حكاية أن تاجرا تعامل يوما بألف دينار فى دكان بياع، فلما تمت الصفقة وقع خلاف بين التاجر والبياع فى الحساب على قيراط من الذهب، فقال البياع: لك على دينار ذهب ، فقال التاجر : دينار وقيراط، واستمر الكلام فى هذا الحساب من الصباح حتى صلاة الظهر ، وكان التاجر يصدع البياع ويصيح ولم يتحول عن قوله قط إلى أن ضجر البياع وأعطاه دينارا وقيراطا ، فأخذ التاجر المال وذهب ، وكل من كان يرى هذا كان يلوم ذلك التاجر ، ولما ذهب التاجر جرى خلفه صبى البياع وقال : أيها السيد ! اعطنى الحلوان [1] فأعطاه التاجر هذا الدينار والقيراط ، وعاد الصبى ، فقال البياع : أيها الصبى ! إن هذا الرجل كان يتعب نفسه من الصباح إلى منتصف النهار من أجل قيراط ولم يخجل وسط الجمع، فهل طمعت أنت أن يعطيك شيئا ؟ فأظهر الصبى الذهب ، وحار [2] الرجل وقال لنفسه : إن هذا الصبى ليس وسيما وهو صغير جدا ولا يمكن إساءة الظن به ، فلم فعل هذا الرجل هكذا مع هذا البخل ؟ وبعد ذلك رأى البياع ذاك التاجر وقال : أيها السيد ! رأيت منك شيئا عجيبا ، إنك أتعبتنى يوما بين جماعة من الصباح حتى صلاة الظهر من أجل قيراط ذهب ثم وهبته كله لصبى فلم كان ذاك الصداع ، وما هذا السخاء؟

---

(١) شاكر دانه

(٢) الترجمة الحرفية: عجز .

فقال : لاتعجب أيها السيد منى ، فأنا رجل تاجر ، وفى شرط التجارة إنه إذا غبن شخص فى درهم وقت البيع والشراء والتصرف يكون كمن قد غبن فى نصف عمره ، وإذا ظهرت النذالة من شخص فى وقت المروءة ، يكون ذلك كما لو أنه قد شهد على دنس أصله ، فلم أرد غبن العمر ولا دنس الأصل .

أما التاجر القليل البضاعة فينبغى أن يحترز من المشاركة، وإذا فعل فليكن مع شخص ذى مروءة وغنى وحياء ، حتى لا يحيف عليه فى وقت القسمة ، ولا يشترى فى حداثة رأس ماله متاعا يستنفد منه واحدا فى المائة وتصير له نفقات كثيرة ، ولا يبتاع شيئا يطرأ عليه التغيير ولا يشترى مال الميت والمفلس ولا يجرب الحظ فى رأس المال ، إلا أن يعلم أنه إذا صارت خسارة لا تكون أكثر من نصف رأس المال، وإذا أعطوه كتابا قائلين أوصله إلى المكان الفلانى ، يقرأ الكتاب أولا ثم يأخذه ، إذ أن فى الكتاب المقفل بلايا كثيرة ، ولا يمكن أن يعرف كيف يكون الحال ، أما رسائل المحتاجين فلا يغدر فيها ، ولا يخبر عن سوء فى كل مدينة يدخلها ، وإذا دخل من طريق فلا ينعى أحدا ولا يقصر فى خبر التهنئة ، ولا يسير فى الطريق الخارجى بغير رفيق ، وينزل بين الجمع فى القافلة ويضع القماش فى المكان المزدحم ، ولا يذهب أو يجلس بين المسلحين لأن الصعلوك يقصد المسلح أولا ، وإذا كان راجلا لا يصحب الراكب ، ولا يسأل الطريق من الغرباء، إلا من شخص يتوسم فيه الصلاح ، فكثيرا ما يكون رجل خبيث يضلل الناس الطريق ، ويأتى من خلفهم ويسلب البضاعة ، وإذا اعترض الطريق شخص يسلم عليه بوجه طلق ، ولا يظهر له نفسه فى اضطراب وعجز ، ولا يخون الحراس ، ولكن لا يقصر فى خداعهم بالجرأة والكلام الطيب، ولا يخرج إلى الطريق بغير زاد ومؤونة ، ولا يذهب فى الصيف ما لم يصحب معه ملابس الشتاء ، ولو كان الطريق عامرا جدا ، ويرضى المكارى ، وإذا نزل بمكان لا يعرفه ويخشاه ، يتخير بياعا أمينا ، وينبغى أن يصاحب ثلاث طوائف من الناس ، الفتيان والعيارين ، والأغنياء وذوى المروءة ، والأدلاء

والعارفين بالبلاد ،واجتهد أن تعتاد البرد والحر والجوع والعطش،ولا تسرف في الراحة،حتى إذا ما أصابك في وقت ما بحكم الضرورة نصب يكون أيسر عليك، وكل عمل تستطيع أن تعمله اعمله بنفسك ولا تأمن لأحد ، لأن الدنيا سريعة الخداع ، أما رأس مال التجارة فالصدق ، وكن نشطا في البيع والشراء وثقة وصادقا، وكثير الشراء فالبيع ، ولا تتعامل مااستطعت بالنسيئة ، فإذا فعلت فلا تتعامل مع بضعة أصناف من الناس : مع الفقهاء والعلويين ، ومع حديثي النعمة وقليلي المال ووكلاء القاضي الخواص والصبيان والخدم ، لا تتعامل مع هؤلاء القوم قط بالنسيئة ، وكل من يفعل ذلك لا ينجو من الصداع والندم ، ولا تأمن المحرومين على أموالك ولا تعتمد على غير المجربين ، ولا تمتحن المجربين في كل وقت ، ولا تستبدل غير المجرب بالمجرب ، إذ يلزم وقت طويل حتى يحصل على مجرب ومعتمد ، وفي المثل : الشيطان المجرب خير من الإنسان غير المجرب . وامتحن الناس بالناس ثم بنفسك لأن كل من لا يليق لنفسه لا يليق لغيره قط ، وجرب الناس بالعمل لا بالقول، وعصفور باليد خير من طاوس بالنسيئة ، وما دمت تربح نصفا من كل عشرة في سفر البر فلا تسافر في البحر طمعاً في ربح خمسة عشر في كل عشرة،لأن ربح سفر البحر إلى الكعب وخسارته إلى العنق ، ولا ينبغي أن تسلم للربح أصل رأس المال الكبير طمعاً في ربح صغير ، وإذا وقعت في البر واقعة وذهب المال ، فلعل الروح تبقى ، وفي البحر يكون الخطر على كليهما ، وللمال عوض أما الروح فلا عوض لها،وقد مثلوا أيضا عمل البحر بعمل السلطان يأتي جملة ويذهب جملة ، ولكن إذا ركبت البحر مرة لمشاهدة الآثار العجيبة فجائز عند القدرة ، لأن النبي صلعم قال : (اركبوا البحر مرة وانظروا إلى آثار عظمة الله سبحانه وتعالى)

وماكس في وقت المعاملة ، ولا تماكس بعد البيع ، ولا تدع أمرك جملة في أيدي الناس ، فقد قيل : ينبغي مسك الحية بأيدي الناس ، وترك الشوك لأقدامهم ، واحسب ربحك وخسارتك جميعا واكتبها بخطك لتأمن السهو

والخطأ ، وحاسب غلمانك وأهلك دائما ولا توجب على نفسك أى شيء بيدك حتى إذا ما أردت أن تنكره استطعت، وتفقد شئونك دائما واطلع عليها من ربح وخسارة ونقص وزيادة فى المعاملة حتى لا تعجز عن معرفة ربحك وخسارتك واجتنب الخيانة ، لأن كل من يخون الناس، يجب أن يعلم أنه كأنما قد ارتكب تلك الخيانة مع نفسه .

حكاية

سمعت أن شخصا كان له غنم وقطعان كثيرة ، وكان له راع ورع وصالح يجمع كل يوم لبن الأغنام مهما كان ويحمله إلى صاحبها ، وكان ذلك الرجل يخلط ما كان من اللبن بما يساويه من الماء ويعطيه الراعى ويقول اذهب وبعه! وكان الراعى ينصح الرجل ويعظه قائلا : أيها السيد ! لا تخن المسلمين ، لأن كل من يخون الناس لا تحمد عاقبته ، فلم يسمع الرجل كلام الراعى وظل يفعل ذلك إلى أن اتفق ذات ليلة أن أرقد الراعى الأغنام فى مسيل النهر وذهب هو نفسه فوق مرتفع ونام ، وكان فصل الربيع ، وللقضاء الإلهى هطلت على الجبل أمطار غزيرة وسالت وسقطت فى هذا المسيل وأهلكت الأغنام ، وفى اليوم التالى جاء الراعى إلى المدينة وذهب إلى صاحب الغنم بغير لبن ، فسأله الرجل لم لم تحضر اللبن ؟ فقال الراعى : أيها السيد ! لقد قلت لك أن لا تمزج الماء باللبن لأن ذلك خيانة ، فلم تطعنى ، فالآن تجمعت كل تلك المياه التى كنت أعطيتها للناس بسعر اللبن وهجمت ليلة أمس وذهبت بغنمك .

فتجنب ما استطعت الخيانة لأن كل من خان مرة لا يعتمد عليه أحد من بعد ، واستشعر الصدق لأن الصدق أكبر طراز ، وكن طيب المعاملة وحسن الأخذ والعطاء ، ولا تعد أحدا ، وإذا وعدت فلا تخلف ، ولا تكثر الكلام ، وإذا تكلمت فقل الصدق ليبارك الحق تعالى فى معاملتك ، وكن يقظا فى أخذ الحجة وتسليمها في المعاملة ، وإذا أردت إعطاء حجة فلا تسلم الحجة ما لم

تتسلم حقك أولا ، وحينما تذهب فاطلب صديقا ، وإذا كنت تاجرا ولم تذهب قط إلى مدينة ، فاذهب إليها بكتاب محتشم لتكون معروفا بتعريفه . وصانع الناس ، ولا تسافر مع غير الموافقين والجهال والحمق والكسالى وتاركى الصلاة والمتهورين : فقد قيل (الرفيق ثم الطريق) ولا تكذب فيك ظن كل من يأتمنك ولا تشتر أى شيء تشتريه غير مرئى وغير معروض ، واعرف أولا سعر ما تريد بيعه ، وبعه بالشرط والميثاق ، لتسلم آخر الأمر من التقاضى والجدل، وراع طريق التدبير لأن تدبير البيت أعظم تجارة ويجب أن لا تبدد ذخيرة بيتك ، وأن تشترى حوائج البيت جملة فى كل سنة وقت توافرها ، واشترمن كل ما يلزمك بقدر مايكفى فى العام ، وكن خبيرا بالسعر ، وعندما يرتفع السعر بع النصف من كل شيء مما تكون قد اشتريته ، لتكون قد أكلت فى تلك السنة بالمجان ، وليس فى ذلك إثم ولا سوء سمعة ، ولا ينسبك أحد فى هذا المعنى إلى البخل ، لأن هذا من جملة تدبير البيت ، وإذا رأيت خللا فى شئونك فدبره لتزيد دخلك ، حتى لا يتطرق ذلك الخلل إلى تدبير بيتك ، فإذا لم تستطع زيادة الدخل فقلل الخرج ليكون ذلك كما لو تكون قد دبرت الزيادة ، فإذا لم تستحسن التجارة وأردت أن تكون عالما شريفا فليس بعد علم الدين قط أشرف وأنفع من علم الطب، فقد قال رسول الله صلعم (العلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان) .

الباب الثالث والثلاثون

فى علم الطب

أى بنى ! إذا كنت طبيبا فينبغى أن تعرف أصول علم الطب، سواء الأقسام العلمية أو الأقسام العملية ، واعلم أن كل ما هو موجود فى الجسم الآدمى إما أن يكون من الطبيعة أو خارجا عن الطبيعة ، والطبيعى ثلاثة أقسام : فالقسم الأول ما يكون به ثبات البدن وقوامه ، والقسم الثانى هو توابع تلك الأشياء التى بها ثبات البدن وقوامه والقسم الثالث هو ما يحول البدن من حال إلى حال. وذاك الخارج عن الطبيعة إما أن يؤدى بالفعل إلى المضرة بالواسطة أو غير الواسطة أو يكون هو نفس ضرز الفعل، أما ذلك القسم الذى به ثبات البدن وقوامه ، فإما أن يكون من جنس المادة أو من جنس الصورة ، فذاك الذى من جنس المادة ، إما أن يكون بعيدا جدا مثل الاستقصات وعددها أربعة ، وهى الهواء والنار والتراب والماء ، وإما أن يكون أقرب من الاستقصات مثل الأمزجة وعددها تسعة : واحد معتدل وثمانية غير معتدلة ، أربعة مفردة وأربعة مركبة ، وإما أن يكون أقرب من الأمزجة مثل الأخلاط وعددها أربعة . الصفراء والسوداء والبلغم والدم ، وإما أن يكون أقرب من الأخلاط مثل الأعضاء وعددها عند جماعة أربعة وعند البعض اثنان ، ومعنى هذا الكلام الذى قلته هو إن تركيب الأعضاء من الأخلاط وتركيب الأخلاط من المزاج وتركيب المزاج من الاستقصات ، وهى أبعد مادة . وما هو من جنس الصورة على ثلاثة أقسام : القوى والأفعال والأرواح ، والقوى على ثلاثة أقسام ، نفسانية وحيوانية وطبيعية ، أما النفسانية وهى الحواس الخمس : البصر والذوق والسمع والشم واللمس ؛ وقوة الحركة وعدد أقسامها على حسب

أقسام الأعضاء التى لها حركة، والقوة المدركة الباطنية وهذه ثلاثة أقسام: التخيل والفكر والذكر، والحيوانية على قسمين: الفاعلة والمنفعلة، والطبيعية على ثلاثة أقسام: المولدة والمربية والغاذية، والأفعال على عدد القوى النفسانية والحيوانية والطبيعية، لأن الروح خادم القوة، والقوة مبدأ الفعل، والفعل تأثير القوة، فالأفعال قائمة على عدد القوى، وتلك التى هى توابع للأشياء التى بها ثبات وقوام البدن مثل السمن التابع لبرودة المزاج، ومثل النحافة التابعة لحرارة المزاج، ومثل حمرة الوجنة التابعة للدم، ومثل الصفرة التابعة للصفراء، ومثل حركة النبض التابعة للقوة الفاعلة الحيوانية، ومثل الغضب التابع للقوة المنفعلة الحيوانية، ومثل الشجاعة التابعة لاعتدال القوة الحيوانية، ومثل العفة التابعة لاعتدال القوة الشهوانية، ومثل الحكمة التابعة لاعتدال النفس الناطقة، ومثل جملة الأعراض والكيفيات التى تكون تابعة للمادة أو تابعة للصورة.

وتلك التى تحول البدن من حال إلى حال يقال لها الأسباب الضرورية، وهذه ستة أقسام: أولها الهواء وثانيها الطعام وثالثها الحركة والسكون ورابعها النوم واليقظة وخامسها انبساط الطبيعة وانقباضها وسادسها الأحداث النفسانية مثل الغم والغضب والخوف وما شاكلها، ويقال لهذه ضرورية لأنه لاحيلة للإنسان فى أية واحدة منها، ولكل واحدة منها تأثير فى جسم الإنسان، فعندما تكون كل واحدة منها فى حال الاعتدال يكون استعمال الناس لها أتم وأصوب وعلى وجه الاعتدال، وعندما يحدث تغير لبعض منها أو يكون استعمال الإنسان لبعضها على وجه الخطأ، يظهر المرض والعلة بموجب الإفراط الذى يكون قد حدث[1].

وذاك الخارج عن الطبيعة ثلاثة أقسام، سبب ومرض وعرض، والسبب

---

(١) الترجمة الحرفيه: ذهب.

على ثلاثة أقسام : إما أن يكون سبب مرض الأعضاء الآلية المتشابهة ، أو يكون سبب المرض الحار ، وهذا على خمسة أقسام ، أو سبب المرض البارد، وذلك على ثمانية أوجه ، أو سبب المرض الرطب ، أو سبب المرض الجاف ، وكل واحد من هذين على أربعة أقسام .

وسبب مرض الأعضاء الآلية أو سبب المرض الذى يقع فى الخلقة أو فى المقدار أو فى الوضع أو فى العدد . وسبب أمراض الخلقة إما أن يكون سبب مرض الشكل أو سبب مرض التقعير والتجويف ، وذلك على سبعة أقسام أو يكون سبب الخشونة وذلك على قسمين ، أو يكون سبب الملاسة وهذا على قسمين .وسبب أمراض المقدار على ثلاثة أنواع ، وسبب أمراض الوضع وسبب أمراض العدد كل واحد منها نوعان ، وسبب تفرق الاتصال الذى يقال له المرض المشترك ، يقع فى الأعضاء المتشابهة وكذلك فى الأعضاء الآلية، ومرض الأعضاء المتشابهة على ثمانية أقسام . أربعة مفردة ؛ حار وبارد ورطب ويابس،وأربعة مركبة؛ حار رطب ، وحار يابس ، وبارد رطب، وبارد يابس وأمراض الأعضاء الآلية على أربعة أنواع:الأمراض التى تقع فى الخلقة وفى المقدار وفى الوضع وفى العدد، وأمراض الخلقة أربعة أقسام : ذاك الذى يقع فى الشكل وفى التقعير ، وذاك الذى يقع على طريق الخشونة ، وذاك الذى يكون على طريق الملاسة .

وأمراض المقدار على نوعين: ذاك الذى يقع من طريق الزيادة وذلك الذى من طريق النقصان . وأمراض الوضع أيضا على نوعين : إما أن يزول العضو من مكانه أو يؤدى إلى الفساد بالاتصال بالأعضاء الأخرى .

وأمراض العدد على نوعين كذلك : إما أن تكون على طريق الزيادة أو على طريق النقصان . وتفرق الاتصال إما أن يقع فى الأعضاء المتشابهة أو فى الأعضاء الآلية أو فى كليهما . والعرض على ثلاثة أقسام : إما أعراض تتعلق بالأفعال أو بأحوال الجسم أو تظهر فى الاستفراغات.وما يتعلق بالأفعال

على ثلاثة أقسام، ومايتعلق بالأحوال على أربعة أقسام، ومايتعلق بالاستفراغات على ثلاثة أقسام .

وينبغي أن تعرف بأن الطب على قسمين علم وعمل . أما القسم العلمي فهو هذا الذي شرحته لك ، وأقول الآن من أين يجب عليك طلب كل علم مما ذكرت ، لتعرف كلا منها بشرح واستقصاء ، فإن تلك العلوم التي ذكرناها بالشرح والاستقصاء يذكر جالينوس أغلبها في الستة عشر والبعض خارج الستة عشر .

أما علم الاستقصات ، فاطلب ذلك المقدار الذي ينفع الطبيب في كتاب الاستقصات من جملة الستة عشر ، واطلب علم المزاج في كتاب المزاج من جملة الستة عشر ، واطلب علم الأخلاط من المقالة الثانية من كتاب القوى الطبيعية من جملة الستة عشر أيضا ، واطلب علم الأعضاء المتشابهة من التشريح الصغير من الستة عشر كذلك ، واطلب علم الأعضاء الآلية من التشريح الكبير الذي هو خارج الستة عشر ، واطلب علم قوى الطبيعة من كتاب القوى الطبيعية من جملة الستة عشر ، واطلب كذلك القوى الحيوانية من كتاب النبض من جملة الستة عشر أيضا ، واطلب القوى النفسانية من آراء بقراط وأفلاطون، وهذا الكتاب تصنيف جالينوس خارج الستة عشر .

وإذا أردت أن تكون متبحرا وأن تتجاوز مرتبة الطلب ، فاطلب علم الاستقصات وعلم المزاج من كتاب الكون والفساد ومن كتاب السماء والعالم، وعلم القوى والأفعال من كتاب النفس وكتاب الحس والمحسوس ، وعلم الأعضاء من كتاب الحيوانات ، واطلب أقسام الأمراض من المقالة الأولى من كتاب العلل والأمراض من جملة الستة عشر ، وأسباب الأمراض من المقالة الثانية من هذا الكتاب الذي ذكرته ، واطلب أقسام الأعراض من المقالة الثالثة من الكتاب أيضا ، واطلب أسباب الأمراض من المقالات الرابعة والخامسة والسادسة من هذا الكتاب الذي ذكرته كذلك .

وحيث أنى ذكرت القسم العلمى فلا بد من أن أذكر شيئا من القسم العملى ولو أن الكلام يطول ، لأن العلم والعمل مثل الجسم والروح معا ، فلا يتم «وجود»[1] الجسم بغير روح ولا الروح بغير جسم .

إذا أردت المعالجة فتدبر أغذية الشيوخ والأطفال، لأن علاج المرضى على نوعين، ويجب على المعالج الا يبدأ بأية معالجة مالم يعرف أولا قوة المرض ونوع العلة وسببها ومزاج المريض وسنه وصنعته وكلامه وطبعه وطبع المكان وحال المزاج .

فصـــل

ينبغى أن يعرف الماء والجس والجاس والعرض الظاهر والعلامات الحسنة والعلامات السيئة وأنواع الرسوب وعلامات الأمراض التى تقع فى الباطن وعلامات البحران المضطربة ويبين أجناس الحميات وعلى أى وجه يكون تدبير الأمراض الحادة ، ويكون ماهرا فى تركيب الأدوية بتدبير مذهب أصحاب القياس وقوانين المعالجة . وإذا شرحت هذه كلا على حدة تطول القصة ، ولكنى أقول من ى كتاب ينبغى طلب علم كل واحد منها ليكون معلوما لك فتطلبه فى وقت الحاجة .

أما حفظ الصحة فاطلبه من تدبير الأصحاء من جملة الستة عشر ، ومعالجة المرضى وقوانين العلاج من حيلة البرء من جملة الستة عشر ، واطلب العلامات الحسنة والسيئة من تقدمة المعرفة ومن فصول بقراط ، وعلم النبض من علم النبض الكبير ومن النبض الصغير واطلب علم البول من المقالة الأولى من كتاب البحران من جملة الستة عشر ، ومن كتاب البول لجالينوس خارج الستة عشر ، وينبغى طلب علامات الأمراض التى فى باطن الجسم من الأعضاء الآلية ، وعلم البحران من كتاب البحران من الستة عشر ، وعلم الحميات من كتاب الحميات من الستة عشر أيضا ، وينبغى طلب تدبير الأمراض الحادة من كتاب ماء الشعير من جملة تصانيف بقراط ومن كتب الأدوية التى يكون جالينوس قد صنفها .

---

(١) ليست فى الأصل .

ويجب على المعالج أن يقوم بتجارب كثيرة ، ولا يعمل التجربة على أناس معروفين ومشهورين ، ويجب أن يكون قد خدم فى المارستانات[1] ورأى مرضى كثيرين وعالج كثيرا حتى لا تشكل عليه العلل الغريبة ، ولا تخفى عليه علل الأحشاء ، ويرى برأى العين ما يكون قد قرأه فى الكتاب ، ولا يعجز فى العلاج ، ويجب أن يكون قد قرأ وصايا بقراط حتى يستطيع أن يؤدى شرط الأمانة والصدق فى معالجة المرضى ، وأن يجعل جسمه وثيابه نظيفين دائما وأن يكون مطيباً ومعطرا ، وعندما يذهب إلى المريض يكون ناضر الوجه ومبتهجاً وعذب الحديث ويبعث الأمل فى المرضى لأن تقوية الطبيب للمريض تزيد قوة الحرارة الغريزية ، وإن يكن مريض تظنه نائما ويجيب عند ما تناديه ولكنه لا يعرفك ويفتح عينيه وينام ثانيا فهذه علامة سيئة ، وإذا رأيته مدهوشا ويضرب بيديه ورجليه بكل مكان ويثير نفسه فتلك علامة سيئة ، وإذا كان مدهوشا أيضا ويصيح من آن لآخر ويأخذ بيده وأصابعه ويضغطها فهى علامة سيئة أيضا ، وإذا كان بياض عين المريض أشد بياضا من المعتاد والسواد أشد سواداً ، ويدير اللسان حول الفم ويسحب النفس من صدره فهى علامة سيئة ، وإذا كان مريضا من الغيرة أو من الغم الشديد أو ضيق النفس يكون سيئا ، وإذا كان المريض يتقايأ باستمرار قيئا ملونا أحمر وأصفر وأسود وأبيض أو لا يتوقف القىء يكون مخوفا أيضا ، وإذا كان بالمريض هزال وسعال ، يأخذ بصاقه على خرقة ويجففها ثم يغسل الخرقة ، فإذا بقى أثر فهو علامة سيئة أيضا ، ولا تداو كل هؤلاء الذين ذكرتهم قط ، فالمعالجة لا تجدى ذلك المريض نفعا ما دامت فيه هذه العلامات ، فيابنى إذا عدت المريض ولم يكن شىء من هذه العلامات يجب أن تكون أكثر أملا .

فصل

فعندئذ ضع يدك على مجس المريض فإذا نبض وجرى تحت الأصبع فاعلم أن

---

(١) المستشفيات .

الدم غالب وإذا نبض تحت الأصبع رقيقا هينا وأكثر بطئا فالرطوبة غالبة ، وإذا نبض تحت الأصبع بطيئاً وغليظا وضعيفا فالسوداء غالبة ، فإذا كان مخالفاء فاجعل حكمه على ذلك الجانب الذى ترى ميله إلى ناحيته أكثر ، فإذا تبينته حال المجس فانظر إلى القارورة [1] فإذا رأيت الماء أبيض غير وضىء يكون الرجل مريضا من الغم ، وإذا كان أبيض وضيئا تكون العلة من الريح الخام والرطوبة غير الملائمة ، وإذا كان صافيا كالماء يكون مريضا من الكراهية وإذا كان بلون الأترج وفيه ذرات ، فالمرض من الإسهال ، وإذا رأيت الماء مثل الزيت ويتراءى فى قاع البول خط تكون العلة قريبة العهد ، وإذا رأيته بلون الزعفران فاعلم أنه مصاب بحمى الصفراء وأن الدم مصاحب للصفراء أيضا ، وإذا كان على سطح الماء صفرة وأسفل الماء مسودا تكون علته من البلغم الأخضر فلا تداوه ، وكذلك إذا كان على سطح الماء سواد وإذا كان قاع البول يضرب إلى الصفرة أو يتحول سريعا إلى الخضرة ، وإذا كان المريض يهذى والماء أحمر ضاربا إلى السواد ، يكون البلغم الأسود مخلوطا بالدم وقد ذهب لهبه إلى الرأس ، فاحترز منه أيضا ، وإذا كان أسود وقد استقر على سطحه شىء شبيه بالدم فودعه ، وإذا كان أسود وبه شىء شبيه بالنخالة أو استقر فوقه مايشبه الدم فلا تعد ذلك المريض ، وإذا كان الماء أصفر ويبدو لامعا كالشمس أو تكون هناك صفرة ضاربة إلى الحمرة فالعلة من الدم ويجب الفصد ليصح على الفور ، وإن يكن أصفر وفيه خطوط بيضاء يطول المرض أكثر ، وإذا كان أخضر اللون فالعلة من الطحال ، وإذا كان فيه خضرة وسواد فهى من الالتهاب ، وإذا رأيته أبيض وفيه شىء مثل ديدان القبل والدبر فذلك ريح البواسير ولا يستطيع الجماع ، فإذا رأيت الماء والمجس فابحث عندئذ عن جنس العلة لأن أجناس العلل ليست نوعا واحدا .

فصل

وإذا عرفت الجنس فلا تمعن فى الدواء والضماد مادام يكتفى بالغذاء

---

(1) البول .

ومادام يكتفى بالسفوف والطلى فلا تمعن فى الحب والمطبوخ ، وإياك أن تجترىء على المداواة ، فما دام الأمر يتم بالتسكين واللطف فلا تسرف فى الاستفراغ ، وإذا كان الأمر سيخرج عن الحد فاشتغل بالدواء المحض ولا تشتغل بالتسكين ، ولا تتهم المريض أبدا ، ولا تكتب تعهدا ولا تحكم على المريض النهم[1] فإنه لا يقبل ، ولكن ادفع مضرات تلك الأشياء التى يكون قد أكلها ، وخير شىء للطبيب معرفة الدواء ومعرفة الداء . وقد تكلمت كثيرا فى هذا الباب لأنى أحب علم الطب إذ أنه علم معتبر ، وتحدثت عنه كثيرا لأن كل من يحب شيئا يكثر الحديث عنه ، أما إذا لم يتفق لك هذا العلم ، فعلم النجوم علم شريف ، فاجتهد فى تعلمه لأنه علم عظيم جدا ، ولذلك السبب كان معجزة النبى المرسل ، فهذا علم النبوة من غير شك ، ولو أنه فى هذا الوقت منسوخ بحكم شريعة محمد رسول الله صلعم .

---

(١) الترجمة الحرفية : عبد البطن .

الباب الرابع والثلاثون

فى علم النجوم والهندسة

إذا كنت منجما فاجتهد أن تبذل أكثر الجهد فى العلم الرياضى ، إذ أن علم أحكام النجوم علم وافر لا يمكن أداء حقه تماما بغير خطأ، لأنه لا يوجد قط شخص مصيب بحيث لا يجوز عليه الخطأ ، ولكن ثمرة النجوم على كل حال هى الأحكام[1] ، وإذا عملت تقويما فالفائدة من التقويم هى الأحكام ، فإذا لم يكن من الأحكام بد فاجتهد حتى تعرف أصولها جيدا ، وتكون قادرا على التقويم ، لأن أصل الحكم يصح عندما يكون تقويم النجوم صحيحا ويصح الطالع ، وانظر فلا تعتمد على الطالع التخمينى إلا بالاستقصاء الشديد الذى تمهد له بالحساب والنيرنجات[2] ، وإذا صح الحساب والنيرنجات يصح عندئذ الحكم الذى تبنيه عليها، ولا تأخذ بكل حكم تعمله مولودا وضميرا مالم تتعرف حالات الكواكب ، ولا تغفل عن الطالع ودرجة الطالع وصاحب الطالع والقمر وبروج القمر وصاحب برج القمر وكيفية مزاج الكواكب التى فى كل برج وصاحب خانة الحاجة وتلك الكواكب التى يكون قد عاد منها القمر وذلك الكوكب الذى سيتصل به القمر وذلك الكوكب الذى يكون مستوليا على درجة الطالع وخانة ذلك الكوكب المستولى على درجة سير الكواكب ولا عن تلك الكواكب الثابتة التى تكون قد وصلت إلى سير البدو، ودرجة المنيرة والمسعودة، ودرجة المظلمة ودرجة الآثار ، ودرجة المحترقة التى فى جرم الشمس من صاعدة وهابطة والأسهم الاثناعشريات والدريجان[3] وأرباب المثلثات والحدود الشرف

---

(۱) الأحكام هنا معناها تنبؤات المنجم.

(۲) فى الاصل «نمو دارت» وهى الحيل التى يلجأ إليها المنجم فى تحقيق الطالع.

(۳) قانون فى علم الهيئة قسموا فيه الصور والأشكال الفلكية إلى ثلاث طبقات ، وهذه الكلمة من اصطلاحات حكماء الهنود الذين قسموا كل برج إلى ثلاثة أقسام .

والهبوط وخانة الوبال والفرح والآفة والأوج والحضيض ، ثم انظر فى حالات القمر والكواكب مثل الخير والشر والنظر والمقارنة والاتصال والانصراف وبعيد الاتصال وخالى السير والوحشى ودفع القوة والمكافأة والقبول والتشريق والتغريب الاجتماعى والاستقبالى ومعرفة الهيلاج[1] والسيد والعطاء ونقص وزيادة العمر وسوق التسييرات الخماسية ، فإذا عرفت هذه كلها فتكلم عندئذ ليأتى حكمك صحيحا ، واعمل الحكم من تقويم معتمد بحيث يكون حل ذلك التقويم قد عمل من الزيج المعروف بالخطى ، ونظر فى أوساطه وشوهد جيدا بمجموعه ومبسوطه وتؤمل فى تعديلاته ، واحترز مع كل هذا من السهو والغلط حتى لا يقع خطأ ، فإذا كنت قد عملت هذا الاحتياط فينبغى أن تطمئن وتقول بأن كل ما تنبأت به سيكون كذلك ، وإذا لم تعتمد على ذلك القول فلا يقع أى صواب ، والمسألة التى تسأل عنها يمكن قول ضمير كل ما تقول بحيث يأتى حكمك صوابا فى الأغلب. أما حديث المواليد فهكذا سمعت من أستاذى أن مولود المرء ليس فى الحقيقة أن ينفصل الولد من الأم، لأن المولود الأصلى هو طالع الزرع وقت مسقط النطفة حيث يسقط ماء الرجل فى رحم المرأة ويتقبله ، فذاك الطالع منوط به أصل الخير والشر جميعا ، أما تلك الساعة التى ينفصل فيها عن الأم فذاك الطالع يقال له التحويل الأكبر ، وتحويل العام الذى يقع يقال له التحويل الأوسط ، ويقال لتحويل الشهور التحويل الأصغر ، ويجرى على الناس ما يكون فى طالع مسقط النطفة ، ودليل هذا الكلام خبر الرسول صلعم حيث قال (السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه) وكلام النبى له نفس المعنى الذى قلته .

أما طالع الزرع فليس لك فيه كلام لأن ذلك لم ينسج على قامة من هو مثلك [2] ، وأما هذا الذى تذكره عن طالع التحويل الأكبر ، فحافظ فيه على طريقة الأساتذة الماضين : واعمل فى كل حكم تعمله كما قلت قبل هذا ، فإذا

---

(١) حساب للمنجمين يعرفون بهأحوال المولود وعمره .

(٢) أى لأن هذا فوق قدرك وليس لك أن تخوض فيه.

سألوك مرة عن مسألة ، فانظر أولا فى طالع الوقت ثم فى القمر وبرج صاحبه وفى ذلك الكوكب الذى سيتصل به القمر وفى ذلك الكوكب الذى قد عاد منه القمر وفى ذلك الكوكب الذى تجده فى الطالع أو فى وتد . وإذا وجدت فى الوتد أكثر من كوكب فانظر أيا منها المستولى ولأيها تكون الشهادة أكثر، فتحدث عن ذلك الكوكب لتكون مصيبا .

فصـــل

أما ماكان من شرط الأحكام فهو هذا الذى ذكرته ، والآن إذا كنت مهندسا ومساحا فكن قديرا فى الحساب ، وإياك أن تكون ساعة غير مكرر للحساب ، لأن علم الحساب علم وحشى، فإذا مسحت أرضا فاعرف الزاويا أولا ولا تستهن بالأشكال المختلفة الأضلاع ولا تقل إنى أعمل هذا بالمساحة والباقى بالتخمين ، لأن حساب المساحة يتفاوت كثيرا ، واجتهد حتى تعرف الزاويا جيدا فإن أستاذى كان يقول لى دائما ، إياك وأن تغفل عن الزاويا فى الحساب ، فكثيرا ماتكون فى ذوات الأضلاع زاوية قوسية على هذا المثال < أو على هذا ك ، وكثيرا ما تكون حادة شبيهة بالمنفرجة ، وهناك يكون موضع لحدوث تفاوت كبير . وإذاكان ثمت شكل صعب فلا تعمل مساحته بالتخمين بل أعمله كله مثلثات أو مربعات، فإنه لا يوجد شكل قط لا يخرج على هذا النحو ، وعندئذ امسح كل واحد منها على حدة ليكون صحيحا ، وإذا تكلمت فى هذا الباب على هذا النحو لأمكن القول كثيرا ، ولكن الكتاب يتحول عن وضعه،ولم يكن بد عن هذا القدر من الكلام لأنى كنت قد تكلمت عن النجوم فأردت أن أتكلم بضع كلمات عن هذا الباب أيضا لتكون ذا حظ من كل علم .

الباب الخامس والثلاثون

فى رسم الشعر

إذا كنت شاعرا فاجتهد أن يكون كلامك سهلا ممتنعا ، وتحاش الكلام الغامض ولا تقل ما تعرفه أنت ولا يعرفه سواك فيحتاج إلى الشرح ، لأنهم يقرضون الشعر من أجل الناس لا من أجل أنفسهم ، ولا تقنع بالوزن والقوافى الفارغة ، ولا تقل الشعر بغير صناعة وترتيب ، لأن الشعر المجرد من الصناعة لا يكون جميلا وينبغى أن يكون ذا صنعة وحركة ، ويجب أن يكون فى الشعر والإيقاع والصوت تطريب ليلذ للناس أو تكون فى رسم الشعر صناعة مثل المجانس والمطابق والمتضاد والمتشاكل والمتشابه والمستعار والمكرر والمردف والمزدوج والموازن والمضمن والمضمر والمسلسل والمسجع والمستوى والموشح والموصـــــل والمقطع والمخلع والمسمط والمستحيل ذى القافيتين والرجز والمتقارب والمقلوب .

أما إذا أردت أن يكون كلامك عاليا وخالدا فاكثر الكلام المستعار وقل الاستعارة على الممكنات واستعملها فى المدح ، وإذا نظمت الغزل والترانيم فانظمها سهلة ولطيفة وفى القوافى المعروفة ولا تقل الكلمات العربية الباردة والغريبة وانظم «فى» الحالات الغرامية والكلام اللطيف واستخدم الأمثال الطريفة بحيث تلذ الخاص والعام ، ولا تقل الشعر العروضى والثقيل ، فإنما يدور حول العروض والأوزان ذو طبع سقيم وعاجز عن اللفظ الحسن والمعنى الظريف ، أما إذا طلبوا فعندئذ قل فإنه جائز .

واعرف علم العروض وتعلم الشعر والألقاب ونقد الشعر ، حتى إذا

ما وقعت مناظرة بين الشعراء أو كاشفك[1] شخص أو امتحنوك لا تعجز .
وهذه هي البحور السبعة عشر التي تنشأ من دوائر العروض الفارسي ، فاعرف أسماء هذه الدوائر وأسماء هذه البحور السبعة عشر مثل الهزج والرجز والرمل والهزج المكفوف والهزج الأخرب والرجز المطوى والرمل المخبون والمنسرح والخفيف والمضارع والمضارع الأخرب والمقتضب والسريع والمجتث والمتقارب والقريب الأخرب والطويل ، والأوزان العربية مثل البسيط والمديد والكامل والوافر وما أشبه ذلك اعرفها جملة ، وما تقوله من الشعر في الزهد والمدح والغزل والهجاء والرثاء، أد فيه حق الكلام تماما ولا تقل الكلام الناقص أبدا ، ولا تقل في النظم كل ما يقال في النثر ، لأن النثر مثل الرعية والنظم مثل الملك ، فما يليق بالملك لا يجوز للرعية، وقل الغزل والترانيم الروية ، وكن في المدح قويا وجريئا وعالي الهمة واعرف ما يليق بكل إنسان واجعل المدح الذي تقوله مناسبا للممدوح ، ولا تقل لمن لم يشدد على وسطه مدية قط ، إن سيفك يصرع الأسد ، وإنك تقتلع بالرمح جبل بيستون ، وتفلق الشعرة بالسهم ، وذاك الذي لم يركب حمارا قط لا تشبه حصانه بدلدل[2] والبراق[3] والرخش[4] وشبديز[5] واعرف ما ينبغي أن يقال لكل إنسان .

ويجب على الشاعر أن يكون عارفا بطبع الممدوح ويعلم ما يروقه ، لأنك مالم تقل مايريد فإنه لا يعطيك ما يليق بك ، ولا تكن حقير الهمة ولا تدع نفسك في القصيدة بالعبد والخادم إلا في المدح الذي يكون فيه الممدوح أهلا لذلك ، ولا تعتد الهجاء لأن الجرة لا تخرج دائما من الماء سالمة[6] ، أما إذا كنت قادرا على الشعر في الزهد والتوحيد فلا تقصر : فإنه حسن في الدارين ،

---

(١) خاصمك.
بغلة على كرم الله وجهه .
(٣) بغلة النبي وفرسه جناح وحماره يعفور
(٤) حصان رستم البطل الإيراني .
(٥) حصان كسرى پرويز .
(٦) المثل العربي : لا تسلم الجرة في كل مرة .

ولا تتجاوز الحد فى الكذب فى الشعر ولو أن المبالغة فى الشعر فن ، ورثاء الأصدقاء والمحتشمين واجب أيضا ، وإذا أردت أن تهجو فقل على عكس ما تمدح به شخصا فى المدح ، لأن كل ما يكون ضد المدح هجاء. وكذلك فى الغزل والرثاء .

ولكن قل كل ما تقوله من جعبتك ، ولاتحم حول أقوال الناس ليتفتح طبعك ، ويتسع أمامك ميدان الشعر ، ولاتبق على تلك القاعدة التى تكون قد دخلت بها الشعر فى البداية . أما إذا صرت قديرا فى الشعر وتفتح طبعك وبرعت ، فإن تسمع معنى غريبا فى موضع وراقك وأردت أن تأخذه وتستعمله فى موضع آخر فلا تكابر ولا تستعمل نفس اللفظ بعينه ، فإذا كان ذلك المعنى فى المدح فاستعمله فى الهجاء ، وإذا كان فى الهجاء فاستعمله فى المديح ، وإذا سمعته فى الغزل فاستعمله فى الرثاء ، وإذا سمعته فى الرثاء فاستعمله فى الغزل ، حتى لا يعرف أحد من أين هو ، وإذا طلبت الممدوح وحمت حول السوق فلا تكن مدبر الوجه قذر الثياب ، وكن دائما ناضر الوجه وباسما ، واحفظ الحكايات ونوادر الكلام والمضحكات الكثيرة وقلها أمام الممدوح لأنه لابد للشاعر من هذا .

الباب السادس والثلاثون

فى الغناء

أى بنى ! إذا كنت مغنيا فكن حسن الطبع خفيف الروح ، واجعل نفسك دائما نظيف الثياب ومطيباً ومعطراً ، وكن ذلق اللسان . وإذا دخلت فى دار للغناء فلا تكن عابس الوجه منقبضا ، ولا تعزف كل الطرق الثقيلة ، وكذلك لا تعزف كل الطرق الخفيفة ، فليس شرطا أن يكون الضرب من نوع واحد فى كل وقت ، لأن كل الناس ليسوا على نمط[1] واحد ، كما أن الخلق مختلف فالخلق مختلف كذلك ، ولهذا السبب قد وضع أساتذة الملاهى ترتيباً لهذه الصناعة ، فقد أعدوا أولا عزف اللحن الخسروانى لمجلس الملوك ، ووضعوا من بعد ذلك الألحان بالوزن الثقيل ، بحيث يمكن الإنشاد بها ، وسموها طريقة ، وتلك طريقة قريبة من طبع الشيوخ وأصحاب الجد ، فهذه الطرائق الثقيلة قد أعدت من أجل هؤلاء القوم ، لكنهم لما رأو أن الخلق ليسوا كلهم شيوخا وأهل جد ، قالوا قد وضعنا طريقة من أجل الشيوخ ونضع كذلك طريقة من أجل الشبان ، ثم بحثوا وطبقوا الأشعار التى كانت أخف فى الوزن على الطرق الخفيفة ، وسموها الخفيف ليضربوا من هذا الخفيف بعد كل طريقة ثقيلة ، حتى يكون للشيوخ نصيب فى نوبة الطرب وللشبان كذلك ، ولئلا يحرم الصغار والنساء والرجال الألطف طبعاً صنفوا الترانيم من أجلهم ليستمتع هؤلاء القوم أيضاً . لأنه لا يوجد قط وزن من الأوزان ألطف من وزن الترانيم . فلا تضرب ولا تغن الكل من نوع واحد ، وغن حسبما ذكرت ليحظى كل شخص بسماعك وانظر فى المجلس الذى تجلس فيه ، فإذا كان

---

(١) فى الأصل : طبع .

المستمع أحمر الوجه ودمويا فاكثر الضرب على البم ، وإذا كان أصفر الوجه وصفراويا فاكثر الضرب على الزير ، وإذا كان أبيض البشرة وسميناً ومرطوباً فاكثر الضرب على البم ، وإذا كان آدم الوجه ونحيفاً وسوداوياً فاكثر الضرب على المثلث [1] لأن هذه الأوتار أعدت على طبائع الناس الأربع ، ولو أن هذا الذى ذكرته ليس من شروط الغناء ، فإنى أردت أن أطلعك على هذا المعنى ليكون معلوما لك ، واجتهد فضلا عن ذلك أن تكون محاكيا ، لتستريح على مقدار الحكاية والمطايبة والممازحة حتى يخف عناء غنائك ، وإذا كنت مغنيا وتعرف قرض الشعر كذلك ، فلا تكن مغرما بشعرك ، ولا تجعل كل الرواية منه ، إذ كما يروقك شعرك قد لا يروق أولئك القوم ، ولأن المغنين رواة الشعراء لا رواة شعرهم ، ثم إذا كنت لاعب نرد ودعيت للغناء وكان هناك شخصان يلعبان النرد معا فلا تبطل غناءك وتجلس لتعليم النرد أو تنشغل بالنرد والشطرنج ، لأنك قد دعيت للغناء لا للمقامرة ، وراع الذوق أيضاً فى الغناء الذى تتعلمه ولا تغن ولا تتعلم الغزل واللحن غير الموزون ، إذ ليس من المستحسن أن يكون نشيدك فى واد وحنك [2] فى واد آخر ؛ وإذا كنت عاشقاً لشخص فلا تبث شجونك كل يوم ، لأنه مهما يطب لك هذا فإنه لا يطيب للآخرين ، واجعل أغانيك فى شتى المعانى . واكثر من حفظ الشعر والغزل فى الفراق والوصال والتوبيخ والملامة والعتاب والرد والمنع والقبول والوفاء والجفاء والإحسان والعطاء وكل الوجدانيات الوقتية والفصلية ، مثل الأغانى الربيعية والخريفية والشتوية والصيفية ، ويجب أن تعرف ما ينبغى أن يقال فى كل وقت ، فلا ينبغى أن تغنى الخريفية فى الربيع والربيعية فى الخريف والشتوية فى الصيف والصيفية فى الشتاء ويجب أن تعرف وقت كل أغنية ، وانظر فى حال الحرفاء [3] وإن تكن أستاذا بلا نظير ، فإذا كان القوم من الخواص والشيوخ العقلاء الذين يعرفون حرفة الغناء

(١) فى الفارسية « سه تاره » والمثلث بكسر الميم وسكون الثاء وفتح اللام ما كان على ثلاث قوى من الأوتار ، ثالث أوتار العود والجمع مثالث « المنجد » .

(٢) الترجمة الحرفية : مضرابك والمضراب هو الآلة التى يضرب ويعزف بها على الأوتار .

(٣) حريف الرجل معامله فى حرفته والجمع حرفاء « المنجد » .

فغن كثيرا واعزف الألحان اللطيفة ، ولكن اكثر من الغناء فى الشيخوخة ومذمة الدنيا ، وإذا كان القوم شبانا وصبيانا فاكثر من ضرب الطرائق الخفيفة وغن الأغانى التى تكون قد قيلت فى وصف النساء أو فى مدح النبيذ وشاربى النبيذ ، وإذا رأيت القوم عسكريين وعيارين فغن دوبيتات ما وراء النهر وفى الحرب وإراقة الدماء ومدح العيارية ، ولا تكن كئيبا ولا تضرب كل الألحان الخسروانية ولا تقل إن هذا هو شرط الطرب، فاضرب أولا شيئا فى نغمة (الراست) ثم غن على الرسم بكل نغمة مثل نغمة (العراق) ونغمة (العشاق) ونغمة (الزيرافكن) ونغمة (البوسليك) ونغمة (اصفهان) ونغمة (النوا) ونغمة (البسته) ونغمة (الحسينى) ونغمة (الباخرز) لتؤدى شرط الطرب، ثم تذهب عندئذ إلى مقام الترانة حتى إذا ما وفيت شرط الطرب يكون الحرفاء قد ثملوا وراحوا ، ولكن انظر أية طريقة يحبها كل شخص ، وعندما يصل القدح إليه قل ما يريد ، ليعطيك هو ما تريده أنت، لأن أكبر مزية للمغنى أن يساير طبع المستمع ، ولا تسبق إلى تعاطى الخمر وطلب السيكى الكبير فى المجلس الذى تكون فيه ، وقلل من شرب النبيذ إلى أن تحصل على المال ، وإذا نلت مقصودك وحصلت على المال، فعندئذ اسلم نفسك للنبيذ ، وفى الغناء، لا تعاند السكارى فى الأغنية التى يطلبونها ،وإن يكن محال فلا تفكر فيه ودعهم ليقولوا ، وإذا شربت النبيذ وسكر الناس ، فلا تدخل فى المناظرة والمحاكاة مع أقرانك ، لأن المال لا يحصل من المناظرة ، وتكون قد أضجرت الناس فحسب ، وراع أن لا تعربد مع مطرب آخر فيضيع أجر الغناء بسبب عربدتك وتعود إلى البيت مهشم الرأس والوجه وممزق الثياب ومحطم الآلات ، إذ أن المغنين أجراء السكارى ، وأنت تعلم أنهم لا يأجرون الأجير المعربد، وإذا مدحك شخص فى المجلس فتواضع له وغن ما يريد ليثنى عليك الآخرون ، فالثناء يكون أولا بغير مال فى حالة الصحو ، فإذا سكر يأتى المال بعد ذلك الثناء ، وإذا أصر السكارى على طريقة أو أغنية كما هى عادتهم ، فينبغى أن لا تمل حتى يحصل عندئذ غرضك

من ذلك لأن أحسن فضيلة للمطربين هي الصبر الذي يبدونه مع السكارى ، وإذا لم يصبروا يبقون محرومين دائما ، وقد قالوا كذلك، إن المطرب يجب أن يكون أصم وأعمى وأبكم ، فلا يصغى إلى ما لا ينبغى أن يصغى إليه ولا ينظر إلى ما لا ينبغى له النظر إليه ، وحيثما يذهب لا يذكر شيئا يكون قد رآه أو سمعه فى المجلس فى مكان آخر . فإن مطربا كهذا يكون دائما مع المضيف .

الباب السابع والثلاثون

فى خدمة الملوك

إذا اتفق أن تكون من جملة حاشية الملك وتتصل بخدمته فمهما مكنك الملك لديه فلا تغتر بقربه وتباعد ، ولكن لا تهرب من الخدمة ، إذ من قرب الملك ينشأ البعد ، ومن خدمته يحصل القرب ، وإذا آمنك يوما من نفسه فكن غير آمن ذلك اليوم ، لأن كل من يسمن على يد شخص يجب أن يتوقع منه الإسراع فى ذبحه ، ومهما تكن عزيزا فلا تغفل عن معرفة نفسك ، ولا تقل أى كلام إلا على مراد الملك ولا تلج معه ، فقد قيل فى المثل : إن كل من يلج مع الملك يموت قبل الأجل ، والضرب بالقبضة على المخراز حمق ، ولا ترشد مليكك إلا إلى عمل الخير ، وإذا علمته السوء يسىء إليك .

حكايــــة

فى أيام فضلون بن مامان أبى الأسوار الذى كان ملك گنجه وأران ، كان ديلمى محتشم مشيرا له ، وكان كل شخص من محتشمى المملكة يرتكب جرما يستوجب عليه القيد والحبس يأخذه فضلون ويزجه فى السجن ، وكان هذا الديلمى — المشير له — يقول للأمير : لا تؤذ الحر فإذا آذيته فاقتله ، وكان قد هلك نفر من المحتشمين بمشورة الديلمى ، واتفق أن أذنب هذا الديلمى ، فأمر الأمير بأن يؤخذ ويودع فى السجن ، فأرسل الديلمى شخصا يقول : إنى أدفع كذا وكذا من المال فلا تقتلنى ، فقال فضلون بن مامان : إنى تعلمت منك (لا تؤذ الحر وإذا آذيته فاضرب عنقه) فأودى الديلمى بنفسه فى سبيل تعليم السوء .

وإذا ذممت من أجل الخير فهو أحب عندى من أن تمدح من أجل الشر، واعرف أن نهاية كل الأمانى النقصان [1] ولا تغتر بالجاه، واطلب من عمل السلطان الحشمة لا النعمة، لأن النعمة تأتى جارية من وراء الحشمة، وعز خدمة السلطان من الغنى، ومهما تسمن فى عمل الملك فاظهر نفسك نحيلا لتكون آمنا، ألا ترى أن الخروف ما دام هزيلا يأمن الذبح ولا يسعى أحد فى ذبحه، فإذا سمن يطمع الكل فى ذبحه؟ ولا تبع سيدك من أجل الدرهم، لأن درهم عمل السلطان مثل الورد والسمن [2] الذى يجعل نفسه فى يوم واحد جميلا وعطرا وعزيزا ولكنه قصير العمر كالورد، وحيث أن منافع عمل السلطان مثل الورد لا يمكن إخفاؤه، وكل درهم يجمع فى عمل السلطان أكثر تطايرا من غبار العالم، وحشمة خدمة الملوك خير رأس مال، والدرهم الذى يجمع منها هو الربح، فلا تدع رأس المال من يدك من أجل الربح، لأنه مادام رأس المال باقيا يدوم أمل الربح. وإذا ذهب رأس المال من اليد لا يمكن الوصول إلى الربح، وكل من يجعل الدرهم أعز من نفسه يهوى من العز إلى الذلة، واعلم أن الرغبة فى جمع المال هى هلاك العز وعزل الأعزاء، إلا أن تجمع بحد ومقدار وتعطى الخلق نصيبا لتنعقل ألسنتهم. وإذا صرت عظيما فى خدمة السلطان وأحرزت مرتبة فلا تخن سيدك أبدا. فإنك إن تفعل يكن ذلك بقلم الشقاء [3] لأنه عندما يرفع كبير صغيرا ويكافىء هو ذلك الولى النعمة بالخيانة يكون ذلك دليلا على أن الله تعالى يريد أن يسترد منه هذه الرفعة، لأنه لو لم يصل سوء الحظ إلى ذلك الرجل لما جزى إحسان سيده بالإساءة.

حكايـــة

وكذلك عندما أرسل الأمير فضلون أبو السوار أبا البشير الحاجب إلى

(١) البيت العربى (لكل شىء إذا ماتم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان).
(٢) زهر طيب الرائحة شبيه بالياسمين ويذهب البعض إلى أن السمن هو الياسمين.
(٣) أى يكون قد كتب عليك الشقاء.

بردع للقيادة ، قال أبو البشير لا أذهب ما لم يحل الشتاء لأن مناخ بردع سيء جدا خاصة فى الصيف، وطال الـكلام فى هذا المعنى ، فقال الأمير فضلون : لم يلزم أن تعتقد مثل هذا الاعتقاد ؟ إنه لايموت أحد قط بغير أجل . قال أبو لبشير : هو كما يقول مولاى ، لايموت شخص قط بغير أجل ولـكن ما لم يكن قد حان أجل امرىء فإنه لا يذهب إلى بردع .

ثم لا تـكن غافلا عن عمل الصديق والعدو ليصل نفعك وضرك إلى الصديق والعدو، وتطيب العظمة بأن تكافىء الصديق والعدو بالإحسان والإساءة، ولا ينبغى للرجل الذى صار محتشما أن يكون شجرة بغير ثمر ، ويطلب الغنى من العظمة ، والشخص الذى لا نفع منه ولا ضر مثل اليهودى الذى له مائة ألف دينار وليس له اعتبار ، لأن نفعه وضره لا يصلان إلى الناس ، فاعلم أن منافعك من نعمة قضاء الحاجات[1] ، ولا تمنع المعروف عن الناس ، فإن حضرة النبي صلعم قال (خير الناس من ينفع الناس) ولا تطلب خـدمة السيد الذى قد بلغت دولتـه الغاية ، لأنها تـكون موشكة على الهبوط ، ولا تحم حول الدولة التى قـد شاخت ، لأنه مهما يطل عمر الشيخ فإن الناس يرونه أقرب إلى الموت من الشبان ، وكذلك قلما يكون هنالك شيخ تفى له الأيام ، وإذا أردت أن تبقى فى خدمة ملك ، فكن كما قال العباس عم النبي عليه السلام لابنه عبد الله : اعلم يابنى أن هـذا الرجل — يعنى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه — قد استعملك لديه واعتمدعليك من بين الخلق ، والآن إذا اردت أن لا يتغلب عليك الأعداء فارع خمس خصال لتـكون آمنا : أولا يجب أن لايسمع منك الـكذب قط ، ثانيا لا تغتب أحدا عنده ، ثالثا لا تخنه أبدا ، رابعا لاتخالف أمره ،خامسا لاتفش سره لأى إنسان ، لأنه يمكن بهذه الأشياء الخمسة حصول المقصود من خدمة المخلوق . وكذلك لا تقصر فى خدمة ولى نعمتك ، وإذا وقع تقصير فلا تظهر نفسك له مقصرا ، كيلا يعرفه

---

(١) أى ان قضاء مصالح الناس على يديك من نعم الله عليك ونفع ذلك عائد إليك .

أنك فعلته قصدا ، ويعد ذلك التقصير فى الخدمة منك جهلا لا قلة أدب وعصيانا ، لأن الجهل لا يؤخذ ذنبا عليك ، ويعدون قلة الأدب وعدم الطاعة ذنبا ، وكن دائما مشغولا بالخدمة قبل أن يأمرك ، وكل ما يريد عمله شخص آخر اجتهد أن تعمله أنت ، وكن بحيث كلما يراك ، يراك فى خدمة من خدماته ، وكن دائما حاضرا فى البلاط بحيث كلما طلب أحدا يجدك ، لأن همة الملوك أن يكونوا دائما فى تجربة أتباعهم ، فإذا طلبك مرة ومرتين وعشر مرات ووجدك كل مرة فى خدمة، ورآك مقيما فى بلاطه يعتمد عليك فى الأعمال العظيمة،كما يقول قمرى الجرجانى :

شــعر

كلامنا لديك مخاطرة ، وبالمخاطرة يستخرج الجوهر من قاع البحر .

وما لم تتحمل عناء الضعة لا تصل إلى راحة الرفعة ، ألا ترى أنه ما لم يتفتت ورق النيل لا يصير وسمة[1] ، وأن الحق جل جلاله خلق الملك بحيث يكون كل خلق العالم محتاجين إلى خدمته وعبوديته ؟ ولا تظهر نفسك لدى الملك حسودا ، لأنك إذا ذكرت بعد ذلك عنده كلاما عن شخص محسود لا يسمعه ويعده من جملة الحسد وإن يكن حقا ، واخش دائما غضب الملك ، إذ لا يجوز الاستهانة أبدا بشيئين : أولهما غضب الملك، ثانيهما نصيحة الحكماء ، لأن كل من يستهين بهذين الشيئين يصير ذليلا .

هذه هى شروط خدمة الملك ، فإذا كان الأمر بحيث تجاوزت هذه الدرجة وبلغت مقاما أسمى ووصلت إلى منادمة الملك فينبغى أن يعلم لك شرط منادمة الملك ، وسأذكر ذلك أيضا .

---

(١) خضاب .

الباب الثامن والثلاثون

فى آداب المنادمة

إذا أسند اليك الملك المنادمة ، فلا تقبل ما لم تكن عندك آلة منادمته، فإنه كل من ينادم الملك ينبغى أن تكون فيه بضع خصال ، بحيث إذا لم يكن لمجلس الملك منه زين فلا يكون على الأقل شين ، فيجب أولا أن تكون كل حواسه الخمس طوع أمره ، ثم يجب أن يكون ذا منظر لا يكره الناس رؤيته حتى لا يمل مرآه ولى نعمته أيضا. وكذلك يجب أن يعرف الكتابة بالعربية والفارسية ، فإذا ما وقعت للملك حاجة إلى قراءة وكتابة شىء فى وقت ما بالخلوة ولا يكون الكاتب حاضرا ويأمرك الملك بقراءة أو كتابة كتاب لا تبقى عاجزا ، ثم ينبغى أن يعرف النديم ردىء الشعر وجيده وإن لم يكن شاعرا، ولا يخفى عليه النظم وأن يحفظ الأشعار الفارسية والعربية حتى إذا ماوقعت للملك حاجة إلى بيت من وقت لآخر ، لا يلزم طلب شاعر ، فيقوله بنفسه أو يرويه عن شخص، كما يجب أن يعرف شيئا من الطب والنجوم، حتى إذا ماجرى حديث عن هاتين الصناعتين أو وقعت حاجة فى هذا الباب تقول ما تعرفه إلى أن يأتى الطبيب والمنجم لتكون قد أديت شرط المنادمة فيعتمد عليك الملك ويكون أكثر رغبة فى خدمتك ومنادمتك له، ويجب أن يكون للنديم باع فى الملاهى ، وأن يعرف عزف شىء حتى إذا ماصارت للملك خلوة لا يكون للمطرب فيها موضع تطيب وقته بما تعرفه ليكون مشفقا عليك لهذا السبب ويزيد العناية بك ، ويجب أيضا أن تكون محاكيا وتحفظ حكايات ومضحكات كثيرة ونوادر بديعة، لأن المنادمة بغير الحكايات والنوادر تكون ناقصة، ويجب كذلك أن يعرف لعب النرد والشطرنج ولكن لا بحيث يكون مقامرا ، فإنك لا تليق بالمنادمة عندما

تـكون مقامرا بطبعك، ويجب مع كل هذا الذى ذكرته أن تحفظ القرآن أيضا وأن تعرف شيئا من التفسير كذلك وشيئا من أخبار الرسول عليه السلام وأن تكون فى الفقه وعلم الشريعة ملما بطرف من كل باب حتى إذا ماجرى فى مجلس الملك حديث فى هذا المعنى عرفت الإجابة ، فلا يتحتم الذهاب فى طلب القاضى أو الفقيه ، وينبغى كذلك أن تـكون قد قرأت كثيرا سير الملوك لتحكى عندمولاك خصال الملوك الماضين فتؤثر فى قلب الملك ويكون لعباد الحق تعالى فى ذلك نفع وتفريج، ويجب أن يكون فيك جد وهزل كذلك ، وينبغى أن تعرف فى أى وقت يكون إستعمالهما ، فلا تقل الهزل فى وقت الجد ، ولا تقل الجد فى وقت الهزل، لأن كل علم تعرفه ولا تعرف استعماله يكون العلم والجهل به سيان ، ويجب أن يكون فيك مع كل هذا الذى ذكرته فروسية ورجولة ، لأن الملك لا يشتغل كل وقت باللهو والطرب، فإذا لزم إبداء الرجولة فى وقت ما فابدها ، ولتكن قادراً على أن تقاوم رجلا أو رجلين ، وإذا دبر شخص - والعياذ بالله - خيانة ضد الملك أثنـــاء اللهو فى الخلوة ووقعت حادثة من جملة الحوادث ، تؤدى أنت ما يكون من شرط الرجولة ، ليجد ولى النعمة الخلاص بسببك ، فإذا قتلت تـكون قد أديت حق نعمته وذهبت بسمعة طيبة ، ويكون حق أبنائك قد وجب على ذلك الملك ،وإذا نجوت تـكون قد أحرزت بذلك السمعة الطيبة والعيش الحسن ما حييت ، فإذا توافر فيك هذا الذى ذكرته تـكون جديرا بمنادمة الملك ، وإذا كنت ترى أن الغرض من المنادمة هو أكل الطعام وتناول الشراب وقول الهزل فحسب، فتلك ليست منادمة بل لؤما. فاشتغل بالمنادمة العامة حتى لا تصير تلك الخدمة وبالا عليك ، وكذلك لا تغفل عن مولاك مابقيت، ولا تنظر فى مجلس الملك إلى غلمانه، وإذا أعطاك الساقى القدح فلا تنظر إلى وجهه ، واطرق برأسك إذ تأخذ النبيذ واشرب ورد القدح بحيث لا تنظر إليه حتى لا يرتاب الملك فيك ، واحفظ نفسك حتى لا تقع منك خيانة كما وقع للقاضى عبد الملك العبكرى .

حكاية

سمعت أن الخليفة المأمون أسند للقاضى عبد الملك منادمته الخاصة، إذ كان عبد الملك مدمنا للنبيذ وعزل من القضاء لهذا السبب ، وذات يوم قدم غلام النبيذ إلى هذا القاضى فى مجلس الشراب فلما أخذه نظر إلى الغلام وأشار إليه بعينه، فنظر المأمون وأبصره ، فعرف عبد الملك أن المأمون رأى تلك الإشارة، فأبقى عينه نصف مفتوحة كذلك، فسأله المأمون بعد ساعة عمدا قائلا: أيها القاضى! ماذا حدث لعينك ؟ فقال عبد الملك : لا أدرى ، أغمضت فى هذه الساعة ، فلم يفتح ماعاش بعد ذلك عينه تماما أبدا فى السفر والحضر وفى الخلا والملا حتى زال ذلك الغبار من قلب المأمون .

فينبغى أن يكون لمن ينادم الملك مثل هذه الكفاية .

الباب التاسع والثلاثون

فى الكتابة والإنشاء

إذا كنت كاتبا فينبغى أن تكون قوى البيان[1] وذا خط حسن وأن لا تعتاد التجاوز فى العبارة وأن تتعود كثرة الكتابة لتصير ماهرا .

حكاية

سمعت أن الصاحب إسماعيل بن عباد كان يوم السبت بالديوان يكتب شيئا ، فالتفت إلى الكتاب وقال: إنى كل يوم سبت أرى فى كتابتى نقصانا لأنى لم أكن يوم الجمعة قد أتيت إلى الديوان ، ولم أكتب شيئا .

فاشتغل دائما بالكتابة بخط واضح مبين مستقيم وعبارة منسجمة محكمة ، وينبغى كتابة الرسالة بحيث تستخدم الأغراض والمعانى الكثيرة فى عبارة موجزة قصيرة كما قيل :

بيت

الكتاب المليء بالمعانى فى حديث مختصر ، نكتة قد حرجت من فم الدهر .

* * *

وزين كتابك بالاستعارات والأمثال والآيات القرآنية والأخبار النبوية . وإذا كان كتابا فارسيا فلا تكتبه بالفارسية المطلقة لأنها غير مستحسنة وخاصة الفارسية الدرية إذ أنها غير معروفة ، فينبغى أن لا يكتب ذلك بأى حال والأولى

(١) الترجمة الحرفية : قادرا على الكلام .

أن لا يقال، وتكلفات الكتاب العربى معروف كيف يجب أن تكون، والسجع فى الرسالة العربية براعة وحسن جدا ويستملح، ولكنه يقبح فى الرسائل الفارسية، فإذا لم تقله أفضل، ولكن قل كل كلام تتحدث به عاليا ومستعارا وعذبا ومختصرا، وينبغى أن يكون الكاتب دراكا وأن يعرف أسرار الكتابة ويفهم العبارات المرموزة.

حكاية

هكذا سمعت أن جدك السلطان محمود ارحمه الله كتب كتابا إلى خليفة بغداد القادر بالله وقال: يجب أن تمنحنى ماوراء النهر وتعطينى منشورا بذلك لأعرض المنشور على الولاية، فإما أن آخذ الولاية بالسيف وإما أن تطيعنى الرعية بأمرك ومنشورك، فقال الخليفة: ليس فى كل ولايات الإسلام أحد أطوع منهم، معاذ الله أن أعمل هذا العمل، وإذا قصدتهم بغير أمرى فإنى أثير العالم عليك. فغضب السلطان محمود من هذا الكلام وقال للرسول: قل للخليفة ماذا تقول؟ هل أنا أقل من أبى مسلم؟ لقد وقع لى هذا الأمر معك، ها أنذا قادم بألف فيل لأخرب دار الخلافة بأقدام الفيلة وآتى بترابها على ظهور الفيلة إلى غزنة، وهدد تهديدا عظيما، فذهب الرسول وعاد بعد ذلك بمدة، فجلس السلطان محمود واصطف الحجاب وغلمان السراى وأقيمت الفيلة على باب القصر وعبىء الجند، وأذن للرسول فدخل ووضع أمام السلطان محمود كتابا يقرب من ربطة من الورق المنصورى بقطع متصل وملفوف ومختوم وقال: إن أمير المؤمنين يقول: قرأنا كتابك وسمعنا تهديدك وهذا هو جواب كتابك وتهديدك مكتوب كله فى هذا الكتاب.

فمد الخواجه[1] أبو النصر مشكان — الذى كان عميد ديوان الرسائل — يده ورفع الكتاب وفضه ليقرأه، وكان هذا مكتوبا فى أول الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم وضع سطر هكذا (الم) وآخر الكتاب (الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه محمد وآله أجمعين) ولم يكن مكتوبا شىء آخر،

(١) تنطق (خاجه)

فوقع السلطان محمود مع كل الكتاب فى حيرة قائلين : ما هذا الكلام المرموز؟ وقرأوا كل آية فى القرآن كانت (الم) وفسروها فلم تكن قط جواب محمود، وآخر الأمر ، كان الخواجة أبو بكر القهستانى شابا ، ولم يكن له بعد درجة الجلوس ، وكان واقفا بين الندماء الذين كانوا وقوفا فقال : ـ يامولاى إن الخليفة لم يكتب (ألف ولام وميم) بل إن السلطان كان قد هدده بالفيلة وقال إنى آتى بدار الخلافة على ظهور الفيلة إلى غزنة ، وقد كتب جواب السلطان (ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل) يرد جواب فيلة السلطان .

سمعت أن السلطان محمود اغشى عليه ولم يفق إلى مدة طويلة ، وبكى كثيرا وناح حسبما تقتضى ديانة ذلك الملك ، وطلب من الخليفة المعذرة . وتلك قصة طويلة ، وأمر لأبى بكر القهستانى بخلعة ثمينة وأجازله أن يجلس بين الندماء ، ونال بهذه الكلمة الواحدة درجة عظيمة .

حـــكاية

وكذلك سمعت أيضا أنه فى أيام السامانيين ، كان الأمير أبو على سيمجور ـ الذى كان بنيسابور ـ يقول : إنى مطيع لقائد وأمير خراسان ، ولكن لم يكن يذهب إلى البلاط ، وكان ذلك آخر عهد السامانيين ودولتهم ولم يكونوا من القوة بحيث يأخذون أبا على بالعنف ، فكانوا يرضون منه مضطرين بالخطبة والسكة والهدية ، وكان عبد الجبار الخوجانى — الذى كان خطيب خوجان ـ يعرف القصة جيدا وأديبا وكاتبا نشطا وبارعا وكامل الرأى وكفئا لكل عمل ، فأحضره الأمير أبو على من خوجان وأسند إليه الكتابة فى حضرته وأمر له بكامل التمكين ولم يكن يعمل أى عمل بغير مشورته[1] لأنه كان رجلا ذا كفاية . وكان أحمد بن رافع اليعقوبى كاتب حضرة أمير خراسان ، وكان رجلا

---

(١) الترجمة الحرفية ـ ولم يكن فى أى شغل بغير مشورته .

فاضلا جدا ومحتشما وكانت أعمال ما وراء النهر تحت تصرفه[1]، وكان لأحمد بن رافع صداقة مع عبد الجبار — بغير سابق ممالحة[2] وملاقاة بينهما — ولكنهما بمناسبة الفضل، كانا يتصادقان مع أحدهما الآخر بالمكاتبة. وذات يوم قال أمير خراسان للأمراء: لو لم يكن عبد الجبار الخوجاني كاتبا لأبي على سيمجور لكان من الممكن إخضاع أبي على، فإن كل فتنة أبي على هذه من كفاية وتدبير عبد الجبار، فيجب كتابة كتاب لأبي علي والقول له: إذا كنت مطيعا لنا، وعبدا لنا، فينبغي عندما يصلك هذا الكتاب أن تفصل رأس عبد الجبار عن جسده في الحال وتضعها في المخلاة وترسلها بيد هذا القاصد إلى الدارگاه[3] حتى نعلم أنك في طاعتنا، ومعلوم لنا أن كل ما تفعله إنما تعمله بمشورته، وإلا فإني أنا أمير خراسان أسير إليك بنفسي فاستعد للحرب! فلما دبروا هذا التدبير قالوا ينبغي أن لا يكون هذا الكتاب بخط أحمد بن رافع بأي حال، لأن أحمد بن رافع صديق عبد الجبار فلا بد وأن يرسل شخصا ويطلعه على هذى الحال ويفر عبد الجبار، فدعا أمير خراسان أحمد بن رافع وأمره بأن يكتب كتابا لأبي على في هذا الباب وقال: إذا كتبت الكتاب فإني لا أريد أن تخرج من هذه السراى ثلاثة أيام بلياليها ولا يراك في هذه الأيام الثلاثة أي واحد من خاصتك أو من أتباعي، لأن عبد الجبار صديقك، فإذا لم يقبض عليه أعرف أنك قد أخبرته وأرشدته، ولم يستطع أحمد بن رافع أن يقول شيئا، فكان يبكي ويقول لنفسه، ياليتني لم أكن كاتبا أبدا حتى لم يكن صديق بكل هذا العلم والفضل يقتل بخطي، ولا أعرف أي تدبير لهذا الأمر، وأخيرا تذكر هذه الآيه (أن يقتلوا أو يصلبوا) فقال لنفسه: ولو أنه لا يعرف هذا الرمز ولا يقف على سر هذا المرموز فإني أؤدي ما يكون من شرط الصداقة. فلما كتب الكتاب عنونه وكتب على حافة الكتاب (ألفا) بقلم رفيع وعلى الجانب الآخر (نونا) يعني (أن يقتلوا)

---

(١) الترجمة الحرفية: تحت قلمه.

(٢) أكل عيش وملح كما نقول.

(٣) البلاط أو قصر الأمير، وهذا الحرف «گ» ينطق كالجيم المصرية أو حرف «g»

وعرض الكتاب على أمير خراسان ولم يلتفت أحد إلى العنوان ، فلما قرأوا الكتاب ختموه وأعطوه للجمازى[1] الخاص ولم يطلعوا الجمازى على هذى الحال، وقالوا له اذهب وسلم هذا الكتاب للأمير أبى على سيمجور وخذ ما يعطيه لك وأت به ، واعتقلوا أحمد بن رافع ثلاثة أيام بلياليها فذهب إلى بيته بعد ثلاثة أيام بقلب دام ، ووصل الجمازى إلى نيسابور وذهب إلى الأمير أبى على وسلمه الكتاب ،فرفع أبو على الكتاب وقبله حسب الرسم وسأل عن حال سلامة أمير خراسان . وكان عبد الجبار الخطيب جالسا فسلمه الكتاب وقال . فض الخاتم واعرض الأمر ، فأخذ عبد الجبار الكتاب ونظر إلى العنوان، وقبل أن يفض الختم رأى الفا مكتوبة على حافة وعلى الحافة الأخرى نونا . فتذكر فى الحال هذه الآية (أن يقتلوا) فعرف أن الكتاب فى باب قتله . فوضع الكتاب من يده كما هو بالختم ووضع يده على أنفه يعنى : حدث لى رعاف ، وقال أذهب وأغسله وأعود، وهكذا ذهب من عند أبى على ويده موضوعة على أنفه وخرج من الباب وتوارى بمكان ، وانتظروه زمانا . فقال أبو على : ادعوا الخواجة[2] فطلبوه فى كل مكان ولم يجدوه ، فقالوا إنه لم يركب جوادا وذهب ماشيا ولم يذهب إلى البيت ولا يعرف أحد أين هو، فقال أبو على ادعوا كاتبا غيره ، فجاء وقرأ الكتاب أمام الجمازى ، فلما علم الحال تعجب الخلق جميعا قائلين : من أخبره بما كتب فى هذا الكتاب ؟ فأظهر الأمير أبو على بعض الضجر فى حضور الجمازى ولو أنه كان مسرورا بذلك ، ونادوا فى المدينة ، وأرسل عبد الجبار شخصا فى الخفاء قائلا إنى قد تواريت فى المكان الفلانى، فسر ابو على بذلك وشكر الحق تعالى وأمره قائلا : ابق بنفس المكان الذى أنت فيه ، فلما انقضت بضعة أيام أعطى الجمز خلعة حسنة وكتب جواب

(١) أى راكب الجماز أو الجمل السريع المعروف لنا فى مصر بالهجين .

(٢) تكتب بالفارسية — خواجة — ولا تنطق الواو . ومعنى هذه الكلمة السيد وتستعمل أحيانا بمعنى الوزير أو القاضى .

الرسالة قائلا : كان الحال على هذا المنوال وأقسم الأيمان قائلا إنى لم يكن لى خبر بهذا والجازى شاهد على هذه الحال ، فلما وصل الجازى وعلم الأمر حار أمير خراسان فى ذلك وأرسل بخطه وختمه قائلا : إنى عفوت عنه بشرط أن يقول بماذا عرف ما كان مكتوبا فى ذلك الكتاب ، فقال أحمدبن رافع :اعطنى الأمان على حياتى حتى أقول . فقال أعطيتك فقل! فحدثه احمدبن رافع عن ذلك الرمز، فعفى أمير خراسان عن عبد الجبار وطلب استرداد كتابه ايرى ذلك الرمز ، فردوا الكتاب فكان كما قال أحمد بن رافع فعجز كل الخلق عن إدراك ذلك .

ومن شرائط الكتابة أيضا أن تكون ملازما الحضرة على الدوام ، وكن سباقا إلى العمل وذكيا ومثقفا وذكورا للأعمال ومدققا فى كل الأمور، واحتفظ بتذكرة بما تؤمر به ، وكن واقفا على حال كل أهل الديوان واطلع على معاملات كل العمال وتجسس وتعرف بجميع أنواع الأعمال ، فإذا لم تنفعك فى الحال فقد تنفع فى وقت ما ، ولا تفش هذا السر لأحد إلا وقت الضرورة. ولا تتفحص فى الظاهر شغل الوزير ولكن اطلع على كل الأمور فى الخفاء ، وكن قديرا فى الحساب ولا تفرغ ساعة واحدة من التصرف والتدبير وكتابة كتب المعاملات ،لأن هذه كلها فضائل فى الكتاب ، وخير فضيلة للكتاب حفظ اللسان وعدم إفشاء سر ولى النعمة وإحاطة مولاهم بكل الأشغال وعدم الفضول .

وأما إذا كنت قديرا فى الخط وتقلد[1] كل خط تراه ، فهذا فن حسن جدا ولكن لا توقف عليه أى إنسان حتى لا تصير معروفا بالتزوير فتزول عنك عندئذ ثقة ولى النعمة وإذا ارتكب شخص آخر تزويرا ولم يعرفوا

---

(١) الترجمة الحرفية ـ تكتب .

من عمله يلصقونه بك ،ولا تزور من أجل أمر حقير، لكى يفيدك يوما ما ويكون النفع عظيما وإذا فعلت لا يرتاب فيك أحد ، فقد أهلكوا كثيرا من الكتاب الأفاضل والمحتشمين والوزراء العلماء بسبب الخط المزور .

حكايـــة

كان الربيع بن المطهر القصرى كاتبا فاضلا ومحتشما وكان يزور فى ديوان الصاحب ، فبلغ هذا الخبر سمع الصاحب ، وحار الصاحب ، ولم يكن يستطيع إهلاك هذا الرجل لفضله كما لا يستطيع اطلاعه على هذا الكلام، فكان يفكر ماذا يفعل معه ، فاتفق أن عرضت للصاحب عارضة وكان الناس يذهبون لعيادته ، فدخل الربيع ابن المطهر ليعوده وجلس عنده وسأل الصاحب حسب الرسم قائلا :ما ألم بك وأى دواء[1] تشرب ؟ فقال الدواء[2] الفلانى ، فقال: أى طعام تأكل ؟ قال ما تفعله أنت يعنى (مزور)[3] فعرف الكاتب أن الصاحب قد علم بذلك ، فقال يامولاى بحياتك ورأسك لاأفعل بعد ذلك ، فقال الصاحب : إذا تبت فإنى لا أعاقبك على مافعلت وعفوت عنك .

فاعلم أن التزوير أمر خطير فاجتنبه ، ولا أستطيع أن أؤدى ماعلى من حق الكلام فى كل حرفة وكل عمل تماما ، لأن الكلام يطول وأتخلف عن المقصود ، ولا أستطيع أن أتركه كذلك من غير أن يقال ، فعليه أقول بضع كلمات تفيدك من كل باب ليصير معلوما لك ، فقد ذكرت لك طرفا من كل نوع ،فإذا أصغيت بسمع القلب حصل لك من هذا فوائد واستنتاجات[4] إذ يمكن إضاءة مصابيح كثيرة من مصباح واحد ، فإذا من الله تعالى عليك ووصلت من درجة الكتابة إلى درجة الوزارة فينبغى أن تعرف شروط الوزارة أيضا .

---

(١) ، (٢) فى الأصل شراب وشربت ووضع فى مقابلهما كلمة دواء لمناسبة المرض .
(٣) اسم حساء وفى ذلك تورية .
(٤) فى الأصل : استخراجات .

الباب الأربعون

فى شرائط الوزارة

أى بنى ! إذا اتفق لك أن تكون وزيرا فكن محاسبا واعرف المعاملة جيدا واستشعر الصدق مع مولاك ، وانصف ولى نعمتك ، ولا تطلب الكل لنفسك ، فإنك لا تعطى الكل ، وإذا أعطوك فى الحال فإنهم يطلبونه من بعد ذلك ، وإذا تركوه أولا فإنهم لا يتركونه آخرا ،فاحفظ مال الملك ، وإذا أكلت منه فكله بأصبعين حتى لا يتوقف فى حلقك[1]،ولكن لا تغل يد العمال مرة واحدة ، لأنك إذا ضننت بالدسم على النار يبقى الكباب نيئا ، ومالم تدع دانقا للآخرين لا تستطيع أكل درهم ، وإذا أكلت لا يسكت المحرومون ولا يدعونه يبقى خافيا ، وكما تكون منصفا مع ولى نعمتك كن منصفاً مع الجند والرعية أيضا ، ولا تعمل التوفيرات الحقيرة ، فإن استخراج اللحم من تحت الأسنان بالخلال وأكله لا يشبع ، وتكون بذلك القدر الضئيل من التوفير قد جعلت العسكر أعداء وصيرت الرعية عدوا لمولاك ، وإذا أردت الكفاية فجد فى العمارة والزراعة وحصل منها، وعمر خرائب المملكة ، ليكون التوفير عشرة أمثال ولا تكون قد أعجزت خلق الله .

حكاية

هكذا سمعت أن ملكا من ملوك فارس غضب على وزيره وعزله وقال له: اختر مكانا آخر لأهبه لك لتذهب هنا لك بنعمتك وحشمتك ويكون هناك

---

(١) أى الزم القناعة حتى لا تنص .

مقامك ، فقال الوزير : لا أريد نعمة ووهبت كل ما أملك للملك ، ولا أطلب أن يهب لى أى مكان عامر قط ، فإذا ترفق بى فليهب لى من ملكه قرية خربة بحق الملك لألبس مرقعاً وأعمر ذلك المكان وأقيم فيه ، فأمر الملك قائلا : أعطوه قرى خربة بقدر ما يريد ، فطافوا فى كل مملكة الملك فلم يجدوا شبر أرض خرابا ليعطوه له ، فأخبروا الملك ، فقال الوزير : أيها الملك! إنى كنت أعرف أنه لا يوجد بعملى خراب قط فى جميع الولايات والأماكن التى فى تصرفك ، والآن وقد أخذت الولاية منى فاعطها لمن إذا استرجعتها منه يردها كما سلمتها ، فلما علم هذا الحال اعتذر الملك لذلك الوزير المعزول وخلع عليه وقلده الوزارة مرة ثانية .

والمقصود هو أن تكون فى الوزارة معمارا وعادلا لتكون كلمتك دائما نافذة ، وتكون حياتك آمنة ، وإذا شغب عليك الجند فلا مناص للملك من وجوب كف يدك حتى لا يكفوا يد مولاك ، ولا تكون قد جرت ذلك الجور على الجند ، بل تكون قد جرت على نفسك وعلى مولاك كذلك ، ويصير ذلك التوفير تقصيرا فى عملك ، فرغب الملك فى الإحسان إلى الجند والرعية فإن ثبات الملك بالجند وعمار القرية بالدهقان[٢] فاجتهد دائما فى العمارة ، ودبر الملك ، واعلم حقا أنه يمكن تدبير الملك بالجند ، ويمكن امتلاك الجند بالمال ، ويحصل على المال بالعمارة ، وتكون العمارة بالحق والعدل والإنصاف ، فكن منصفاً وعادلا ، واخش الملك مهما تكن صائنا وأمينا ، فإنه لا يجب على شخص الخوف من الملك كما يجب على الوزير ، وإذا كان الملك صغيرا فلا تعده صغيرا لأن مثل أبناء الملوك كمثل صغار البط ، فإنه لا يلزم تعليم صغار البط السباحة ، فلا يمضى زمن طويل حتى يعرف محاسنك ومساوئك ، وإذا كان الملك بالغا ورشيدا لا يخرج عن اثنتين : إما أن يكون عاقلا أو جاهلا ، فإن يكن عاقلا لا يرضى بخيانتك فيكف يدك عن العمل على الوجه الأحسن ، وإذا كان ـ نعوذ بالله ـ

---

(٢) تعريب (دهكان) أى الفلاح أو القروى أو الزارع.

غير عاقل وجاهلا يعزلك على أسوأ وجه ، وربما تنجو بحياتك من العاقل ولا خلاص من الجاهل بأى وجه. ثم إنه لا تفارق الملك حيثما يذهب ولا تدعه وحيدا حتى لا يجد أعداؤك فى غيابك فرصة للوشاية بك عنده ، ويحولوه عن حاله[1] ولا تغفل عن حال الملك بأى حال ، فاعمل بحيث يكون مقربوه جواسيسك ليطلعوك على كل نفس يتنفسه وتكون مدبرا لكل كلمة قولا وتعمل لكل سم ترياقا ، وكن أيضا على الدوام متنبها للملوك الأطراف والنواحى، ويلزم كذلك أن لا يشرب أى صديق أوعدو لمليكك شربة ماء من غير أن يطلعك عليها عيونك وتكون عارفا بحال مملكته كمملكة مولاك .

حـــكاية

سمعت أن وزير فخر الدولة الشهير الصاحب اسماعيل بن عباد لم يحضر يومين إلى الديوان ولم يأذن لأحد ، فأطلع المنهى فخر الدولة على تلك الحال ، فأرسل فخر الدولة شخصا إلى الصاحب وقال : سمعت بخبر تكدرك فانشغل قلبى ، ولا أعرف سبب ذلك ، فإذا كان فى المملكة سبب لا نشغال القلب فاطلعنى عليه لأتولى أنا أيضا مصلحة ذلك الأمر، وإذا كان منى تقصير فى حقك فاذكره لأعتذر ، فقال الصاحب: معاذ الله أن يكون لعبدك تكدر من مولاه أو بالمملكة قصور [2] ، بل إن أمر المملكة منتظم ، فينبغى أن يكون الملك مشغولا بمسراته لأن كدر عبده هذا يزول سريعا ، وفى اليوم الثالث، جاء إلى سراى الملك فى مكانه راضى القلب كما كان ، فسأله فخر الدولة قائلا : لأى سبب كنت مشغول القلب ؟ فقال الصاحب : كان أصحاب أخبارى [3] قد كتبوا إلى من كاشغر : إنه فى اليوم الفلانى قال الخاقان للقائد الفلانى كلاما ولم نستطع أن نعرف ماذا قال ، فلم ينزل الطعام من حلقى من ذلك الغم ، إذ

---

(١) أى يغيروله عليك .

(٢) أن يكون بالمملكة خلل أونقص.

(٣) منهيان من .

كيف ينبغى أن يقول خاقان التركستان كلاما بكشغر لا أعرفه هنا ! واليوم وصلت رسالة[1] وصار معلوما أى حديث كان ذاك فطاب قلبي .

فينبغى أن تكون ذا دراية بأحوال كل الملوك ، وتعرض الأحوال على مولاك ، ليكون على علم بالصديق والعدو ويعلم للملك حال كفايتك وذكائك ، واعط كل عمل تأمر به للجدير بالعمل ولا تضع الدنيا فى أيدى الجاهلين والظلمة من أجل الطمع ، ولا تسند العمل الكبير إلى العمال الوضيعين والسفلة ، فقد سألوا بزرجمهر قائلين : لما كنت فى شغل وعمل آل ساسان ، لم اضطربوا ؟ فقال : لأنهم استعانوا بالعمال الأصاغر فى الأمور الكبيرة والعظيمة حتى انتهى أمرهم إلى تلك الغاية . ولا تسند العمل إلى المفلس والملق وخاصة العمل الكبير ، لأنه لا ينشغل بحاجاتك ما لم يوفر أسباب العيش لنفسه ، ولكن إذا كان ذا سعة لا ينشغل بنفسه كل الانشغال ويؤدى عملك على أسرع وجه. وكذلك إذا رويت المزارع والمخضرات فإن مسقاة المزرعة والمخضرة إذا كانت رطبة مروية توصل الماء سريعا إلى المزرعة والمخضرة ، وإذا كانت أرض تلك المسقاة جافة وقد مضت مدة طويلة لم يجر فيها ماء ، فإنه عندما يجرون بها الماء لا توصله إلى المزرعة والمخضرة ما لم تترطب وتتشبع بالماء أولا ، فالعامل المعوز كالساقية[2] الجافة ويدبر حوائجه أولا ثم حوائجك ، وفضلا عن ذلك عظم أوامرك ولا تدع شخصا يجرؤ على مخالفة أمرك .

حكاية

هكذا سمعت أن أبا الفضل البلعمى أسند إلى سهل الخجندى رياسة ديوان سمرقند ، ووقع فرمانه وخلع عليه ، وذهب سهل إلى سراى الوزير للوداع وطلب الفرمان فى اليوم الذى أراد فيه الذهاب ، فلما أدى خدمة الوداع لم يقل علنا ما أراد أن يقول ، فطلب الخلوة ، فاخلى الوزير الدار ، فقال سهل :

---

(١) فى الأصل : ملاطفة .

(٢) الساقية النهر الصغيرة ومجرى المياه .

أطال الله بقاء مولاى! عند ماأصل إلى عملى لابد وأن تصدر من هنا الأوامر، فليعط مولاى عـلامة لعبده أن أى أمر يجب تنفيذه وأيهـا لايجب تنفيذه ، ليعرف عبدك ويعمل كما يأمره مولاه ، فقال أبو الفضل البلعمى: ياسهل! حسنا قلت ، أعلم أنك فكرت فى هذا أياما طويلة ، ويلزمنا أن نفـكر أيضا لأن أمراكهذا لا يمكن الإجابة عليه فى التو ، فتوقف بضعة أيام ، فذهب سهل الخجندى إلى بيته ، وأسندت رياسة ديوان سمرقند فى الحال إلى سليمان الچغانى وأرسلوه مع الخلعة والمنشور،وأمر بأن يقال لسهل بأنه يجب أن لا يبرح البيت مدة عام ، فأقام سهل سجينا فى بيته سنة ، وبعد سنة إستدعاه مولاه إليه وقال : ياسهل ! أى وقت رأيتنا عملنا بمنشورين أحدهما صدق والآخر كذب ونحن نعلم أكابر الدنيا الطاعة بالسيف ؟ أى حماقة رأيت فينا حتى نعلم مرءوسينا العصيان ونقول لهم لاتعملوا بأمرنا ؟ إن أمرنا واحـد ما نريد عمله نأمر به ومالا نريد لا نأمربه ، إذ ليس لنا رهبة وخشية من أحد وكذلك لسنا عاجزين فى العمل ، وهذا الظن الذى ظننته بنا هو شأن العاجزين ، وكما اعتبرتنا راجلين[1] .فى العمل فنحن أيضا اعتبرناك راجلا فيه حتى لاتذهب إلى عملك وأنت تعتقد أن شخصا يجرؤ على مخالفة ذلك الفرمان .

فلا توقع بالـكذب ما حييت ، وإذا لم يعمل عامل بأمرك فعاقبه عقوبة بالغة . لتجعل توقيعك فى حيـاتك معظما ونافذا ، لأنه لا يعمل أحد بتوقيعك من بعدك ، كما لا يعملون الآن بتوقيعات الوزراء الماضين ،

فيجب أن يكون للملوك والوزراء فرمان واحد وأمر قاطع ، لتـدوم الحشمة وتـكون الأعمال نافذة ، ولا تشرب النبيذ لأن الغفلة والرعونة

(١) عاجزين .

والإثم تنشأ من شرب النبيذ ، نعوذ بالله من الوزير المدمن للنبيذ ومن العامل الأرعن . وكذلك عندما يكون الملك مشغولا بشرب النبيذ يظهر الخلل فى المملكة ، فاحفظ نفسك وكن كما ذكرت ، لأن الوزير حارس المملكة ومن القبيح جدا أن يلزم للحارس حارس آخر ، فإذا اتفق أن صار عملك من الوزارة إلى القيادة فينبغى أن تعرف شرائط القيادة ليكون[1] كل يوم فى ارتقاء.

---

(١) أى عملك .

الباب الحادى والأربعون

فى نظام القيادة

أى بنى! إذا كنت قائدا فكن محسنا إلى العسكر والرعية ، اعمل الخير من جانبك واطلب الخير كذلك من مولاك وكن يقظا دائما ، واعرف جيدا طريقة قيادة الجند وإعداد الحملة ، وفى اليوم الذى تقع فيه المعركة ابعث إلى الميمنة والميسرة بالقواد الذين مارسوا الحروب وخبروا الدنيا ، وأقم أشجع القواد مع خير طائفة فى الجناح ، لأن هؤلاء القوم الذين فى الجناح هم ظهر الجند . ومهما يكن الخصم ضعيفا فلا تره ضعيفا ، واحتط فى أمر ذلك الضعيف كما تحتاط فى أمر القوى ، ولا تتهور فى الحرب حتى لا تبدد شمل الجيش[1] وكذلك لا تكن كثير الجبن والخور فتهزم جيشك بجبنك وخورك ، ولا تغفل عن إرسال الجواسيس واستطلاع حال العدو ، ولا تقصر فى إرسال الطلائع ليل نهار . وكن باشا يوم المعركة عندما تلق بنظرك على عسكر العدو ويلتقى الجمعان وجها لوجه ، وقل لجندك من يكون هؤلاء وما أصلهم ؟ لندمرنهم هذه الساعة ! ولا تزحف بالجيش إلبا واحدا وابعث الفرسان لواء لواء[2] وفوجا فوجا ، وعين قائدا قائدا ورئيسا رئيسا قائلا: يافلان اذهب أنت إلى الجهة الفلانية مع فرقتك . واحتفظ عندك بمن يليق بحملة الأمير ، وكل من يحس القتال ويصرع شخصا

---

(١) الترجمة الحرفية : حتى لا تسلم الجند للريح .

(٢) الترجمة الحرفية: علامة علامة .

أو يجرحه أو يأسر فارسا أو يأتى بفرس أو يقوم بخدمة مرضية ، فراعه بأضعاف تلك الخدمة ، من خلعة وزيادة معاش ، ولا تقتصد فى المال فى ذلك الوقت ، ولا تكن أيضا وضيع المهمة حتى يحصل غرضك سريعا ، لأنهم حينما يرون مثل هذا تثور رغبة الحرب فى كل الجنود ولا يقصر أى شخص فى القتال ، ويتم النصر وفق مرادك ، فإذا تحقق مقصودك على هذه الجملة فبها ونعما ، لا تتسرع وابق فى مكانك ولا تبذل أى جهد ، وإذا صارت نوبة الحرب إلى كبار القواد وتحرج الموقف وجاء دورك فى القتال فانتهز الفرصة ولا تفكر فى الهزيمة وصارع الموت لأن كل من يستعذب الموت ويستطيع انتزاع حب الحياة من قلبه لا يمكن زحزحته بأى باطل عن موضعه ، وإذا ظفرت فلا تطارد المنهزمين كثيرا إذ يقع كثير من الخطأ فى الرجعة ولا يمكن أن يعرف كيف يكون الحال .

ولم يكن الأمير الكبير أبى رحمه الله يطارد المهزومين وكان يقول : إن المنهزم إذا عجز نهض من أجل روحه وصمد ، وإذا كر فلا ينبغى الاشتباك معـــه لكيلا يقع خطأ ، وإذا ذهبت إلى الحرب فلابد من أن تنظر فى الباطن طريق الخروج بعين قلبك كما ترى فى الظاهر طريق الولوج بعين رأسك ، فربما لا يكون الأمر كما تريد ، ثم لا تنس هذه الكلمة ، ولو أنى قد ذكرتها فى موضع آخر ، فإنى أكررها مرة أخرى . متى ما وقعت الحرب إذا كان موقفك حرجا مثلا وكان وراءك متسع بمقدار خطوة فحذار أن تتقهقر تلك الخطوة لأنك إذا تقهقرت شبرا يهزمونك فى الحال ، فاجتهد دائما أن تتقدم عن موضعك ولا تتقهقر خطوة أبدا ، كما يجب أن يقسم جندك فى كل وقت بحياتك ورأسك ، وكن سخيا مع العسكر ، فإذا لم تستطع أن تزيد عن ذى قبل فى الخلعة والصلة فلا تقصر فى كلامك على الأقل ، ولا تأكل لقمة خبز ولا تشرب قدح نبيذ إلا مع جندك ، فإن ما تفعله لقمة الخبز لا يفعله

الذهب والفضة والخلعة، واجعل جندك دائما راضين ، وإذا أردت أن لا يضنوا عليك بالروح فلا تضن عليهم بالخبز ، ولو أن كل الأمور منوطة بتقدير الله جل جلاله ، أما أنت فاعمل ما يوجبه التدبير على وجه الصواب وما قدر يكون .

فإذا من الله تعالى عليك مثلاوأبلغك الملك فارع شروط الملك وكن عالى الهمة على هذه الجملة .

الباب الثانى والأربعون

فى آداب الملك

أى بنى ! إذا صرت ملكا يوما ما فكن ورعا ، وكف عينك ويدك عن حرم المسلمين ، وكن طاهر الإزار[1] لأن طهارة الإزار من الدين[2] ، واجعل رأيك مطيعا للعقل فى كل أمر ، وشاور عقلك أولا فى كل عمل تريد أن تعمله لأن وزير وزراء الملك هو العقل ، ولا تتسرع ما دمت ترى وجها للتأنى وتدبر أولا طريق الخروج من كل أمر تريد الولوج فيه ، ولا تر الأول ما لم تر الآخر ، وراع المداراة فى كل الأمور ، وكل أمر يتم بالمداراة لا تنجزه بغير مداراة ، ولا ترض الجور ، وانظر إلى كل الأعمال والأقوال بعين العدل حتى تستطيع أن ترى الحق والباطل فى كل الأمور ، لأن الملك إذا لم يفتح عين العدل والعقل ، يستغلق عليه طريق الحق والباطل . وكن صادق القول على الدوام ، ولكن كن قليل الكلام والضحك حتى لا يجترىء عليك من دونك فقد قيل : أسوأ الأمور للملك اجتراء الرعية وعصيان الحاشية وأن لا يصل إلى المستحقين العطاء الذى يأتى منه ، وكن عزيز اللقاء حتى لا تصير حقيرا فى أعين الجند والرعية ، وحذار أن تحقر نفسك ، وكن رحيما بعباد الحق تعالى ولكن لا ترحم من لا يرحمون ، وكن ذا سياسة وخاصة مع وزيرك ولا تظهر نفسك البتة بسلامة القلب معه ، ولا تفتقر كلية إلى رأيه ، واستمع إلى كل كلام يقوله الوزير بشأن[3] أحد أو طريق يبينه ولكن لا تجب فى الحال ، وقل : حتى ننظر ! وحينئذ نأمر بما يجب ، وبعد ذلك مر بتفحص تلك الحال لترى ما إذا كان يطلب فى ذلك الأمر صلاحك

---

(١) الترجمة الحرفية : طاهر السروال . أى ذو عفة .

(٢) فى نسخه نفيسى (پاك دينى است) أى : طهارة الدين ، فى نسخة هدايت (از پاك دينى بود) أى : من طهاره الدين .

(٣) الترجمة الحرفية : باب .

أو نفع نفسه ، فإذا عرفت ذلك فأجب حسبما رأيته صوابا ، لكيلا يعدك أسير رأيه ، واتخذ وزيرك شيخا سواء أكنت شيخا أم شابا ولا تقلد الشاب الوزارة فقد قيل :

بيت

لا كان قائد الجيش سوى الشيخ ، الشاب شاب كذلك مهما يكن أستاذا

* * *

وفضلا عن ذلك إذا كنت شيخا فإنه أمر قبيح أن يكون شاب مدبرا وسائسا لشيخ ، وإذا كنت شابا والوزير شابا ، تلتئم نار شبابك مع نار شباب الوزير وتحترق المملكة بكلا النارين ، ثم يجب أن يكون الوزير بهى الوجه وشيخا أو كهلا معتدل القامة وقوى التركيب وكبير البطن ، لأنه لا أبهة قط للنحيف وقصير القامة وأسود اللحية ، فينبغى أن يكون الوزير عظيم اللحية .

حكاية

كذلك أراد السلطان طغرل بك أن يسند الوزارة لواحد من فضلاء خراسان ، فاختار الفارابى العالم ، وكان لهذا العالم لحية طويلة وعريضة جدا تبلغ سرته ، فأحضروه وسلموه رسالة السلطان حيث يقول : إننا اخترناك لوزارتنا فيجب أن تتولى تدبير أمورنا لأننا لا نعرف شخصا أجدر منك بهذا الأمر ، فقال العالم : قولوا لمولاى السلطان : أبقاك الله ألف عام ، الوزارة مهنة يلزمها آلات كثيرة وليس لهذا الخادم من كل الآلات شىء آخر غير اللحية ، فلا يغتر مولاى بلحيتى ، وليأمر بهذه الخدمة لشخص آخر .

وكل من أسندت إليه الوزارة مكنه فيها تمام التمكين حتى لا تستغلق شئون مملكتك وأشغالها ، واحسن إلى أقربائه والمتصلين به ، كيلا يقع تقصير فى تأدية المعاش وعمل الخير ، ولكن لا تأمر بأى عمل لأقارب الوزير والمتصلين

به ، لأنه لا يمكن تسليم الإيالة جملة للقطة ، إذ أنه لا يحاسب ذويه بالحق بأى حال ، ولا يؤذى أقاربه من أجل مالك ، وفضلا عن ذلك فإن أقارب الوزير بانتسابهم إليه يرتكبون من الجور على المسلمين مالا يرتكب الغرباء منه واحدا فى المائة، ولا ترحم اللص ولا تجز العفو عنه ولا تعف عن القاتل ،واحتط فى أمر القاتل ، لأنه إذا كان مستحقا للقصاص وعفوت عنه تكون أنت أيضا يوم القيامة شريكا له فى ذلك الدم وتؤخذ به ، ولكن ارحم غلمانك لأن الملك كالراعى والرعية كالقطيع ، فإذا كان الراعى غير رحيم بقطيعه ولم يحفظه من السباع يهلك «القطيع»[1] سريعاً ، وكل من عينت له قسطا لا تعتمد على ماتكون قد عينت له ، ومر لكل شخص بعمل ولا تضن عليهم بالشغل لأن ذلك النفع الذى يجدونه من الشغل يضيفونه إلى قسطهم ويعيشون مستكفين ، وتكون أنت أقل انشغالا من أجلهم لأن الغلمان يقتنون من أجل العمل ، ولكن عندما تعطى الغلمان عملا تأمل جيدا واعط العمل للجدير به ولا تأمر بعمل لمن لا يليق به، فمن يليق بالفراشة لا تعطه السقاية ، ومن يليق بالسقاية لا تعطه الخزانة ومن يليق بالخزانة لا تعطه الحجابة إذ لا يمكن إعطاء كل عمل لكل إنسان ، كما قيل : (لكل عمل رجال ولكل مكان مقال) حتى لا يطول عليك لسان الطاعنين ، ولا يظهر الخلل فى عملك ، لأنه إذا أمرت لخادم بعمل ولا يعرفه، فإنه من أجل منفعته لا يقول بأى حال إنى لا أعرفه ، ويعمله ولكن العمل يكون فاسدا ،فاعط العمل للخبير به لتستريح من وجع الرأس، كما يقول الشاعر.

بيت

ولكن أرجو من إلهك التوفيق لأن تعطى المناصب للخبيرين بها .

* * *

فإذا كنت ذا عناية بشخص وأردت أن تصيره محتشما ، فإنك تستطيع أن تعطيه النعمة والحشمة بغير عمل ومن غير أن تأمر له بشغل بغير موجب ، حتى

---

(١) ليست فى الأصل .

لا تكون قد أشهدت على جهلك ، ولا تدع شخصا يستهين بأمرك فى مملكتك، لأن ذلك يكون كما لو قد استهان بك فى ملكك إذ أن راحة الملك ولذته فى إصدار الاوامر ، وإلا فإن الملك يكون مساويا للرعية فى الصورة ، والفرق بين الملك والرعية هو أن يكون الملك آمرا والرعية طائعة .

حكاية

سمعت أنه كان فى أيام جدك السلطان محمود عامل يقال له أبو الفرج البستى عهد إليه بأعمال نسا وباورد ، فقبض على رجل فى نسا واغتصب منه أموالا طائلة ، وصادر ضياعه وأودعه السجن ، وبعد مدة احتال الرجل وفر من السجن وذهب إلى غزنة ، ودخل على السلطان وطلب النصفة ، فأمر السلطان أن يكتب له كتاب من الديوان ، فأخذ الرجل الكتاب وجاء حتى وصل إلى نسا وعرض الكتاب ففكر العامل أن كيف يذهب هذا الرجل مرة أخرى إلى غزنة ويرى السلطان ، فلم يرد إليه ضياعه ولم يعمل بذلك الكتاب قط ، فأخذ الرجل المظلوم طريق غزنة مرة أخرى وسار حتى وصل إلى غزنة وكان يذهب كل يوم إلى باب سراى السلطان محمود ، إلى أن كان السلطان محمود ذات يوم خارجا من البستان فصاح الرجل واستغاث كثيرا من العامل ، فأمر له السلطان بكتاب مرة أخرى ، فقال : إنى جلبت مرة كتابا ورجعت ، ولا يجدي الكتاب نفعا فى نسا ، إلا أن السلطان كان متكدرا فى تلك الساعة لسبب من الأسباب فأجاب الرجل قائلا : على إصدار الأمر فإذا لم يعمل بالكتاب فماذا أعمل ؟ اذهب واحث التراب على رأسك ! فقال الرجل : أيها الملك ! إن غلامك لا يعمل بأمرك فهل يجب على أنا أن أحثو التراب على رأسى ؟ فقال السلطان محمود : لا أيها السيد ، إنى أخطأت يجب على أنا أن أحثو التراب على رأسى ، وعين له فى الحال غلامين من سرايه فذهبا إلى نسا ، وأحضرا شحنة تلك النواحى ، وعلقوا ذلك الكتاب فى عنقه وصلبوه ، ونودى بأن هذا جزاء

من لا يعمل بأمر الملك ، وبعد ذلك لم يكن لأى شخص جرأة على أن لا يعمل بأمر الملك ، وصارت الأوامر نافذة واستراح الناس .

حكايـــة

وكذلك يابنى فى أيام خالك السلطان الشهيد مسعود لما تولى الملك كان يعرف طريق الشجاعة والمروءة جيدا ، ولكنه لم يكن يعرف قط طريق تدبير الملك ، واختار من الملك عشرة الجوارى، فلما رأى الجند والعمال بأى الأعمال يشتغل ، أخذوا طريق العصيان ، وتعطلت أشغال الناس وتجرأ الجند والرعية ، إلى أن جاءت أمرأة عجوز مظلومة ذات يوم من رباط فراوة واستغاثت من عمال الولاية ، فأمر لها السلطان مسعود بكتاب فلم يعمل به العامل ، وقال فى نفسه إن هذه المرأة العجوز لاتذهب إلى غزنة مرة ثانية ، فعادت العجوز مرة أخرى وسارت إلى غزنة وذهبت إلى دار المظالم وطلبت النصفة ، فأمر السلطان مرة أخرى بكتاب فقالت العجوز : حملت مرة كتابا ولم يجد، فقال مسعود : ماذا أعمل ؟ فقالت أيها الملك إن تدبير هذا سهل ، تول الولاية بحيث يعمل بكتابك ، وإلا فدعها ليتولاها شخص آخر يعملون بكتابه وابق أنت كذلك فى لهوك حتى لا يبتلى عباد الله تعالى ببلاء الظلم ، فخجل مسعود وأمر فأدوا حق تلك المرأة العجوز وعلقوا ذلك العامل على باب فراوة ، وأفاق بعد ذلك من نوم الغفلة ولم تكن لأحد جرأة على أن يقصر فى أمره .

فالملك الذى لا يكون أمره نافذا ، أى فرق بينه وبين سائر الناس؟ يجب أن يعرف أن نظام الملك فى نفاذ الأمر فإذا لم يكن نفاذ للأمر يظهر الخلل فى الملك ، ونفاذ الأمر لا يجوز بغير السياسة فلا ينبغى التقصير فى إجراء السياسة لتكون الأوامر نافذة، ثم يجب أن لا يسلط الجند على رءوس الرعايا لأن المملكة لا تعمر، وكما تراعى مصلحة الجند ارع كذلك مصلحة الرعية، لأن الملك كالشمس لا يجوز أن تضىء على واحد ولا تضىء على آخر ، وكذلك إذا كان يمكن جعل الرعايا مطيعين بالجند فإنه يمكن أيضا امتلاك الجند بالرعية ، وبالرعية تعمر

الولاية لأن من الرعيـة يحصل الدخل وبالعـدل تستقر الرعية وتعمر ، فلا تجعل للظلم سبيلا إلى قلبك فإن بيوت الملوك العادلين تبقى ويطول عهدها ، وبيوت الظالمين تزول سريعاً، لأن العدل هو العمران ، والظلم هو الخراب ، ولما كان التعمير يقتضى وقتا أطول فإنه يبقى أكثر ، وبما أن التخريب يمكن القيام به سريعاً فإنه يزول سريعاً ، وقد قال الحكماء : إن الملك العادل ينبوع العمار والبهجة فى العالم ، والملك الظالم أصل خراب العالم وبؤسه ، ولا تصبر على آلام عباد الله تعالى ، ولا تشتغل دائماً بالخلوة لأنك إذا نفرت من الجند والناس ينفر الجند منك أيضاً ، ولا تقصر فى حسن رعاية الجند والرعية وإذا قصرت كان فى ذلك التقصير تمكين للأعداء ، ولكن لا تجعل الجند جميعا من جنس واحد ، فإذا كان جند الملك من جنس واحد يكون دائما أسيرا لجنده وعاجزا على الدوام ، لأن الجنس الواحد يتفق ولا يمكن سحقهم بأحدهم الآخر ، فإذا كانوا من كل جنس يسحق هذا الجنس بذاك وذاك بهذا فلا يستطيع أولئك القوم من خوف هؤلاء وهؤلاء من خوف أولاء أن يعصوا ، ويكون أمرك نافذا على جندك ، وكان لجدك السلطان محمود أربعة آلاف غلام تركى من غلمان السراى ، وأربعة آلاف روات هندى للسراى ، وكان دائما يخوف الهنود بالأتراك والأتراك بالهنود فكان كلا الجنسين مطيعين له من خوف أحدهما الآخر ، وفضلا عن ذلك ادع فى كل وقت كبراء الجند إلى طعامك ونبيذك ، واحسن إليهم بالخلعة والصلة والآمال ، وتعود إظهار التودد ، ولكن إذا أردت إعطاء صلة لأحد فلا تعلنها على الملأ بلسانك إذا كانت قليلة ، وأسر بها لشخص فتكون حكما وأمرا حتى لا تكون قد ارتكبت خسة بذلك الشىء الذى لا يليق بهمة الملوك ، ثم لا تكون قد صيرت نفسك معروفا للناس بالخسة .

(حكايت)

كنت ثمانى سنوات نديما للسلطان مودود بغزنة فلم أر منه قط ثلاثة أشياء : أولها إن كل صلة كانت تقل عن مائتى دينار لم يكن يعلنها على رأس الملأ ، بل

كان يأمر بها سرا ، وثانيها إنه لم يكن يضحك بحيث تظهر ثناياه ، وثالثها إنه لم يكن يشتم شخصا أبدا إذا كان غاضبا ، وهذه العادة كانت حسنة جدا. وسمعت أن ملوك الروم لهم مثل هذه العادة ولكن لهم رسم آخر ليس لملوك العرب والعجم ، وهو إنه إذا كان الملك قد ضرب شخصا بيده لا يستطيع أى إنسان بعد ذلك أن يضرب ذلك الرجل ويقولون مادام حيا . إن الملك قد ضربه فينبغى أن يضربه ملك كذلك .

والآن قد عدنا إلى كلامنا الأول ، أما فى حديث السخاء ، فإنى لا أستطيع أن أقول لك كن سخيا على رغمك ، وعلى كل فلا تكن وضيع الهمة وإذا لم تستطع أن ترتدع عن جبلتك فلا أقل من أن لا تظهر خستك للناس على الملأ كما ذكرت، لأنك إذا لم تسخ يصير كل الخلق أعداءك فإذا لم يستطيعوا أن يقولوا لك شيئا فى الحال فإنهم لا يجعلون أرواحهم فداءلك إذا ما ظهر عدو ، ويكونون أصدقاء عدوك ، ولكن اجتهد فى أن لا تكون ثملا بشراب الملك ، ولا تقصر فى المحافظة على ست خصال : الهيبة والعدل والعطاء والحفـــاظ والوقار والصدق ، فإذا لم تكن فى الملك واحدة من هذه الست فإنه يكون إلى سكرة الملك أقرب ، وكل ملك يكون ثملا بالملك يفيق عند ذهاب ملكه ، ولا تكن فى ملكك غافلا عن معرفة أحوال ملوك العالم ، ويجب أن تكون بحيث لا يتنفس أى ملك من غير أن تعرف ، فإنى سمعت من أبى الأمير الراحل :

حكاية

أن فخر الدولة فر من أخيه عضد الدولة ولم يستطع الإقامة بأى مكان ، فجاء إلى بلاط جدى قابوس بن وشمكير مستأمنا، وآمنه جدى وأكرمه وزوجه عمتى ، وأنفق فى زواجه مالا يفوق الحد ، وذلك لأن جدتى كانت خالة فخر الدولة وكان أبى وفخر الدولة كلاهما ولدى ابنة حسن بن فيروزان، فأرسل عضد الدولة رسولا إلى شمس المعالى ، وجاء الرسول وسلم الكتاب وقال : إن عضد الدولة يسلم كثيرا ويقول : إن أخى الأمير على جاء إليكم ، وأنت تعلم

أن بيننا صداقة وأخوة وبيت كلينا واحد ، وأخى هذا عدوى ، فيجب أن تقبض عليه وترسله إلى ، حتى أدع لك أى ناحية تعينها من ولايتى مكافأة على ذلك وتتأكد صداقتنا ، وإذا لم ترد أن تلحق بنفسك هذا العار فناوله السم هنالك ليتحقق غرضى ولا يكون عار عليك ، وتلك الناحية التى تريدها تعطى لك أيضا ، فقال شمس المعالى : سبحان الله ! ماذا يدعو مثل ذلك المحتشم إلى مخاطبة مثلى بمثل هذا الكلام ، حيث لا يمكن لى أبدا القيام بمثل هذا العمل الذى يكون فيه عارى إلى يوم القيامة ؟ فقال الرسول : أيها الملك ! لا تفرط فى عضد الدولة من أجل الأمير على لأن مليكنا يحبك أكثر من أخ شقيق له، وأقسم بكذا وكذا قائلا : إنه فى هذا اليوم الذى حملنى «الرسالة»[1] وسيرنى «إليك»[1] كان يقول أثناء الحديث، يعلم الله أنى أحب شمس المعالى جدا ، إلى حد أنه فى يوم السبت الفلانى وقد انقضت بضعة أيام من الشهر الفلانى ، ذهب شمس المعالى إلى الحمام وانزلقت قدمه فى البيت الأوسط وسقط فاغتممت وقلت هل أدركته الشيخوخة فى سن السابعة والأربعين وانحطت قوته ؟ وكان غرض ذلك الرسول أن يقول : اعلم كيف أن مليكى مطلع على أحوالك ، وكان ذلك تعليم عضد الدولة ، فقال شمس المعالى : دام بقاؤه ! شكرا له[2] على هذه الشفقة التى أبداها ، ولكن عرفه كذلك باغتمامى، لأنه فى اليوم الفلانى من الشهر الفلانى الذى أوفدك فى غده ، شرب السيكى تلك الليلة فى المجلس الفلانى ونام فى المكان الفلانى وكان مع نوشتكين الساقى ، فقام فى نصف الليل وذهب إلى الحريم وصعد إلى السطح بحجرة الخيزران العوادة واجتمع بها ولما رجع زلت قدمه وهو ينزل من السطح ، وسقط من درجتين من السلم وانشغل قلبى من جهته أيضا وقلت هل حدث نقصان فى عقله فى سن الثانية والأربعين ؟ لم يشرب الرجل وهو ملك فى سن الثانية والأربعين هذا القدر من الشراب بحيث لا يستطيع النزول من السطح؟ ولم يلزم الانتقال من فراشه فى نصف الليل حتى تقع مثل تلك الحادثة ؟ وأخبر ذلك الرسول بعلمه بأحوالهم .

(١) ليستا فى الأصل .

(٢) الترجمة الحرفية : قبلت المنة .

وكما تعرف أحوال العالم والملوك يجب كذلك أن تكون واقفا على شئون ولا يتك وحال رعيتك وجيشك لأنك إذا لم تعرف حال بلدك تكون أقل معرفة ببلاد الأجانب .

حكاية

اعلم يا بنى أنه فى أيام ابن خالك السلطان مودود بن مسعود جئت إلى غزنة فأعزنى وأكرمنى كثيرا ، ولما انقضت مدة ورآنى وجربنى أسند إلى منادمته الخاصة ، والنديم الخاص هو الذى لا يغيب عن مجلسه أبدا ، فكان يتحتم على أن أكون دائما حاضرا عند الطعام والشراب ، سواء أكان الندماء الآخرون موجودين أم لا ، وذات يوم فى الصباح الباكر كان قد أقام الصبوح ، وكذلك أذن للجند فى أثناء شرب النبيذ ، فدخل الخلق وخدموا وعادوا ، وكان الخواجة[1] الكبير عبد الرزاق احمد بن حسن الميمندى وزيرا له ، فاستبق الخواجة فى مجلس الشراب ، فلما مكث برهة دخل مشرف البلاط ، وسلم عليا بن ربيع الخادم رسالة[2] فقدمها على الخادم إلى السلطان ، وكان السلطان يشرب النبيذ ويقرأ الرسالة فالتفت إلى الوزير وقال : أدب هذا المنهى[3] بضربه خمسمائة عصا ، حتى يفصل الإنهاء مرة أخرى ، إذ كتب فى هذا الخط[4] قائلا إنه ليلة أمس طبخ فى غزنة حساء السماق فى إثنى عشر ألف بيت ، وما دمت لا أعرف بأى بيت وحى كان ذلك فاشهد كما تريد ، فقال الوزير : أطال الله بقاء الملك ! إنه قال هذا من أجل تخفيف الجمع ، لأنه إذا تكلم

---

(١) خواجه تنطق فى الفارسية خاجه ومعناها السيد وتأتى أحيانا بمعنى الوزير والعالم الكبير.
(٢) فى الأصل (ملاطفة) .
(٣) الذى ينهى الأخبار .
(٤) هذا الكتاب أو هذه الرسالة .

بالتفصيل لكان كتابا ، ولما كنت تستطيع قراءته فى يوم ، لأنه لما قال حساء السماق ، كان يلزم أن يذكر الألوان الأخرى ، فإذا عفا الملك وجعل هذا التأديب رحمة حتى أقول إنه بعد هذا لا يقول شيئا بالإجمال ، فيذكر البيت وصاحب البيت بالإسم ، ويوضح أن فلان وفلان أكل كذا وكذا بالمحل الفلانى فى المحلة الفلانية ، فقال السلطان : عفوت هذه المرة وبعد هذا يجب أن يقول كما يقول السيد .

فينبغى أن لا تكون غافلا عن حال مملكتك وعن حال رعيتك وجندك ، وخاصة عن حال وزيرك ، ويجب أن لا يشرب وزيرك شربة ماء[1] دون أن تعرف ، لأنك قد استودعته روحك ومالك ، فإذا غفلت عنه تكون قد غفلت عن روحك ومالك لا عن عمل وحال وزيرك ، وإذا كنت صديقا للملوك أطراف العالم الذين هم أنداد لك ، فلا تكن نصف صديق ؛ وإذا كنت عدوا فكن عدوا فى الظاهر لتستطيع إظهار العداوة علنا ، ولا تعاد فى الخفاء من هم على شاكلتك .

(حكاية)

سمعت أن الإسكندر كان يسير لحرب عدو ، فقيل له : أيها الملك ! إن عدونا هذا رجل غافل فيجب الغارة عليه ليلا ، فقال الإسكندر : إن الذى ينال الظفر باللصوصية لا يكون ملكا . وتعود عظائم الأمور فى الملك ، لأن الملك أكبر من كل إنسان ، فيجب أن يأتى الأمور من فعل وقول بعظمة لينال الذكر الحسن ، كما أن فرعون عليه اللعنة لو لم يكن تكلم بتلك العظمة كيف كان الخالق جل جلاله يروى حديثه حيث قال (أنا ربكم الأعلى) وتتلى هذه الآية إلى يوم القيامه ويذكر اسمه بالعظمة ولو أنه قبيح وملعون ولا يقصد بهذا الكلام مدحه ؟

فكن كما ذكرت ، لأنه لا يرتفع ذكر للملك القليل الهمة ، وعظم

(١) الترجمة الحرفية : الماء .

توقيعك أيضا ، ولا توقع من أجل كل أمر حقير ، إلا بولاية كبرى أو إقطاع كبير تمنحه ، وإذا وقعت فلا تخالف توقيعك (الا بعذر واضح) لأن الخلف ليس مقبولا من كل إنسان وخاصة من الملك . هذا هو شرط الملك ، ولو أن هذه مهنة عزيزة ولا يصل إليها كل شخص ، ولكنى ذكرتها كما هو شرط الكتاب ، وإذا اتفق لك صناعة أخرى ، كالفلاحة أو حرفة من حرف السوق فارع مايكون من شروطها ليكون عملك ذا رونق دائما .

الباب الثالث والأربعون

فى الزراعة والصناعة

إذا كنت زارعا فاعرف أوقات أعمال الزراعة ، وكذلك لا تدع شيئا يجب القيام به حتى يفوت وقته ، وإذا زرعت قبل الوقت بعشرة أيام فخير من « أن تزرع » بعد الأوان بيومين ، واجعل آلات الزراعة والحراثة معدة وحاضرة ، ومر بأن يشتروا البقر الجيد ويحسنوا رعايته بالعلف ، واحتفظ دائما بزوج من البقر مستريحا على حدة ، حتى إذا ما أصابت بقرة من تلك الأبقار علة لا تتعطل عن العمل ، ولا يفوتك وقت الزرع ، وفى غير وقت الزرع والحصاد لا تغفل عن فلح الأرض بلا انقطاع ، ودبر هذا العام زراعة العام القادم ، وازرع دائما الأرض التى تكسو نفسها لأن كل أرض لا تستطيع أن تكسو نفسها لا تستطيع أن تكسوك أيضا ، وكذلك يجب أن تكون دائما مشغولا بالعمارة لتحصل على معاشك من الفلاحة ، وكن من بين جميع محترفى السوق سريع العمل محمودا فى أية حرفة تحترفها ليكثر مريدوك ، وأد كل عمل تؤديه خيرا مما يؤديه زملاؤك ، واقنع بالربح القليل ، وإلى أن تجعل العشرة أحد عشرة ، مرة تستطيع أن تجعلها عشرة ونصفا مرتين ، وفضلا عن ذلك لا تنفر العملاء بالمماكسة واللجاج الكثير لتكون مرزوقا فى عملك ويتعامل الناس معك أكثر ، واجتهد عند ما تبيع شيئا فى إظهار التواضع وقولك يا حبيبى ويا روحى ويا أخى ولا تتكلم ما استطعت بعنف ووقاحة ليخجل المشترى من المماكسة للطفك ويحصل مقصودك ، وإذا فعلت هكذا تكون كثير العملاء وتكون بالضرورة محسودا من ذوى الحرف الآخرين وتصير معروفا ومشهورا بالسوق . أما فتعود قول الصدق فى البيع والشراء ، وتجنب البخل ،

ولكن استعمل التصرف ، واعطف على من دونك ، وتواضع لمن هو أعلى منك ، ولا ترهق العاجز ، ولا تغل الثمن فى المعاملات على الأطفال والنساء والأصدقاء ، ولا تطلب زيادة من الغرباء ، ولا تخجل فى التجارة فكثيرا ما يكون الخجل ضارا بك ، وساعد الخجول الذى لا يكثر المكاس واحسن إلى المستحق وكن سوقيا مع السوقة بالوزن والميزان الصحيح ، ولا تكن ذا قلبين[1] وذا كيسين[2] مع عيالك ، ولا تخن الشركاء ، ولا تعمل ما تصنعه رديئا ومزورا واجعل عملك مع الخبير وغير الخبير سواء ، وكن ورعا ، وإن تكن لك مكنة فاعتبر الإقراض غنيمة ولا تحلف كذبا ولا تراب ولا تكن صعب المعاملة ، وإذا كان لك مال على صديق فلا تلحف فى المطالبة إذا علمت أنه غير قادر ، وكن طيب القلب حتى ترى الخير ، ويبارك الله تعالى فى أخذك وعطائك ، وكل محترف على هذه الجملة التى ذكرت يكون أكثر المحترفين مروءة . ولكل قوم من الصناع طريق فى المروءة فى تلك الصناعة التى يكونون بها .

---

(١) ذو وجهين — مراء .

(٢) مستأثر وضنين بالمال .

الباب الرابع والأربعون

فى المروءة وطريق أهل التصوف وأهل الصنعة

أى بنى إذا زاولت المروءة فاعرف أولا ما هى المروءة ومم تنشأ .

اعلم يا بنى أن من صفات الناس ثلاثة أشياء لا تجد آدميا قط يقول إن هذه الأشياء الثلاثة ليست فى ، والعالم والجاهل راض من الله تعالى بهذه الأشياء الثلاثة ، ولو أن الله تعالى فى الحقيقة قد أعطى هذه الأشياء الثلاثة لقليل من النـاس ، وكل شخص فيه هذه الأشياء الثلاثة فهو من جملة أصفياء الله .

وأول هذه الأشياء الثلاثة العقل وثانيها الصدق وثالثها المروءة ، وإذا نظرت فى الحقيقة إلى ادعاء الخلق فإن أى إنسان لا يدعى العقل والمروءة والصدق كذبا ، لأنه لا يوجد أى جسد ليست فيه هذه الصفات الثلاثة ، ولـكن كلال الآلة وظلمة الطريق يسدان أصل هذا الباب على أغلب الخلق ، فالله تعالى قد جمع جسم الإنسان من كل المتفرقات حتى إذا ما دعوته العالم الـكلى أو العالم الجزئى فـكلاهما جائز ، كما أن ما فى الجسد الآدمى من الطبائع والأفلاك والأنجم والعنصر والهيولى والصورة والنفس والعقل الـكلى ، هذه كل واحد منها على حدة عالم فى المراتب لا فى التركيب ، والإنسان مركب ومجموع من هذه العوالم ، فالخالق أقام هذا الجمع بالروابط والصلات لأنه ليست لها نسبة إلى بعضها البعض كما ترى فى هذا العالم الـكبير من رابطة الأفلاك والطبائع المتعلقة ببعضها البعض بالجنسية ولو أنها مختلفة فى الجوهر ، مثل النار والماء اللذين كل منهما ضد للآخر فى كل صفة ، والتراب والهواء

المضاد كل منهما للآخر ، فالتراب صار واسطة، ووقع اتصال بين النار و الماء ، وصارت للتراب مع النار باليبوسة ومع الماء بالبرودة ، وللماء مع التراب بالبرودة ومع الهواء بالليونة ، وللهواء مع الماء بالليونة ومع النار بالحرارة وللنار مع الأثير بالجوهر وللأثير بالإشعاع مع الشمس التى هى ملكة الأنجم والأفلاك ، وللشمس مع الهيولى بالجوهرية بقبولها لإشعاع الهيولى الذى هو جوهر للشمس من العنصر الخامس ، وللهيولى بالنفس روابط بالفيض العلوى وللنفس بالعقل ، وكذلك حصل للمطبوعات صلة بالطبائع بمادة القوة والغذاء ، وإذا لم تجد المطبوعات القوة من الطبائع بالرابطة المرتبطة بها فإنها تفسد ، وقس أيضا على هذا ، الطبائع من الفلك والفلك من الهيولى والهيولى من النفس والنفس من العقل ، وكذلك كل ما فى الجسم الآدمى من ظلمة وكثافة ويتكون من تركيب الطبائع ، وتتكون الصورة والسحنة والحياة والقوة والحركات من الفلك ، وتتكون الحواس الخمس الجسمانيه كالسمع والشم والذوق ، واللمس والنظر من الهيولى ، والحواس الروحانية كالحفظ والتفكر والتخيل والنطق والتدبر تتكون من النفس ، وأشرف ما فى الجسد الآدمى هو الشيء الذى ليس له معدن ظاهر ولا يمكن الإشارة إلى موضعه ، مثل المروءة والعلم والكمال والشرف، لأن مصدر هذه كلها هو العقل ، والعقل حل فى الجسد من فيض العقل الكلى ، فجسدنا هذا حى بالروح ، والروح بالنفس والنفس بالعقل وكل شخص ترى له جسدا متحركا فلا بد له من الروح ، وكل من ترى له نفسا ناطقة فلا بد له من النفس ، وكل من ترى له نفسا باحثة فلا بد له من العقل وهذه موجودة فى كل آدمى ،ولكن عند ما يصير المرض حجابا بين الجسد والروح تضعف رابطة الاعتدال ولا تصل المادة الكاملة من الروح إلى الجسد ، يعنى الحواس الخمس ، وكل من يصير الجهل والظلمة وعدم المعرفة حجابا بين نفسه وعقله فإن مادة العقل لا تصل إلى نفسه ، يعنى الفكر والتدبير والمروءة والصدق ، فنى الحقيقة لا يوجد جسد بلا عقل ومروءة ، ولكن عند ما يكون المنفذ الروحانى للفيض العلوى منسدا فإنك تجد دعوى ولا معنى ، وعلى هذا لا يوجد شخص قط فى الدنيا لا يدعى

المروءة ، ولكن اجتهد أنت يا بنى أن لا تكون كالآخرين وأن لا تدعى دعوى بغير معنى ، وأن تجعل المنفذ الروحانى للفيض العلوى مفتوحا بالتعليم والتفهيم ، ليكون لك كل المعنى بغير دعوى .

واعلم يابنى أن الحكماء قد جعلوا من المروءة والعقل صورة بالألفاظ لا بالجسد ، لتكون تلك الصورة جسدا وروحا وحواس ومعانى مثل الإنسان، وقد قالوا إن جسد تلك الصورة هو المروءة وروحها الصدق وحواسها العلم ومعانيها صفاتها ، ثم إنهم قسموا هذه الصورة على الخلق، فأصاب قوما الجسد ولا شىء آخر ، وقوما الجسد والروح ، وقوما الجسد والروح والحواس وقوما الجسد والروح والحواس والمعانى .

أما أولئك القوم الذين صار الجسد نصيبهم ، فهم جماعة العيارين والجنود، فإن لهم مروءة على قدر حالهم ، وقد سموا مروءتهم فتوة ، وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح هم أرباب معرفة الظاهر والباطن وفقراء التصوف الذين سموا مروءتهم الورع والمعرفة ، وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح والحواس هم الحكماء والأنبياء والأولياء الذين سموا مروءتهم العلم والفيض ، وأولئك القوم الذين أصابهم الجسد والروح والحواس والمعانى هم الروحانيون والأنبياء المرسلون .

فاسع يا بنى واجتهد حتى ترقى بقدر ما فى وسعك واستطاعتك ، وقد قال الحكماء إن أصل المروءة ثلاثة أشياء : أحدها أن تعمل ما تقول ، وثانيها أن تراعى الصدق فى القول والفعل وثالثها أن تستشعر الصبر ، لأن كل صفة تتعلق بالمروءة تنضوى تحت هذه الأشياء الثلاثة ، فإذا استعصى عليك الأمر يابنى فإنى أعذرك ، وسأبين هذه الصفات الثلاثة لهؤلاء القوم ودرجة كل واحدة ومقدارها ، لتصير معلومة لك ، اعلم يابنى أن أكثر الناس مروءة هو من كان له عدة فضائل متنوعة ، وذلك [1] بأن يكون شجاعا وذا رجولة

(١) الترجمة الحرفيه ـ واحدة .

وصابرا فى كل الأمور وصـــادق الوعد وحضورا [1] وطاهر القلب ، ولا يطلب ضرر أحد لنفعه ، ولـكنه يجيز ضرر نفسه من أجل نفع الأصدقاء ولا يكون قاسيا على الضعفاء ، ولا يعتدى [2] على الأسرى ، ويعين المساكين ويدفع الشر عن المظلومين ، وكما يقول الصدق يصغى إلى الحق وينصف من نفسه ولا يسىء إلى السفرة التى يكون قد أكل عليها العيش والملح ، ولا يجزى الإحسان بالإساءة ، ويستخزى من الرياء ولا يضيق بالبلاء. وإذا أنعمت النظر فإن جميع هذه الفضائل التى ذكرناها تتعلق بهذه الأشياء الثلاثة التى ذكرت من قبل .

حكاية

فى الحديث، إنه ذات يوم كان العيارون جالسين معا فى الجبل فأقبل رجل وسلم وقال : إنى رسول إليكم من قبل عيارى المدينة وهم يقرئونكم السلام ويقولون : إن هناك ثلاث مسائل فاسمعوها منى ، وإذا أجبتم عنها فإننا نرضى بتبعيتكم وإن لم تجيبوا فأقروا بسيادتنا ، قالو هاتها ! فقال : ما هى المروءة ؟ وما الفرق بين المروءة واللؤم؟ وإذا كان فتى جالسا على قارعة الطريق ويمر عليه رجل وعندما تمضى ساعة يتعقبه رجل بالسيف قاصدا قتله ، وحينما يصل الرجل إلى هذا الشاب ويسأله : أرأيت أن فلان مر من هنا ؟ بم يجيبه هذا الشاب ؟ إذا قال مر يكون غمزا وإذا قال لم يمر يكون قد كذب ، وكلا هذين لا يجوز ، وكلاهما لؤم فى المروءة، فلما سمع عياروا الجبل هذه المسائل نظروا إلى بعضهم البعض ، وكان من بينهم رجل يقال له أبو الفضل الهمدانى فقال : أنا أجيب على هذه الأسئلة ، فقالوا قل «حتى» نرى ما تقول : قال: إن أصل المروءة أن تفعل كل ما تقول ، والفرق بين المروءة واللؤم هو الصبر، وجواب ذلك العيار الذى كان جالسا على قارعة الطريق هو أن يجلس فى الحال على

---

(1) الترجمة الحرفية: طاهر العورة.

(2) الترجمة الحرفية: لا يطيل يده .

بعد قدم من تلك الناحية ويقول : مذ جلست هنا لم يمر أحـــد ليكون قد قال الصدق .

فإذا عرفت هذا الكلام فإنه يتحقق لك ما هو أصل المروءة . فهذه المروءة التي ذكرتها في العيارين إذا طلبتها من الجنود فجائز ، إذ يشترط في الجنود أن يكونوا على هذا الرسم أيضا لأن تمام العيارية في الجندية ، ولكن يجب أن يكون الكرم والتضييف والسخاء وعرفان الحقوق وطهارة الثوب وكثرة التسامح في رجال الجندية أكثر ، أما التدقيق في الكلام وحب الذات والخدمة والحياء فإنها فضيلة في الجندية ، وعيب في العيارية .

وأما مروءة أهل السوق فلها أيضا شرط ولكني ذكرت هذا الفصل في باب الاحتراف ولا حاجة لتكراره .

أما أولئك القوم الذين وصلهم من صورة المروءة الجسد والروح فقد قلت إنهم أرباب المعرفة والدين وفقراء التصوف ، الذين سمينـــا مروءتهم المعرفة والورع ، ولهؤلاء القوم مروءة أكثر من كل الأقوام ، لأن المروءة جسد الصورة والصدق هو الروح ، ولهؤلاء الروح يعني الصدق ، فمن حق الأدب أن هؤلاء القوم هم أرباب معرفة الدين كالعلماء ، والرجل هو من تكون فيه هذه الصفات وهي :[1] أن يكون ورعا في الكلام وصادقا في القول والعمل وثابتا في دينه وبعيدا عن الرياء وبريئا من البخل ومتعصبا في الدين ولا يجعل نفسه متهما بالحسد ولا ينافق ولا يمزق ستر إنسان لحاجة في نفسه ولا يفتي الفتاوى السخيفة الضعيفة حتى لا يجرؤ الناس بفتاواه تلك على الحلف والطلاق ولا يشدد كذلك على الخلق في الفتوى ، وإذا وقع لمسكين سهو في الشرع ويستطيع علاجه لا يبخل ، ويعلم بغير طمع ، ولا يعرض زهده على الخلق ويكون معروفا بحسن السمعة ، ولا يلوم الفاسق على الفسق وخاصة أمام الخلق ،

---

(١) الترجمة الحرفية واحدة .

وإذا أراد أن يوبخ أحدا فإنه يفعل ذلك فى خفية عن الخلق ، لأن إسداء النصح للناس أمام الخلق ملامة وجفاء ، ولا يجترىء على دم أحد أبدا ولا يفتى ولو علم أن ذلك الشخص مستوجب القتل ، لأنه يمكن تلافى الفتوى الخطأ إلا فى القتل ، لأن الميت لا يحيا ، ولا يرمى أحدا بالكفر تعصبا للمذهب لأن الكفر مخالفة الدين لا مخالفة المذهب ، ولا ينكر كتابا وعلما غريبا إذ ليس كل مالا يعرفه كفرا ، ولا يشجع العامة على الإثم ولا يوئس أى شخص من رحمة الله عزوجل ، وكل فقيه ومتعبد على هذه الصفة يكون رجلا وذا مروءة أيضا .

أما آداب الفتوة والمروءة فى طريق التصوف فقد ذكرها الأساتذة القدامى فى رسائلهم وخاصة أستاذنا أبو القاسم القشيرى رحمه الله ، فقد ذكرها فى كتاب رسائل آداب التصوف ، وذكرها الشيخ الإمام أبو الحسن المقدسى فى بيان الصفا ، وأبو منصور الدمشقى فى كتاب عظمة الله ، وعلى الواحدى فى كتاب البيان فى كشف العيان ، وإنى لا أستطيع أن أذكر شروط هذه الطريقة بتمامها فى هذا الكتاب ، كما ذكروها عن المشايخ فى الكتب الأخرى ، بحكم أن غرضى فى هذا الكتاب إسداء النصح اليك وطلب إسعادك ، ولكنى أؤدى شرط التنبيه حتى إذا ما اتفق لك مجالسة هؤلاء القوم لا تثقل عليهم ولا يثقلون عليك ، وسأشرح شرط مروءة هؤلاء القوم لأنه لا يصل إلى أية طائفة من العناء فى الحياة بحق وحرمة كما يصل إلى هذه الطائفة التى ترى نفسها أسمى من كل الخلق ، وسمعت أن أول من كشف أصل هذا الطريق كان عزيز النبى ، حتى بلغ فى صفاء الوقت من المكانة أن كان اليهود يقولون إنه ابن الله ، وسمعت أنه كان فى أيام الرسول صلوات الله عليه اثنا عشر شخصا كان يقال لهم أصحاب الصفة ، وكان الرسول عليه السلام يجالسهم كثيرا فى الخلوة ، وكان يحب هؤلاء القوم ، فشأن هذه الطريقة واصطناع مروءة هذه الطائفة — لهذا السبب — أصعب من تلك الطائفة الأخرى ، والأدب والمروءة فى هؤلاء القوم على نوعين : أحدهما خاص بدراويش التصوف والآخر خاص بالمحبين . وإنى سأذكر كليهما .

اعلم أن تمام الدروشة أن يكون المرء مجردا دائما لأن التجريد والوحدة عين التصوف .

حكاية

هكذا سمعت أن اثنين من الصوفية كانا يسيران معا ذات مرة وكان أحدهما مجردا والآخر معه خمسة دنانير ، وكان هـذا المجرد يسير بلا خوف ولم يكن يطلب أى رفيق وكان يجلس وينام ويستريح ولا يخشى أى شخص فى أى مكان يصل إليه سواء أ كان مأمونا أو مخوفا ، وذاك الذى كان معه خمسة دنانير كان يوافقه ولـكنه كان دائما فى خوف ، إلى أن وصلا فى وقت ما إلى رأس بئر ، وكان المكان مخوفا ومعدنا للصوص والصعاليك ، فشرب الرجل المجرد من تلك العين ووضع رأسه وراح فى النوم ولم يكن صاحب الدنانير الخمسة يستطيع النوم ، وكان يقول لنفسه سرا ماذا أعمل ماذا أعمل لآمن القضاء ؟ فاستيقظ المجرد فجأة وسمعه فقال : أى فلان ! ماذا أصابك حتى تـكثر ترديد ماذا أعمل ماذا أعمـــل ؟ فقـال الرجل : يا أخى معى خمسة دنانير وهذا المكان مخوف ، وأنت نمت هنا وأنا لا أستطيع النوم ولا أستطيع الذهاب ، فقال ذلك الصوفى المجرد : اعطنى تلك الدنانير الخمسة لأدبر أمرك ، فأعطاه الرجل الخمسة دنانير، فأخذها الصوفى المجرد وألقى بها فى البئر وقال : قد نجوت من ماذا أعمل ماذا أعمل ، فاجلس الآن آمنا ونم لأن الأفلاس قلعة فولاذية .

فحقيقـة التصوف بإجماع كل المشايخ ثلاثة أشياء : التجريد والتسليم والتصديق ، فإذا كان لك واحد من هذه وكـنت بعيدا عن الآفة ومتمتعا بكليتك بغير عيب فلك عين هذه الطريقة. فالدرويش يلتزم التسليم ولا يكاشف[1] أى أخ أبدا إلا فى حق الأخ ، ويجب أن تـكون غبطته دائما فى أن يقول : لم لا يكون أخى أحسن منى ؟ ويخرج الأنانية من رأسه ولا يكون صاحب غرض ، ويترك الغرض ويدع جانبه ، وينظر بصدق وتجريد ، ولا ينظر إلى

(١) يخاصم .

أى شيء بنظرين ، ويقطع نظر الغرور والخلاف ، لأن نظرة كل من كان صادقا وغير مغرور لايخالفها أحد ، إذ أن عين الحقيقة نفى الإثنينية وعين الصدق نفى الخلاف.

واعلم يابنى بأنه إذا وضع شخص قدمه على الماء بالصدق يجمد الماء تحت قدمه ، وإذا حكى لك شخص عن كرامات الأولياء وكانت تلك الحكاية والمعنى بعيدين من طريق العقل فلا تنكر إذا عرفت حقيقة الأمر وإن بدا لك ذلك غير ممكن ، فإن فى الصدق أثرا لايمكن إحلاله فى القلب ، لا بالعقل ولا بالتكلف بل بفضل الحق تعالى وعطائه وجبلة النفس .

فالدرويش هو من ينظر إلى الشيء بعين الصدق ولا يستوحش ، ويكون ظاهره وباطنه سواء ، ولا يخلى قلبه من التفكر فى التوحيد ، ويجب أن يختار السكينة والأناة فى التفكير حتى لايحترق فى نار التفكر ، لأن أرباب هذه الطريقة قد رأوا التفكر نارا ماؤها التسلى ، فجعلوا اللهو والرقص والسماع شركا للتسلى ، وكل درويش لايرغب فى السماع والقول ، يحترق دائما بنار التفكر ، وذاك الذى ليس له تفكر فى التوحيد محال عليه السماع والقول ، لأن الظلمة تزداد بالظلمة ، ومنع الشيخ أخى الزنگانى السماع فى آخر عمره وقال : السماع ماء ويجب أن يكون الماء حيث لا تكون النار ، لأن صب الماء على النار يجلب الظلمة والوحل ، وإذا كان لواحد فى قوم عدتهم خمسون رجلا نار ، فإنه لا يجوز تكدير أولئك التسعة والأربعين لأجل واحد لأنه لايمكن طلب السكينة من ذلك الواحد كما يمكن الصدق من هؤلاء الآخرين ، أما إذا كان هناك درويش ليس له أدب باطنى ومعرفة روحانية فيجب أن يكون له أدب ظاهر ليتحلى بإحدى الصورتين ، فينبغى أن يكون الدرويش ثقة ، ذلق اللسان وسليما ومستور الفسق ، ظاهر الورع طاهر الجسد وطاهر الثوب ، ومزودا بآلات السفر والحضر كالعصا وإبريق

الطهارة[1] والمئزر والوطاء والسجادة والزورقى[2] والمشط والمسواك والإبرة ومقلمة الأظافر، ويجب ان يستغنى عن الخياط وغسال الملابس ويخدم الإخوان فى هذين الشيئين ؛ ويحب السفر ولا يسير وحده لأن الآفة تنشأ من الوحدة، وإذا دخل الخانقاه لا يكون مانع الخير يعنى لا يمنع شخصا من التقرب، ويحل أولا حذاء القدم اليمنى ويلبس حذاء القدم اليسرى أولا، ولا يسير بين القوم مشدود الوسط ويجلس حيث يجعلون زاويته ويستأذن عندما يجلس، ويصلى ركعتين باستئذان ويسلم فى كل وقت يدخل أو يذهب، وإذا لم يفعل فجائز، أما فى الصباح فلا يقصر ويتكلم مع الناس بالحسنى ويتحاشى المتهمين، وإذا لم يكن له معاملة طامات فلا يذكر أحاديث الطمطمات[3] ولا يدخل منزلا أو خانقاها حتى يكون عزيزا[4]، ولا يطلب صحبة أحد قهرا ولكن يحسن رعاية الحرم لأن رعاية الحرمة فريضة والصحبة ليست فريضة، ويعمل كل الأمور بحكم الجمع ورضاهم، وإذا أنكر عليه جماعة «أمرا» فلا يخالف الجماعة وإن يكن بريئا بل يستغفر ويؤدى الغرامة ويحتمل الجور، ولا يتشدد فى التدقيق على الخلق، ويقل الغياب عن السجادة، ولا يذهب إلى السوق قصدا، وإذا أراد القيام من أجل حاجة بأن يريد أداء عمل من أعماله، كأن يلبس ثوبا أو يخلعه مثلا يستأذن من الجمع أو من شيخ الجماعة، ولا يجلس متربعا على السجادة ولا يخيط الخرقة خفية عن القوم، ولا يأكل شيئا فى الخفاء، وإن يكن لوزة واحدة، لأنهم يستقبحون ذلك، ولا يكثر الكلام أمام الجمع، وإذا وضعوا[5] الخرقة يوافقهم وكذلك فى خلعها، ولا يمزق ما استطاع خرقة أحد، ولا يقوم بتفرقة الطعام لأن فى ذلك شروطا لا يستطيع أداءها كل شخص، ولكن يعد صب الماء على الأيدى غنيمة ولا يضع قدمه على خرق الناس

---

(1) ترجمة (كوزهٔ طهارت) وهى آنية الماء المصنوعة من الفخار أو الخزف.

(2) الزورقى قلنسوة على هيئة الزورق يلبسها بعض الصوفية (برهان قاطع).

(3) الطامات والطمطمات بمعنى وهى الكلام غير المفهوم الذى يتفوه به المريدون فى حلقات الذكر فى حالة الانجذاب والوجد.

(4) ترجمة العبارة الواردة فى نسخة هدايت (ولا يطيل المكث «ديرنباشد» فى ... الخ)

(5) أى لبسوا.

وسجاجيدهم ولايمشى حثيثا بين الجماعة ولايمر كثيرا أمام الجمع،ولايجلس مكان الآخرين ولا يكتئب ، وفى الوقت الذى يشتغلون فيه بالسماع أو يمزقون الخرق، لايقوم ولا يقول شيئا ولا يرقص عبثا مالم يجارهم الشيخ ، ولا يولى أحدا ظهره فى الرقص وإذا مزق الثياب على جسده لا يخلعها فى الحال ولا يضعها أمام الشيخ ، وإذا مدحه درويش أو ذمه يشكره ويقدم له شيئا، وإذا أعطاه درويش خرقة لا يقول لا آخذها بل يأخذها ويزيد عليهاويردها إليه ، وإذا أدى لدرويش عملا أو خاط له ثوبا أو غسله لايعيده إليه بغير شكر ، وإذا قام بعمل يحصل منه إساءة لدرويش يكفر عنه سريعاً ، وإن أصابته راحة يشكر ، وينصف من نفسه ولا يطلب ما استطاع الإنصاف من أحد . أما دراويش إصفهان فيطلبون ويعطون ، وقوم خراسان لا يطلبون ولا يعطون وقوم طبرستان يطلبون ولايعطون ، وقوم فارس يعطون ولا يطلبون وسمعت أن التصوف ظهر أولا فى فارس.ويجب أن يعد الدرويش عناء نفسه كنزا، ويختار الأناة فى الشيخوخة ولايغيب عن السفرة وقت تناول الطعام حتى لا ينتظره القوم ولا يمد يده إلى الزاد قبل الجماعة ، ولا يكف يده عن الطعام إلا مع القوم ، ولا يتطلع إلى زيادة فى التفرقة ، ولا يؤثر أحدا بنصيبه بغير إذن ، وإذا لم يستطع تناول الطعام لعلة يقدم العذر قبل وضع السفرة ولا يقول شيئا على السفرة ، وإذا كان صائما لا يخبر أحدا بصومه ويفطر ويوافق ولا يتطهر بغير تمييز ، ويقصر الثياب للطهارة ولا يتوضأ تارة على الطريقة الخوارزمية وتارة على الطريقة العراقية وحينما يتوضأ لا يجلس مبتل القـــدم على السجادة ، ولا يدخلها فى الحذاء ولا يضعها على الأرض وإن تكن طاهرة ، لأن ذلك ليس من النظافة ، وهذا هو شرط المروءة وآداب التصوف .

أما شرط المحب فهو أن لا يكون منكرا على طمطمات الصوفيين ولايسأل عن تفسير الطامات ويرى عيبهم فضلا ، ويعد كفرهم — مثلا — إيمانا ويكفر عن الكلام غير المقبول ، ويحفظ ثوبه طاهرا أمامهم ويجلس فى مكانه

باحترام ، وأن يحترم خرقتهم التى تكون من نصيبه ويقبلها ويضعها على رأسه ولا يضعها على الأرض ولا يستعملها فى الأعمال الوضيعة ولا يكون خلوا من الخير ما استطاع ، وإذا رأى الصوفيين قد وضعوا الخرقة يضعها هو أيضا ، وإذا كانوا بحيث قد خلعوا تلك الخرقة من أجل اللهو فى دعوة أو طعام يشتريها ثانيا ويرفعها ويقبلها ويضعها على رأسه ويردها لأصحابها ، وإذا كانت تلك الخرقة قد سقطت بسبب النقار فلا ينشغل بذلك البتة ويتركها ثانيا للشيخ،ولا يتدخل فى نقار الصوفيين مااستطاع ، وإذاحدث ذلك فى وقت مايقف فى مكانه ولا يتكلم قط حتى يصلحوا شأنهم بأنفسهم مرة أخرى ، ولا يكون وكيلا لله بين الصوفية كأن يقول حان وقت الصلاة أو يقول فلنقم لنصلى ، ولايكون باعثا على الطاعة لأنهم مستغنون عن أمر شخص لهم بالطاعة ، ولا يضحك بينهم كثيرا ، وكذلك لا يكون ثقيل الروح وعابس الوجه لأنهم يسمون مثل هذا الشخص « حذاء» حتى يذهب ، وإذا وجد مرة طعاما حلوا وإن يكن قليلا يحمله إليهم ويعتذر قائلا : ولو أنه قليل فإنى لم أرد أن أعمل قبيحا لأن الحلوى بالصوفية أولى ، ودليل كلامى هذا بيتان :

رباعى

أنا صوفى يامن وجهك بين الحسان فرد ، وكل الناس شيبا وشبابا ونساء ورجالا يعرفون أن شفتك الحمراء من الحلاوة حلوى ، وفى مذهب[1] الصوفية يجب عمل الحلوى

* * *

فإذا فعلت هكذا تكون قد أديت تمام صدق المحبين ومروءتهم ، لأن ما ذكرنههو شرط صدق ومروءة المريدين والمحبين .

أما ذلك الفريق الذين أصابهم من الصورة الإنسانية الجسد والروح والحواس يعنى المروءة والصدق والعلم فأولئك هم الأنبياء، لأن كل جسد تتجمع فيه هذه الخصال الثلاث لا بد وأن يكون نبيا مرسلا أو وصيا حكيما ، لأن

(١) الترجمة الحرفية : عمل .

فيه كلا الفضيلتين الجسمانية والروحانية، والفضيلة الجسمانية هي الصدق والمعرفة والفضيلة الروحانية هي العلم ، وإذا خفي عليك أن لماذا أحلوا العلم فوق المعرفة ، فاعلم أن الاسم الفارسي للمعرفة هو (شناختن) وحقيقة (شناختن) هي أن تأتي بالشيء من حد الغرابة إلى حد المعرفة والاسم الفارسي للعلم هو (دانش) وحقيقة (دانش) هي أن تعرف المعروف والغريب في حالتي المعرفة والغرابة تماما لتعرف الدرجات الحسنة والدرجات السيئة ، واعلم كذلك أن تمام العلم في كل شيء خمسة أنواع : الأيشية والكمية والكيفية والسببية واللمئية يعني «المصادر من» : أي شيء ؟ وكم ؟ وكيف ؟ وما سبب ؟ ولم ؟

فالأيشية هي أن تقول إني أعرف فلان أي شيء هو ومن هو ، وهذه هي المعرفة ، والبهائم مشاركة للآدمي في هذا المعنى لأنها تعرف غذاءها وصغارها وكذلك الآدمي ، ولكن لما زاد العلم في الآدمي عرف الأيشية مع الكيفية والكمية والسببية واللمئية ، ألا ترى أنك إذا وضعت للبهائم النار في مذودها فإنها لا تبتعد ما لم تدخل فيه رأسها ويصيبها ألم النار وتحترق ؟ لأنها تعرف النار بالأيشية لا بالكيفية ، والآدمي يعرف الأيشية والكيفية ، فصار حقا أن العلم فوق المعرفة ، وأن كل من له كمال العلم يليق بالنبوة لهذا السبب ، لأن للأنبياء علينا من الشرف والزيادة بقدر ما لنا على البهائم ، ولأن للبهائم معرفة الأيشية وحسب وللآدمي الكيفية والكمية وللأنبياء الكيفية والكمية والسببية واللمئية، والبهائم تعرف أن النار تحرق وكفى، والآدمي يعرف أنها تحرق وكيف تحرق ولأي سبب تحرق ، أما كمال الآدمي فهو الإنسانية ، يعني أن يكون له كمال المروءة ، وكمال المروءة هو أن يكون له كمال العلم ، وتلك هي النبوة ، وكمال النبوة هو الروحانية لأنه لا توجد في درجة الآدمية منزلة أعلى من النبوة ، فأولئك القوم الذين أصابهم من الصورة الإنسانية الجسد والروح والحواس والمعاني ليسوا سوى الأنبياء حقا .

والشخص الذي أصابه نصيب كامل من الصورة الإنسانية لا يمكن

أن يوصف إلا على مقتضى الصفاء وهو أسمى من الوهم وتكون معرفته بالمعاملة لا بالقول ، وتجربة ذلك الشخص الذى له صفاء تكون منه وحده ويكون منه العلم كذلك وصفاؤه بغير سلف وقصده بغير غرض وبغير طلب وهو برىء من الوحشة ومنزه عن الأنانية وبعيد عن السبب وبقاؤه فى الفناء، وصافى الصفة فى الصفات ، ويرى نفسه فى غيره وينظر إلى العين بعين غير العينية ، فإذا سمت منزلة هؤلاء القوم وصارت محط الأنظار فجائز . فاجتهد يابنى أن تكون بعيد النظر فى كل صفة تكون وقرينا للمروءة لتكون من المصطفين وإذا أردت أن تسلك طريق المروءة فى أية طائفة تكون فلا تكن مستهترا وكف على الدوام ثلاثة «عن ثلاثة »[1]:

العين عما لا ينبغى رؤياه ، واللسان عما لا يليق قوله ، واليد عما لا يحل أخذه ، وافتح للصديق ثلاثة أشياء : باب البيت والسفرة ، ورباط الكيس على قدر طاقتك . ولا تكذب لأن كل اللئام يتميزون بالكذب ، وكل اللؤم فى قول الكذب ، وإذا اعتقد شخص فى مروءتك ، وإن كان قد قتل أعز الناس عليك وكان ألد أعدائك ، ما دام أسلمك نفسه وأقر بعجزه واعتمد على مروءتك من دون كل الخلق ، إذا كانت روحك ستذهب فى هذا الأمر فدعها تذهب ولا تخش ، وجاهد من أجله بروحك لتتحقق فيك المروءة [2] ، وحذار أن تنشغل بالانتقام لما مضى وتفكر فى الخيانة لأن الخيانة ليست من شرائط المروءة ، واعلم يابنى أن هذا الطريق طويل ،وإذا بينت مروءة كل طائفة فإن كلامى سيطول فى كيفية ولمية هذا الطريق ولكنى أختصر الكلام لأن كل هذا الذى قلته فيه فصل الخطاب .

اعلم أن أتم المروءة هو أن تعد ما هو لك من متاعك ، وتقطع الطمع عما للخلق وإذا كان لك شىء تجعل منه نصيبا للناس ، ولا تطمع فى مال الناس ولا تأخذ ما لم تكن قد وضعته وإذا استطعت إسداء المعروف إلى الناس

(١) ليست فى الأصل .

(٢) الترجمة الحرفية ــ لتصل إليك المروءة .

تفعل ، وإذا لم تستطع عمل الخير فلا أقل من أن تكف شرك عن الخلق فإن أجل الناس من يعيش فى العالم كما ذكرت ، فتكون له الدنيا والآخرة أيضا .

واعلم يابنى أنى تحدثت عن القناعة فى هذا الكتاب فى عدة مواضع وأكرر ذلك مرة أخرى ، فإذا أردت أن لا تكون حرج القلب على الدوام فكن قنوعا ولا تكن حسودا ، ليطيب وقتك دائما ، لأن أصل الغم هو الحسد ، واعلم أن تأثير الفلك من خير وشر يصيب الناس دائما ، وكان أستاذى يقول : يجب أن يشرئب المرء بعنقه ويفغر فاه أمام الفلك على الدوام حتى إذا ماوقعت شدة تلقاها بعنقه أو لقمة تلقاها بفمه ، كما يقول الله تعالى (فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) لأن تأثير الفلك لا يعدو هذين ، وإذا سلكت الطريق[1] وتعودت القناعة فإن جسدك الحر لا يكون عبدا لشخص ، ولا تجعل للطمع مكانا فى قلبك وارض بالخير والشر على تلك الحال التى قد اتفقت لك ، واعلم أن الناس جميعا من أية طائفة كانوا ، عبيد لرب واحد وكلهم أولاد آدم ، وكل فرد يكون أقل من آخر بسبب الحاجة والطمع ، فإذا أخرج المرء الطمع من قلبه واتخذ القناعة شعارا يستغنى عن كل العالمين فأكثر الناس احتشاما فى الدنيا من لا تكون له حاجة إلى أحد ، وأحقر وأخس شخص فى العالم من كان ذا طمع واحتياج ، إذ أن الناس يجعلون أنفسهم عبيدا لأمثالهم بسبب الطمع والحاجة .

حكايـــة

دخل الشبلى رحمة الله عليه مسجدا ليصلى ركعتين ويستريح بعض الوقت وكان فى ذلك المسجد صبيان كتاب والوقت وقت طعامهم ، فكانوا يأكلون ، واتفق أن كان طفلان جالسان أمام الشبلى أحـــدهما ابن

---

(١) الترجمة الحرفية . وإذا أخذت الطريق على يدك والمقصود بالطريق طريق التصوف .

غنى والآخر ابن فقير، وفى زنبيل ابن الغنى حلوى ، وفى زنبيل ابن الفقير خبز يابس ، وكان ابن الغنى يأكل الحلوى وابن الفقير يطلب منه فقال له : إذا أردت أن أعطيك حلوى فكن كلبى ، فقال هذا الصبى أنا كلبك ، فقال ابن الغنى : انبح نباح الكلب، فانثنى ابن الفقير المسكين وأخذ ينبح نباح الكلب حتى أعطاه قطعة حلوى ، والشبلى ينظر إليهما ويبكى ، فسأله المريدون أن ماذا حدث ياشيخ فبكيت ؟ فقال : انظروا إلام يصل الطمع بالناس ! لو أن ذلك الصبى قنع بخبزه القفار ولم يطمع فى الحلوى لما لزم أن يكون كلبا لمثله .

فإن تكن زاهدا أو فاسقا فكن قانعا ومحمود الفعال لتكون فى الدنيا أجل الناس وأقلهم خشية . اعلم يابنى أنى ذكرت فى هذا الكتاب أربعة وأربعين بابا ، وفى كل باب تحدثت إليك عن كل معنى عرفته بقدر ماواتانى الطبع ، وذكرت كل ما كان من عظة ونصيحة إلا فى باب العقل لأنى لا أستطيع أن أقول قط كن عاقلا وأريبا بالعسف ، إذ لايمكن أن يكون المرء عاقلا قسرا ، اعلم أن العقل نوعان ، عقل غريزى وعقل كسبى ؛ أماذلك الغريزى فيقال له فى الفارسية (خرد) وذلك الكسبى يقال له (دانش) أما مايكون كسبيا فيمكن تعلمه ولكن العقل الغريزى هدية الله ولا يمكن تعلمه من المعلم بالتعليم فإذا كان الحق تعالى قد أعطاك العقل الغريزى فاجتهد فى الكسبى وتعلم واقرن الكسبى بالغريزى ليصل إلى درجة الكمال وتكون بديع الزمان ، وإذا لم يكن عقل غريزى لانستطيع أنا وأنت عمل شىء فلا تقصر فى الكسبى على أى حال وتعلم بقدر ماتستطيع حتى إذا لم تكن من جماعة العقلاء لاتكون أيضا من جملة الجهلاء ويحصل لك واحد من الإثنين فقد قيل : إذا لم يكن الآب فلا أفضل من الأم ، فالآن إذا أردت أن تكون عاقلا فتعلم الحكمة فإنه يمكن تعلم العقل بالحكمة ، كما سألوا أرسطاطاليس أن من أى شىء تكون قوة العقل ؟ فقال قوة كل إنسان من الغذاء ، وغذاء

العقل من الحكمة . فاعرف الآن يابنى أنى ذكرت من كل علم وفن ومهنة عرفتها فصلا فى كل باب وكل ما كان من عادتى جعلته جملة كتابا فى أربعة وأربعين بابا من أجلك ، واعلم أن هذه كانت دائما عادتى من وقت الشباب إلى زمن الشيخوخة وقضيت مدة ثلاث وستين سنة من العمر بهذه السيرة وعلى هذه الوتيرة ، وبدأت هذا الكتاب سنة خمس وسبعين وأربعمائة [1] ، فإذا أعطانى الله تعالى عمرا بعد هذا أكون كذلك على تلك القاعدة ماحييت ، وما استحسنته لنفسى استحسنته لك أيضا ، وإذا رأيت خصلة وعادة أفضل من هذه بحيث تكون أفضل لك فاعملها وإلا فاسمع وصاياى هذه بسمع القلب واعمل بها ، وإذا لم تسمع ولم تقبل فلا ضير عليك ومن يكن الله تعالى قدخلقه سعيداً يقرأها ويتقبلها ويعمل بها لأن كل ماقلته علامة السعداء فى الدارين ، فليرحمنى الله تعالى وإياك ويبلغك رضائى فى الدارين بمنه وفضله وكرمه والحمد لله رب العالمين .

* * *

تمت بعون الله ترجمة هذا الكتاب فى القاهرة يوم الأحد ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٢ م . الموافق ٨ محرم سنة ١٣٧٢ هـ .

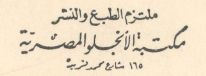
---

(١) قدمنا فى التمهيد أن الكتاب ألف بين سنتى ٤٥٧ ، ٤٦٢ هـ . وأن المؤلف توفى سنة ٤٦٣ هـ .

صفحة الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥	١	يحيل	ويحيل
١٥	٢	وآداب	ويبين آداب
١٩	٩	دارسى	دارس
٢٢	٤ « حاشية »	٣١٦ هـ .	٣١٥ هـ .
٤٣	١٨	لأبواب	لأبوابه
١٢٩	١١	القيچاق	القپچاق
١٣٥	٤	لتسكن	لتسكون
١٤٢	١٤	وقال	وقالا
١٦٣	٦	إهليج	إهليلج
١٨٤	٣ « حاشية »	ق	فى
٢٠٤	٨	الدارگاه	الدرگاه
٢٣١	أول سطر ١١	ويتكون	يتسكون
٢٤٠	١٤	قبيحا	قبيحا


دار الطباعة الحديثة


ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد